د. سامى منصور

مذبحة لبنان الكبرى

حرب الاستنزاف العربية الجديدة

المركز العربي للبحث والنشر

القاهرة ١٩٨١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا

د. سامي منصور

مذبحة لبنان الكبرى

حرب الاستنزاف العربية الجديدة

المركز العربي للبحث والنشر
القاهرة ١٩٨٢م



المقدمة

إن مضى مايقرب من ثلاثة أعوام على اشتعال مذبحة لبنان الكبرى من مرحلة الحرب ، «القذرة» ــ كما يقال ــ إلى مرحلة تصفيات المواقع هى فترة تكفى بدون شك لوقفة تسمح بقدر محدود من التقاط الأنفاس وتحديد ملامح جبهة القتال .

وقد كانت أبرز ملامح الصورة قبل أن تهدأ الأنفاس اللاهثة :

إن مذبحة لبنان لم تكن حربا طائفية بين مسيحيين ومسلمين رغم كل محاولات إظهارها بثوب الحرب الدينية . وإذا كانت الأغلبية منا قد أرادت أو أريد لها أن تخدع بظواهر كاذبة توحى بانتشار وباء الطائفية فإن الأقلية رفضت منذ البداية دعاوى الخداع وظلت تصرخ بالحقيقة الضائعة وسط إعلام لم يكن أمينا على الحقيقة .

الحقيقة أن فى لبنان عشر طوائف مسيحية لم يشترك منها فى الحرب غير الموارنة وأن هناك من الموارنة نسبة لايستهان بها وقفت منذ اللحظة الأولى ضد الحرب . ومنها شخصيات قدمت لى العون لإظهار هذه الحقيقة ، وأن الذين صمتوا على الجريمة لم يكن صمتهم بالقبول ولكنه كان بقهر السلاح المصوب إلى رؤوسهم ،

ومذبحة لبنان لم تكن حربا بين يسار ويمين كما أرادت القوى أصحاب المصلحة فى خداع الشعوب العربية تصويرها . صحيح أنها استقطبت خلال معاركها قطاعات من اليمين واليسار ولكنها بقيت فى تيارها العام بين قوى وطنية وقوى أرادت أن تكون أداة لمصالح أجنبية مقابل أن تحقق من خلال المذابح أحلاما مريضة .

ومذبحة لبنان كشفت عن سذاجة سادت النخبة الحاكمة فى العالم العربى . إذ دخلت فى تحالفات ومحاور خلال الحرب وتصورت أنها روابط حقيقية وأن لها ادوار «البطولة» فى الدراما ، والسنوات الثلاث كشفت أن الكل كان ضحايا المكاسب المؤقتة على حساب الاستراتيجيات والأهداف البعيدة . وظهر أن اصحاب الأدوار الأساسية هم منذ البداية وحتى النهاية بدون تغيير .

والأهم من ذلك أن ماجرى بكل بشاعته لم يكن أكثر من حلقة فى قيد حديدى سبقتها حلقات. ولم يكن ممكنا أن ينجح ماجرى بعدها دون أن تكتمل هذه الحلقة لتربط القيد فيصبح جاهزا لكتبيل الأيدى بعد أن تكون قطعت الألسنة ، وفقدت العيون القدرة على الرؤيا وسط الأطلال .

وقد يبدو هذا التصوير بكل خطوطه لوحة تجريدية يصعب على البعض إدراك ألوانها دون مزيد من الاقتراب تجسيدا للواقع .

والواقع أن الجناح الذى بدأ المذبحة فى حزب الكتائب يقيم اليوم كل مظاهر دولته فى رقعة من أرض لبنان ، بعد أن كان يتغنى بكل لبنان . وأنه دخل الحرب .

لحماية استقلال لبنان من عدوان الدخلاء . وهو لم يكن يريد غير تفتيت لبنان . وقد شكل لنفسه جيشا من الميلشيا وتليفزيون ومكاتب إعلام — سفارات — فى عدد من العواصم وإدارات للداخلية والتموين والمالية .

وإذا كانت دولة الكتائب توشك على الإعلان فإن إسرائيل الطرف الثانى تقوم بحكم الجنوب بعد أن فرغته تقريبا من سكانه وأصبحت مصادر المياه التى ظلت تسعى للحصول عليها فى متناولها بدون عناء .

استمرار حرب الاستنزاف العربية على أرض لبنان . وإذا كانت إسرائيل قد استوعبت درس حرب الاستنزاف التى شنتها مصر عليها فأرهقت مواردها ومزقت أعصابها فهى اليوم تعيد الدرس ولكن هذه المرة على العرب فى الساحة اللبنانية .

وإذا كان تفسخ التحالفات التى أعطت للمذبحة أبعادها ، وتعديل المحاور التى سارت أنهار الدماء فى مجاريها . إذا كان ذلك سبب بعض الخلط ، فإنه فى الواقع كان الدليل القاطع على أن الحرب لم تكن طائفية بين مسيحيين ومسلمين ولا بين يمين و يسار .

فالمذبحة بدأت وفى لبنان جبهة الموارنة وأطرافها حزب الكتائب (عائلة الجميل) وحزب الأحرار (عائلة شمعون) وجماعة رئيس الجمهورية وقتها سليمان فرنجية وشربل قسيس رئيس الرهبانيات الكاثوليكية . ولم يعد فى الجبهة اليوم سوى حزب الكتائب .

فبداية استطاعت الفاتيكان بجهد صادق أن تصحح الخطأ وتعيد للرهبان دورهم الدينى بعد أن انحرف شربل قسيس بالرهبانيات عن دورها بشخصية مريضة أرادت إعادة أساطير الحرب الصليبية إلى الحياة من جديد حيث يحمل الصليب الخشبى على صدره والمدفع الرشاش على كتفه . وشهادة إنصاف أن البطرك المارونى قد بذل كل الجهد منذ اللحظة الأولى لوقف شربل قسيس .

ولما فشلت جهوده استعان بالفاتيكان ومن خلال انتخابات رهبانية و بتوجيه من الفاتيكان خرج شر بل قسيس إلى الظلام يلعن الجحود من الذين وقف معهم وتركوه يسقط ، مع أنهم كانوا من أكثر المشجعين للتخلص منه . وهكذا سقط أحد الأركان الأربعة للجبهة .

وقد قامت جماعة من حزب الكتائب بالهجوم على اهدن مقر فرنجية فى يونيو ١٩٧٨ وقتلت ابنه وزوجته وطفلته مع عشرات من رجال فرنجية . ثم دارت بعد ذلك عدة معارك تم خلالها تصفية القوة الضاربة لجماعة فرنجية . وخوفا من أى لبس فى المعنى إذ يتصور البعض أن اغتيال تونى فرنجية هو تخويف للأب . فالحقيقة أن التصفيات تهدف فى الأساس إلى الجيل الثانى باعتبار أن الجيل الأول فى الجبهة تجاوز جميعه السبعين من العمر وأن لحظة نقل السلطة قد حانت . وأحزاب الجبهة فى لبنان أحزاب عائلات فى الأساس . وهكذا تتضح أهمية اغتيال تونى فرنجية لحظة تصفية المواقع . وخرج بذلك الركن الثانى فى الجبهة .

وقامت فى يوليو ١٩٨٠ جماعة من حزب الكتائب أيضا بالهجوم على مقر كميل شمعون ولولا أن الجيش اللبنانى أحس بالخطة فقام بخطف ابن كميل شمعون بطائرة هيليكوبتر لتكررت نفس القصة ولذلك أسرت زوجة الإبن وابنته وأفرج عنها بعد إكتشاف تهريب دانى شمعون . وقامت جماعة الكتائب بتصفية القوة المسلحة لحزب شمعون وإن كانت قد فشلت حتى الآن فى اغتيال خليفته فهى قد جعلت من الحزب مجرد واجهة سياسية بدون فاعلية عسكرية . وسقط بذلك الركن الثالث حيث لم يبق سوى الجناح العسكرى من حزب الكتائب .

والواضح أن كل هذه المذابح والتصفيات بين القوى المارونية الكاثوليكية و بعضها وأنها جميعا بين قوى يمينيه لايمكن أن يتصف أحد منها باليسار .

وإذا كانت جبهة الحركة الوطنية أكثر تماسكا فى مواجهة الخطر إلا أن

الصراعات العربية قد امتدت إلى بعض فصائلها وإن كانت كلها فصائل هامشية حيث تتقاتل الفصائل التى تنتمى للعراق مع الفصائل التي تنتمى إلى سوريا . كما تتقاتل فصائل العراق مع فصائل الشيعة الإيرانية . وهى كما قلت جميعها قوى على هامش الجبهة الوطنية إن لم تكن خارجها منذ البداية .

ويبق فى صورة اليوم دور سركيس رئيس الجمهورية فهو جاء إلى كرسى الحكم بارادة سورية مسلحة فإذا به يتحول مع الأيام إما بالضعف والتردد وهى من صفاته أو بحكم الإنتماء إلى أداة فى أيدى قيادة حزب الكتائب . ويكفى أنه لم يحسم طوال سنواته أى موقف مع حزب الكتائب بل الأكثر أنه حين شعر أن هناك احتمالا كبيرا فى تشكيل جبهة من كل لبنان ضد حزب الكتائب بعد مذابحه ضد حزب شمعون ومن قبله فرنجيه إذا به يلجأ وبدون مقدمات بقبول استقالة الوزارة ويشغل كل القوى بلعبة كراسى الحكم عن جرائم حزب الكتائب وهو قد نجح فى ذلك إلى حد بعيد . ويحلو للبعض أن يقول إن سقوط سركيس فى بئر الكتائب لم يكن بالانتماء وإنما بالعجز والضعف . ومهما كانت الأسباب فالعبرة بالنتائج .

والغريب أنه ليس هناك أى دلائل على أن الذين يلعبون بالسياسة فى هذه المنطقة يستوعبون درس سركيس وغيره . حيث تتصور إحدى القوى أن وضع شخصية ضعيفة فى موقع القيادة يجعلها تحكم من خلال الضعف رغم أن الواقع دائما يكذب ذلك . فالضعيف يصبح دائما إغراء لكل القوى للاستيلاء عليه . ومن يستطع تصبح القيادة فى يده ويتحول إلى إداة قمع على الذين جاءوا به ليس لأنه أصبح قويا ولكن لأنه أصبح فى أيدى قوى أخرى !

ولذلك تحولت القوات السورية التى دخلت لبنان لنصرة جبهة الموارنة وبتحالف مع الكتائب إلى فريسة فى مصيدة محور الكتائب — إسرائيل . ولم تجد سوريا مفرا من جمع خيوط قواتها المبعثرة فى لبنان بعد أن امتدت اليها كل أمراض المجتمع اللبنانى . وتحاول أن تفتح القنوات التى أغلقتها — بسلوكها الخاطئ — مع

الجبهة الوطنية بعد أن أصاب الجبهة الإرهاق والتعب على أيدى القوات السورية .

وانتظارا لما سوف تنتهى إليه المأساة فى لبنان . وهى قد دخلت بالفعل فى مرحلة تجسيد النتائج . فإن الموقف قد أصبح ملحا فى دراسة أبعاد هذه المأساة وتفاصيل أحداثها حتى يمكن تصور ما سوف تنتهى إليه بوضوح .

وقد شدتنى مذبحة لبنان ليس لما احتوته من غرائب ومآس ولكن باعتبارها الحلقة التى مهدت الأرض بإرادة عربية — حكومية — شبه جماعية للأحداث التى لحقت بها . خاصة وأن محاولة الاقتراب من حقائق المذبحة كانت تمثل عنصر خطر على الذين يعيشون أحداثها هناك . وكان لابد من أحد يتطوع لعرض أكبر قدر من الحقائق التى أمكن الوصول إليها مهما كان الثمن الذى يمكن أن يدفعه .

وقد قمت بدراسة الحرب فى لبنان من خلال أربع رحلات استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر . وبقيت الدراسة رغم الانتهاء منها منذ عامين حبيسة اعتبارات كثيرة لم يكن لى دخل بها .

وقد بقيت طوال هذه الأيام والشهور أشعر بالاختناق والألم . اختناق مع عرف حقيقة بشعة وسكت عنها حتى ولو كان مرغما على السكوت . والألم لأن الجريمة مستمرة والحقائق ما زالت ضائعة .

إن أزمة الحرب الأهلية فى لبنان كانت بلاشك «أزمة ضمير» للإنسان العربى العادى ، ولكنها كانت « محنة ضمير» للإنسان العربى الذى يعرف قدرا من خباياها ، أما الذى يعرف أكثر خباياها المفجعة فإننى أشفق على ضميره بل وعقله ..

فهى حرب مزقت بسلاحها روابط جمعها الدم والمصير .. ودفنت بأنقاضها هالات عربية كانت تخدع أبصار الكثيرين طويلا .. وفضحت باستمرارها مواقف دول كان لها صوت يتغنى إما بالقيم والدين وإما بالأيديولوجية والثورية .

وسقطت ببشاعتها دعاوى حضارية كان يتشدق بها متخلفون اجتماعيا وحضاريا .. بل وعقليا .

وانتهت المأساة ، والكل ملوث بدمائها .. الأيدى تقطر دما والملابس تفوح عفنا .. والكل عار بعد أن ألقى بثوبه على جثث الضحايا ليصبح المقتول قاتلا .. والمجنى عليه جانيا . بينما القاتل يحتل مكان القاضى ليحكم ببراءة نفسه .. و باختصار لا قانون .. ولا خلق .. ولا دين بل ظلام مخيف وشهادة مكتوبة على ضوء النجوم .. تقول إن هذه الرقعة .. العالم العربى .. تعيش فى مرحلة الكهوف أى ما قبل التاريخ حيث السيادة للحيوانات المفترسة .

واقترابا أكثر من الصورة يؤكد أن لها فى لبنان مواصفات تنفرد بها :

أولا : المسميات فيها ليست على أسمائها ..

□ فالشرق مثلا فى العالم اليوم هو اليسار ، والغرب هو اليمين .. إلا فى لبنان فالمنطقة الشرقية هى الانعزاليون والغربية هى الحركة الوطنية .

□ والذى يتحدث باسم المسيحيين هو آخر من يدخل الكنيسة وربما لم يدخلها مرة .. والذى يتحدث باسم الإسلام لا يجيد لغة القرآن .. ومن يدافع عما يطلق عليه «المسيحيين» هم مسلمون .. ومن يدافع عما يطلق عليه «المسلمين» هم مسيحيون

□ والحزب الذى يسمى نفسه «الوطنيين الأحرار» هو ممثل الإستعمار و يكفى أن رئيسه هو كميل شمعون ..!

□ والذين يقودون القتال و يتحدثون عن الصمود .. لم يطلق أحدهم رصاصة . فهم يقاتلون حتى آخر فقير لبنانى .. والمأساة أن بين خمسين ألف ليس بينهم قتيل له أسم .. أى من عائلة من العائلات التى تحكم وتتحدث عن القتال وتجنى ثمن الضحايا !

ثانيا : إن الارقام فى لبنان لغة هيروغليفية غير معروفة إلا بالنسبة لأسعار العملات الأجنبية . فهى دولة بلا احصاءات حقيقية .. والرقم الحقيق إن أمكن الوصول إليه — وهو المستحيل بعينه — فهو سلاح مدمر للأكاذيب التى يقوم عليها الكيان .

فالأرقام هناك لابد أن ينظر إليها بالشك وأن تؤخذ بحذر . فالرقم يتحول من دليل عن الواقع إلى موقف سياسى فى طرق ملتوية والتلاعب بالأرقام بلا حدود حتى ولو كانت أسعار الدولار !!

ثالثا : الموارنة يتحدثون وكأنهم كل المسيحيون مع أنهم طائفة من ١٣ طائفة مسيحية . كما أنهم ليسوا أكبر الطوائف بل هم من بين أكبر الطوائف حيث تتساوى معهم الأرثوذوكسية . وإن دافعوا عن انعزاليتهم تستروا وراء المسيحية وإن تحدثوا عن الانتماء تبرأوا من الجميع .

رابعا : انه رغم استمرار الحرب ما يقرب من العامين فإن «الإعتام» الاعلامى مفروض على المأساة . فشات المقالات التى نشرت هى معالجة للأخبار والكتب التى ظهرت لم تمس صلب المشكلة . فع حركة النشر الهائلة فى الولايات المتحدة لم تنشر سوى دراسة واحدة عن صورة مجتمع لبنان دون مساس بالمأساة وفى بريطانيا كتاب واحد عن ندوة حول مقومات البنيان اللبنانى . وليس العذر فى المعلومات لأنها موجودة ولا فى الإمكانيات فهى هائلة .. فلماذا التعتيم الدولى ، والملاحظة أن أغلب الكتب مجرد يوميات أو مذكرات أو مقالات وليست هناك دراسة بينها ..!

الجواب ربما كان فى مثل شعبى لبنانى بعث به سليمان فرنجية الى الرؤساء الأربعة العرب المجتمعين يومها فى الرياض وسمعته منه ..

«إن جارك حلق ، بل لحيتك» أى على حد تعبير سليمان فرنجية الدور عليكم — ! — بل أكاد أراها تتكرر على مساحات عديدة فى العالم الثالث .

ولكن .. لماذا لبنان على وجه خاص .. لأنه ببساطة نقطة تجميع لكل خطوط سياسات المنطقة العربية (١) .

فلبنان هو البلد الوحيد على خط المواجهة الذى تجد المقاومة الفلسطينية لها فيه موطئ قدم ، وقاعدة عمل .. مصر بعيدة .. سوريا لها ظروف تقدرها لنفسها .. الأردن مغلق . و يبقى لبنان وحده .

وبحكم أن لبنان هو المركز الوحيد الباقى لتواجد المقاومة الفلسطينية فإن المقاومة تكثف وجودها فيه بطريقة ظاهرة ــ وهذا منطقى ــ لأن وجودها فيه يكاد يكون معظم وجودها نفسه .

ولبنان المفتوح على الدنيا مركز مواصلات مهم ، و بالتالى فالصوت مسموع قادر على تذكير العالم الخارجى — لكى لا ينسى — بان هناك طلائع للشعب الفلسطينى مازالت تحمل السلاح

وفى نفس الوقت تعيش المقاومة الفلسطينية مشكلة معقدة ، لأن بعض الدول العربية تحاول أن تستعملها بأكثر مما تساعدها إلى درجة أن أصبح لبعض الدول تنظيمات تدين لها بالولاء أكثر مما تنتمى إلى الثورة التى تحمل اسمها . والمقاومة وسط ذلك تحاول أن تحتفظ باستقلالها . ولكن المناورات من حولها خشنة . .

هذا إلى جانب أن المقاومة بتأثير السياسات العربية المختلفة تعانى من تناقضات فى صفوفها . وهى لاتستطيع حسمها بسهولة ، وإلا وجدت نفسها فى حرب أهلية فلسطينية داخل حرب أهلية عربية . و بالتالى فإن هناك تصرفات تقع

لا تريدها القيادة المسئولة للمقاومة ، ولكن المأزق الحقيقى هو أنها لا تستطيع أن تمنعها ولا تستطيع أن تحاسب عليها .

والمقاومة تحاول قدر ما تستطيع وتسمح له الأحوال العامة وأحوالها الخاصة أن تقوم ببعض العمليات ضد العدو . ولأن وجودها فى لبنان ظاهر — مرئى ومسموع — فان العدو يختار لبنان هدفا لضرباته الإرهابية ، فضلا عن أنه يريد مطاردة المقاومة الفلسطينية من آخر معقل مفتوح أمامها على خط المواجهة . والمقاومة تتحمل ، وهى ترى أن لبنان عليه أن يتحمل لأنه قبل أى شئ و بعد كل شئ خط على المواجهة العربية ، وليس مثيلا لهونج كونج على شاطئ الأرض العربية . وحتى لو كان فيه من يتوهم نموذج هونج كونج فإن الوهم ضائع ، لأن مطامع إسرائيل فى لبنان داهمة .

ولبنان بحكم السيطرة المارونية يريد أن يعيش على الأموال العربية فيتعامل بها دون أن يدخلها فى دائرة السياسة العربية . فهو عربى اقتصاديا ولكنه أوربى سياسيا ، أو على حد التشبيه اللبنانى .. «دور اليهود العرب» ..

والمصلحة الذاتية أيضا أصبحت عاملاً مؤثراً فلبنان يعيش على مصدرين فهو جبل وبحر للسياحة .. ثم إنه بنك وميناء للتجارة .. وكلتاهما (السياحة والتجارة) لاتحب فرقعة القنابل .

ووسط بحر التناقض على ساحة لبنان ، تغيرت الأهداف ، وتبدلت الخطط فى المنطقة فإذا بالمطلب المارونى الذى كان بالامس جريمة يصبح رغبة مكبوتة فى عواصم عربية كثيرة .. وتوافقت الأهداف العربية والمارونية مع أهداف أخرى خارج المنطقة ، ما كانت إسرائيل تحلم يوما ، أنه تجتمع معها على الهدف كل هذه الأطراف فى المنطقة وخارجها وإن كان لكل منها أسبابه فالعبرة بالنهاية . وكانت الساحة اللبنانية بحكم خصوصية الصورة وبحكم عوامل التأثير والحركة فيها أنسب الساحات بل تكاد تكون الساحة الوحيدة المتاحة ، أملا فى أن يتحول إعلامها من

الضجيج إلى التصفيق .. و يسارها من الحركة إلى الجمود وراء القضبان ، أما المقاومة فتعود إلى لاجئين .. بند إنسانى من بنود القرار ٢٤٢ . و يصبح المطروح هو توزيع الفلسطينين على الدول الأعضاء فى الجامعة العربية (٢) .

والملاحظة الخطيرة فى إعتقادى أن كل الأطراف التى لعبت دورا فى المأساه كانت تتحرك من منطلق حسابات ذاتية ومصالح خاصة دون النظر إطلاقا للمصلحة العربية العامة أو دون نظرة شمولية وربما كان السبب هو غياب هذه النظرة أو بمعنى آخر عدم وجود استراتيجية عربية واحدة .

وكانت الحرب الأهلية .. أزمة تفاعلت فيها مقومات داخلية لبنانية واقليمية عربية وغير عربية ودولية . كما أنها باستمرارها مايقرب من العامين تعرضت لأكثر من أسلوب للحل . ولذلك فهى تعتبر بحق «نموذج جديد» للازمات الدولية يمكن أن يعاد تطبيقه بأبعاد مختلفة فى مواقع أخرى من العالم العربى ومن العالم الثالث حيث تتوفر معظم عناصر الأزمة .. مثل الكويت وسوريا ومصر والهند و يوجوسلافيا بعد تيتو . كما أن الأزمة بحكم تعدد أبعادها فهى قد دخلت فى نطاق مشاكل أكبر . فهى قد أصبحت حلقة على طريق مشكلة الشرق الأوسط وأسلوبا مطروحا لتجربة وضع حل سواء بإنهاك العرب فى حرب استنزاف عربية أو فى تصفية جسدية للشعب الفلسطينى وعلى وجه خاص « المقاومة » .

وقد جعل ذلك كله من مأساة لبنان نموذجا حيا بالغ الأهمية للدراسة التفصيلية وإن كان بالغ الصعوبة أيضا نتيجة التشعب الذى يهدد بالتشتت ، والتعدد الذى يخيف من الضياع .

وتجنبا لكل المحاذير أو أغلبها على الأقل وضعت منهجا متعدد الأبعاد والأساليب :

أولا : البحث الميدانى .. بمعنى زيارة المواقع ومعايشة الأحداث على الواقع

اعتمادا على أن الرؤية تختلف كثيرا عن السمع .

ثانيا : اختيار كل قيادات التنظيمات اللبنانية والفلسطينية باستثناءات محدودة . لتنظيمات لا وزن لها فى الساحة ولم يكن لها دور حقيقى فى الحرب وقد أعددت قائمة من الأسئلة دار النقاش حولها مع هذه القيادات وفعلا التقيت بالشخصيات التالية :

* عن جبهة لبنان :

ـ كميل شمعون	عن الوطنين الأحرار
ـ سليمان فرنجية	رئيس الجمهورية
ـ بشير الجميل	قائد الجبهة وابن بيير الجميل
ـ الاباتى شربل الجميل	عن الرهبان

* عن القيادات الإسلامية :

ـ رشيد الصلح	رئيس الوزراء وقت بداية الأحداث
ـ رشيد كرامي	رئيس الوزراء خلال الأحداث
ـ الإمام موسى الصدر	زعيم الشيعه ورئيس حركة المحرومين .

* عن الحركة الوطنية :

ـ كمال جنبلاط	زعيم الحركة وكان اللقاء معه بالقاهرة قبل اغتياله
ـ محسن ابراهيم	منظمة العمل الشيوعى
ـ نديم عبد الصمد	عن الحزب الشيوعى اللبنانى
ـ د . سمير صباغ	الناصرين المستقلين (المرابطين)

* المقاومة الفلسطينية :

ـ أبو جهاد	منظمة فتح
ـ أبو إياد	منظمة فتح
ـ د. جورج حبش	الجبهة الشعبية
ـ ياسر عبد ربه	الجبهة الديمقراطية

والقوى التي لم ألتق بقياداتها فهي جميعا التي تتحدث بلسان سوريا وقد رأيت قراءة الرأى السورى من مصادره الأصلية بدون وسيط . والملاحظة التي تفرضها الأمانة العلمية هي أن الحوار لم يتم مع الإمام الصدر وتعذرت العودة إلى اللقاء كما أن زهير محسن رئيس منظمة الصاعقة اختفى تماما في موعد اللقاء .

وقد التقيت بعشرات الشخصيات التي لا تنتمى إلى أحد من التنظيمات وتعبر بصدق عن رأى الشارع بكل اتجاهاته بعيدا عن الضغط والتأثير .

وهذه هي قائمة الأسئلة التي دار حولها النقاش :

١ ـ هل كان حادث أتوبيس عين الرمانة ـ ابريل ٧٥ ـ نتيجة انفجار أوضاع لبنان الداخلية أم وليد تدبير خارجي ؟

٢ ـ هل كان من الممكن معالجة الحادث أم أن ماترتب عليه كان أمرا لايمكن منعه ؟

٣ ـ هل كان في قدرة وزارة رشيد الصلح احتواء الأزمة في بدايتها ؟

٤ ـ ماهي الأسباب وراء استقالة وزراء الكتائب والأحرار والموارنة من وزارة الصلح وعلاقة ذلك بتصعيد الأزمة ؟

٥ ـ خلال الأزمة ماهي القوى التي وقفت وراء فكرة التقسيم والقوى التي رفضتها .

٦ ـ ماهي مصادر السلاح بالنسبة لكل القوى المتصارعة ومن أين جاء التمويل ؟

٧ ـ كيف احتمل الاقتصاد اللبناني تكاليف الحرب وماهو معدل التكلفة اليومية لها خلال ١٩ شهرا ؟

٨ـ ماهو دور سليمان فرنجية فى الأزمة ؟

٩ـ لماذا لم تلتزم كل الأطراف بالوثيقة الدستورية التى تم التوصل إليها بينهم فى فبراير ١٩٧٦ ؟

١٠ ـ لماذا رفضت جبهة الحركة الوطنية الدخول فى مفاوضات مع جبهة اليمين فى فبراير ـ مارس ١٩٧٦ ؟

١١ ـ هل كان قرار إنزال الجيش ـ أكتوبر ٧٥ ـ قرار لوقف الحرب أم تصعيدها

١٢ ـ ماهى حقيقة انقلاب عزيز الأحدب وأثرة على الأحداث ؟

١٣ ـ هل صحيح مايقال إن أعضاء مجلس النواب تعرضوا لأنواع مختلفة من الضغوط لانتخاب رئيس جديد للجمهورية . ومن كان وراء هذه الضغوط إن وجدت ؟

١٤ ـ لماذا غيرت سوريا موقفها من الوساطة إلى التدخل العسكرى ؟

١٥ ـ لصالح من كانت نتيجة التدخل العسكرى السورى ؟

١٦ ـ لماذا لم تتدخل إسرائيل عسكريا رغم وجود القوات السورية فى لبنان ؟

١٧ ـ لماذا لم يتدخل الأسطول السادس الأمريكى فى لبنان طوال الأزمة ؟

١٨ ـ هل يعتبر تصور مؤتمرى الرياض والقاهرة للقمة العرب ـ أكتوبر ١٩٧٦ هو حل للأزمة أم تعريب للدور السورى ؟

١٩ ـ ماهى نسبة القوات السورية عدديا من قوات الردع العربية ؟

٢٠ ـ هل قوات الردع العربية وجود يدعم إمكانيات الحل أم مجرد وقف إطلاق النار أم تغطية للدور السورى ؟

٢١ ـ هل تم جمع الأسلحة الثقيلة من كل الأطراف ؟

٢٢ ـ هل اغتيال كمال جنبلاط عمل لإشعال الحرب من جديد أم خطوة فى تصور المرتكبين لوضع حل معين للأزمة ؟

٢٣ ـ ما هى الوسائل العملية الفعالة لتنفيذ اتفاق القاهرة ١٩٦٩ بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية . وما هى تفسيرات مؤتمر الرياض ١٩٧٦ لبنود الاتفاق ؟

٢٤- هل كانت الحرب اللبنانية صدام مسلح لحل مشكلات الوضع اللبنانى أم هى موجهة فى الأساس لتصفية الوجود الفلسطينى .

٢٥- هل كانت الأزمة مرحلة حتمية على طريق التسوية الشاملة لازمة الشرق الأوسط ؟.

٢٦- هل المرحلة الحالية مجرد هدنة لالتقاط الأنفاس أم نهاية للحرب و بداية للعمل السياسى ؟

٢٧- مشكلة الجنوب وما هو دور القوى المتصارعة فيها ؟

٢٨- لماذا يستمر القتال فى الجنوب دون تحرك عربى أو لبنانى لوقفة ؟

٢٩- هل مازالت قاعدة «لاغالب ولامغلوب» قائمة على ضوء ماانتهت إليه الحرب ؟

٣٠- هل كان ممكنا وقف القتال بجهد عربى قبل ذلك بكثير لو أريد ذلك أم كان مستحيلا قبل ١٩ شهرا ؟

ثالثا : جمعت كل تصريحات القيادات اللبنانية لمقارنتها بالإجابات التى حصلت عليها ومحاولة رؤية التغير فى الآراء والبحث عن المزيد من التفاصيل .

رابعا : ساعدنى الزميل محمد السعيد ابراهيم والزميلة علوية فرحات بمركز الدراسات السياسية بالأهرام بجمع المادة المنشورة من الصحف والمجلات.

خامسا : جمعت الوثائق التى أمكن الحصول عليها وموجود عينات منها فى ملحق الكتاب والآخر موجودة مقتطفات منه فى صلب الكتاب .

والحقيقة أنه لولا مساعدة الأصدقاء فى بيروت لما كان ممكنا الالتقاء بالشخصيات التى القيت بها وخاصة وأن الانتقال من المنطقة الغربية إلى الشرقية والعكس يكاد يكون مثل الانتقال بين دولتين . وما كان أيضا لولا حماسهم للبحث ممكنا الحصول على الوثائق التى حصلت عليها .

وأملى أن أكون قد نجحت فى تحقيق جزء من أمل الأصدقاء فى أن تقدم الدراسة جزءا من الحقيقة التى لا يريد أحد كشفها .. والكتاب محاولة لعلها تفتح الطريق لغيرى ليكمل مالم أستطيع الوصول إليه .

د . سامى منصور

الفصل الأول

المذبحة .. على الطريق

إن الدراسة الموضوعية للحرب الأهلية فى لبنان لابد وأن تبدأ من فترة سابقة على أحداث المذبحة نفسها التى بدأت ـ رسميا ـ بحادث عين الرمانة فى ١٣ ابريل سنة ١٩٧٥ ، حين هاجمت مجموعة من حزب الكتائب سيارة تقل عدداً من الفلسطينين . وأدى الهجوم إلى قتل ٢٦ وجرح ٢٩ من ركاب السيارة من سكان تل الزعتر. فحرب على هذا القدر من الضخامة ، إذا استمرت ١٩ شهرا تكلفت ٣ مليون دولار يوميا غير الخسائر وقتلت ٥٠ ألف إنسان فهى لايمكن أن تبدأ من فراغ ، بل لابد أن يسبقها إعداد وتدريب وتعبئة وقبل ذلك كله تخطيط . وهى أيضا أكثر مراحل الحرب صعوبة فى الدراسة والمتابعة لأنها تتكون من قطاعين أحدهما علنى وهو الأصغر والآخر سرى وهو الأخطر

ولعل أهم تحفظين على منهج دراسة هذه المرحلة هما :

١ - صعوبة قبول عدد من الأحداث تحت عنوان « الصدفة » . فصدفة أو اثنتين يمكن قبولها على أساس أن الصدفة محتملة وهى أحيانا تؤثر على اتجاه الأحداث ، ولكن المؤكد أن مجموعة من الصدف تصبح ظاهرة ، يصعب قبولها إلا من باب السذاجة وتصور أن الصدفة يمكن أن تصنع التاريخ .

٢ - خطورة الوقوع فريسة المنهج التآمرى فى تفسير التاريخ . خاصة وأن طبيعة المذبحة اللبنانية ونوعية أطرافها صانعة الأحداث تمثل مركز جاذبية وإغراء بذلك .

ومحاولة لتجنب كلا المحظورين كان لابد من حصر المتابعة على تحرك الأطراف الأصلية للأزمة وفى إطار صلب المشكلة نفسها دون خروج عن ذلك ، رغم أن النظرة الشمولية للمنطقة تجسد المواقف وتكشف الأبعاد إلا أنها أيضا تفتح الأبواب للمحاذير

وبداية لابد من بحث عن نقطة بداية للأحداث يمكن الوقوف عندها ثم الانطلاق منها بحثا عن الحقيقة . صحيح أن فصل حدث عن سلسلة الأحداث هو نوع من بتر ذراع عن جسد حى ، ولكنها ضرورة لامفر منها . والصعوبة هى أن هناك خلافاً بين أطراف الصراع على نقطة البداية . فهناك من يرى أن وفاة جمال عبد الناصر ـ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ـ فتحت الأبواب لاحتمالات تصفية الوجود الفلسطينى ، وضرب التيار الوطنى على أرض لبنان بعد مذابح الأردن . وهناك من يرى أن اغتيال الملك فيصل فى ٢٥ مارس سنة ١٩٧٥ هو إشارة البداية لتحرك تيار التصفية . وبين هذا الرأى وذاك آراء متعددة لعل أقربها إلى الصواب فى اعتقادى هو أن أحداث سنة ١٩٧٣ هى البداية وخاصة أن لها جذورا تعود إلى سنوات سابقة . ولها امتداد ابتلع العام التالى حتى وقوع الانفجار مباشرة وأبرز الأحداث التى رجحت اختيار نقطة البداية فى هذا العام هى :

١ - قيام الجيش اللبنانى فى شهر مايو سنة ١٩٧٣ بمحاولة تصفية المقاومة

الفلسطينية على أرض لبنان أو على الأقل تحجيمها . ونتيجة عجز الجيش عن القيام بالمهمة تكونت ميليشيات للأحزاب لتقوم بما عجز الجيش عن القيام به أو مساعدته على أقل تقدير .

٢ - قرار مؤتمر القمة العربي بالجزائر في نوفمبر سنة ١٩٧٣ باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني واعتراض الأردن على ذلك وبداية أزمة سياسية حادة أثبتت استحالة إقناع الأردن برأي الأغلبية مما يترتب على ذلك من أحداث كثيرة .

٣ - تغيير الدبلوماسية الأمريكية في إطار استراتيجية السياسية الأمريكية في الشرق الأوسط فتم تعيين عدد من السفراء في دول المنطقة لبعضهم تاريخ . . . !

٤ - بداية سلسلة اعتداءات إسرائيلية ، لها طبيعة خاصة ، على الفلسطينيين في لبنان .

٥ - اندلاع حرب إعلام عربية تركزت على وجه خاص على ساحة صحف لبنان وقد ارتبطت بظاهرة انتشار الخلافات بين الدول العربية والتي وصلت إلى حد التهديد باستخدام القوة بين الجيوش العربية التي يجمعها اتفاق الدفاع المشترك !

هذه هي الأحداث التي رجحت في اعتقادي اختيار سنة ١٩٧٣ كنقطة انطلاق نحو المذبحة الأهلية التي شهدتها لبنان . وهي أحداث لا يمكن المرور عليها بهذا القدر من التبسيط والذي يصل إلى درجة التسطيح . ولذلك فلابد من وقفة مع كل حدث منها بحثا عن تفاصيله لعلها تبرز مدى عمق جذوره واتصالها بخيوط الأحداث الكبرى للمذبحة .

أولاً : وقع صدام مسلح بين الجيش اللبناني وقوات المقاومة الفلسطينية في ٢ مايو ١٩٧٣ . وقد تبادل الطرفان الاتهامات . فوزير الدفاع — فؤاد غصن — أعلن أن الحكومة اعتقلت عددا من رجال المقاومة قرب

السفارة الأمريكية وذلك فى ٣٠ أبريل . وفى أول مايو قام عدد من الفدائيين بخطف رقيب بالجيش اللبنانى ، و بعد ذلك بساعات خطف رقيب آخر وقال وزير الدفاع إنه فى أعقاب هذه الاستفزازات غير المسئولة اتخذ الجيش اللبنانى إجراءات أمن استثنائية فى بيروت . وفى مواجهة ذلك أعلنت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير فى نفس اليوم بيانا قالت فيه إن وحدات من الجيش اللبنانى معززة بالدبابات والمصفحات قامت بمحاصرة منطقة صبرا وشاتيلا . وقد حاولت اختراقها تحت ستار كثيف من النيران ومدفعية الدبابات وقد استهدفت من هذا الهجوم بعض مكاتب منظمات المقاومة ومخيمات اللاجئين . وفى المساء تم الاتفاق على وقف القتال إلا أنه فى اليوم التالى - ٣مايو- قام سلاح الطيران اللبنانى بقصف مركز على مخيمات اللاجئين فى بيروت ثم تجددت الاشتباكات من جديد وقام الجيش بضرب مخيم «ضبية» الواقع على بعد ١٠ كيلومترات شمال بيروت ثم مخيم «تل الزعتر» شرق بيروت .

وقد ذكرت جريدة الاهرام — ٤ مايو— أن الرئيس سليمان فرنجية قال لمجلس الوزراء إن زوجة الزعيم الفلسطينى خالد بشرطى الذى استشهد فى الأردن سنة ١٩٧٠ قد قتلت فى صدامات الجيش اللبنانى والمقاومة . وأنها قتلت برصاص مجهول عند منزلها وهى عائدة إليه من القصر الجمهورى . وذكرت الصحيفة أنه تكشف خلال الاشتباكات أن محاولة قام بها اثنان — ظهر أنهما من عملاء المخابرات الأردنية — لاغتيال النائب اللبنانى نجاح واكيم — المعروف بميوله الناصرية — وقد تمكن النائب ومعاونوه من القبض عليهما ونقلا إلى المستشفى للعلاج .

وانتقلت عمليات الجيش اللبنانى فى اليوم الثالث إلى الجنوب حيث قامت

وحداته مدعمة بالطائرات بضرب مواقع المقاومة فى الجنوب وفى المساء تم التوصل إلى اتفاق جديد لوقف إطلاق النار إلا أنه فى اليوم التالى وقعت عدة عمليات عسكرية غامضة تستهدف إثارة الاضطرابات فى الوقت الذى تجرى فيه المحادثات بين الطرفين لإنهاء الأزمة. إذ قام مجهولون بعدة عمليات ضد مواقع للجيش اللبنانى ومبان حكومية ومراكز للمقاومة . وقد أذاعت مصادر المقاومة تحذيرا بأن عملاء أردنيين يطلقون النار على الجانبين لاستمرار اشتعال القتال . وذكرت مصادر المقاومة أن إذاعات غربية ظهرت توجه بيانات استفزازية تنسبها إلى المقاومة وتروج معلومات كاذبة فقد أذاعت مثلا أن محاولة جرت لإغتيال ياسر عرفات كما اتهمت الرئيس سليمان فرنجية بأنه يحاول إضفاء الطابع الطائفى على الأزمة .

وقد أمكن خلال ذلك التوصل إلى اتفاق بين المقاومة والجيش اللبنانى ولكن القتال تجدد بعد خمس ساعات فقط من الاتفاق وعادت الانفجارات تغطى كل المواقع بين الجانبين . وقد تصادف حسب رواية الأهرام أن تجدد القتال وقع بينما ياسر عرفات فى اجتماع مع صائب سلام رئيس وزراء لبنان السابق وريمون إده رئيس حزب الكتلة الوطنية . وقد قام ريمون إده بالاتصال بالعماد اسكندر غانم قائد الجيش تليفونيا أمام الجميع وأبلغه قائد الجيش أن وحدة من الجيش اللبنانى متمردة ترفض الالتزام بالاتفاق وهى المسئولة عن إطلاق النار . وقد طلب ياسر عرفات فورا من قوات المقاومة ضبط النفس وعدم الرد وقال للحاضرين «إنهم يريدون أن يجرونا إلى معركة ولابد أن نفوت الفرصة عليهم» .

وتطورت الأحداث إذ عادت الاشتباكات واشترك الطيران اللبنانى فى قصف مواقع المقاومة . ووقعت عمليات نسف شملت ٣ بنوك وفى ١٢ مايو نقلت وكالة الانباء الفرنسية خبرا من واشنطن بأن وزارة الدفاع الأمريكية تعتزم إرسال أسلحة خفيفة إلى لبنان لمساعدته فى مواجهة قوات المقاومة وأن تسليم الأسلحة سيتم فى القواعد الأمريكية فى اليونان وإيطاليا وذلك لتجنب تعرض الطائرات أو السفن الأمريكية التى تنقل الأسلحة لأى حادث . وفى المساء نفى فؤاد غصن ــ وزير

الدفاع اللبناني ـــ هذا النبأ وقال إن وزارته لم تقدم أى طلب بهذا الصدد إلى الحكومة الأمريكية .

وأمكن بجهود عربية وتدخل أمين الجامعة العربية احتواء الأزمة مع منتصف مايو وتم التوصل إلى اتفاق عرف باتفاقية «ملكارت» الملحقة باتفاق القاهرة ١٩٦٩ . وأهم ما جاء في الاتفاق الجديد الذى نشرته الخارجية اللبنانية ضمن ملاحق «الكتاب الأبيض اللبنانى» عن الوثائق الدبلوماسية حول الأزمة اللبنانية الفلسطينية ٧٥- ١٩٧٦ هو «اعتماد الميليشيا لتأمين حراسة المخيمات» و يعنى بالميليشيا بعض الفلسطينيين قاطنى المخيم وغير المنضوين فى فصائل المقاومة والذين يمارسون أعمالهم المعتادة نهارا ، كما نص الاتفاق على عدم وجود الأسلحة المتوسطة والثقيلة فى المخيمات . وحددت مواقع تمركز المقاومة فى نقاط محددة . الأهم من ذلك هو قرار بتجميد كافة العمليات الفدائية من الأراضى اللبنانية استنادا إلى مقررات مجلس الدفاع المشترك حسب رواية كتاب الوثائق اللبنانى . كما وضعت ضوابط على الإعلام الفلسطينى فى لبنان والغريب أن أتفاقا ثنائيا قد تم التوصل إليه بين المقاومة والكتائب فى يونيو سنة ١٩٧٣ على ضوء أحداث مايو المؤسفة على حد تعبير البيان المشترك(١) عن الاتفاق وقد اعترفت فيه الكتائب مع الفلسطينيين على أن إسرائيل ليست خطرا على الفلسطينيين وحدهم بل على الدول العربية كلها وخاصة لبنان .

وأكد الاتفاق بين الكتائب والمقاومة على حق الشعب الفلسطينى فى النضال لاسترداد أرضه وضرورة الدفاع عن لبنان وسلامة أراضيه . والمهم أن الكتائب سجلت فى البيان المشترك ضرورة تجنب الوقوع فى الفخ الإسرائيلى الذى يهدف إلى افتعال الاقتتال بين الأخوة على الأرض اللبنانية بغية تفتيت الوجود اللبنانى توطئة لإعادة تركيب خريطة المنطقة . وأشار البيان إلى أن الإعتداءات الأسرائيلية على جنوب لبنان ليست بسبب التواجد الفلسطينى إنما مصدرها أطماع إسرائيل فى جنوب لبنان .

وكانت المفاجأة أن الكتائب طلبت عدم إذاعة البيان وقت توقيعه حتى لا تصدم كوادرها التي جرى تعبئتها خلال أحداث مايو ضد الفلسطينيين وأن الأمر يحتاج لبعض الوقت لحديث المنطق والعقل ، ولكن الوقت مضى وهذا البيان لم ير النور حتى الآن بل وأصبح سرا من الأسرار في سياق أحداث وصدام سنة ١٩٧٣ .

وأهمية هذا الصدام رغم أنه انتهى دون تغيير جوهري فى الموقف هي أنه أوضح كثيرا من الحقائق . كما ترتبت عليه أيضا كثير من السياسات والمواقف ولعل ما يدخل فى إطار موضوعنا من هذا كله هو:

أن فى دائرة السلطة الحاكمة فى لبنان قيادات ترفض الالتزام بما وقعت عليه بالقبول وأعنى اتفاقية القاهرة - ٦٩ - بين لبنان والمقاومة بل وتدعى أنها فى الأساس لم تكن موافقة مع أن الاتفاق عرض على البرلمان وتمت الموافقة عليه من كل الأطراف .

والواقع أن الوجود الفلسطيني فى شكل التنظيم الفدائى قد وجد على الساحة اللبنانية فى مناخ خاص عاش فيه العالم العربى نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ ومنذ اللحظة الأولى لهذا الوجود وجدت معه بذور التناقض مع مصالح الفئة الحاكمة فى لبنان . والتى رأت فى تنامي هذا الوجود خطراً على كل مقومات وجودها . و يقول العقيد فؤاد لحود رئيس لجنة الدفاع فى مجلس النواب اللبنانى ، وممثل حزب كميل شمعون فى كتابه «مأساة جيش لبنان» إن الدعوة فى سنة ١٩٦٨ لإطلاق حر ية العمل الفدائى فى لبنان والتى كانت تقف خلفها الحركة الوطنية اللبنانية والجماهير العر بية المتعاطفة معها ، هذه الدعوة أدت الى قيام حلف ثلاثى مارونى من كميل شمعون و بيير الجميل وريمون إدة وكانت أهداف الحلف :

- الوقوف بوجه تجاوزات الفدائيين لأن ذلك يشكل خطرا داخليا وخارجيا بالنسبة لإسرائيل .
- الوقوف بوجه التيار الشهابى على أبواب الانتخابات النيابية فى تلك السنة تحضيرا لانتخابات الرئاسة سنة ١٩٧٠ .

و يقرر فؤاد لحود أن الأهداف التى رسمت للحلف جعلته يحقق انتصارات واسعة فى الانتخابات النيابية . و يضيف لذلك أن الحلف لاقى تأييدا من الدول العربية اليمينية حيث وجدت فيه مناصرا ضد اليسار . وإن كان لم يحدد التصور من وجهة نظره للدول العربية اليمينية ، وكانت النتيجة من وجهة نظره أن انتصارات الحلف فى الانتخابات والدعم العربى اليمينى له جعله يتصلب مطالبا بالحد من انطلاق العمل الفدائى من لبنان .

وقد ساعدت اسرائيل على دعم هذا التيار بأن قامت بغارتها على مطار بيروت فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٦٨ حيث قامت فرقة بالهبوط بالهليكوبتر فى المطار ودمرت ١٣ طائرة ركاب ونقل تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية وذلك بدعوى الانتقام لعملية قام بها الفلسطينيون فى أثينا قبل ذلك بيومين .

وفى أبريل سنة ١٩٦٩ أعلنت جميع المنظمات الفلسطينية قيام قيادة الكفاح المسلح وبعد أيام قامت السلطة اللبنانية بافتعال صدام مع المقاومة بهدف تقييد الوجود العسكرى الفلسطينى فى جنوب لبنان إلا أن غضبة الشارع اللبنانى التى تمثلت فى مظاهرات اصطدمت بقوات الأمن أدت الى استقالة رئيس الوزراء ورفض كل رؤساء الوزارات ــ السنة ــ قبول تشكيل الوزارة مما جعل الأزمة الوزارية تستمر ٢١٥ يوما . وخلال ذلك استمرت المناوشات التى تحولت مع شهر أكتوبر إلى صدامات مسلحة فى الجنوب وعلى طول الحدود مع سوريا وفى المخيمات . ولكن إنحياز قطاع كبير من الشعب اللبنانى إلى جانب العمل الفدائى إلى جانب الأزمة الوزارية التى جعلت حكم شارل حلو فى مواجهة أزمة لا يقدر عليها . فالجيش لم يستطيع حسم القتال . ومنع التجول لم يوقف الصدامات . وتحت ضغط الأزمة والضغط العربى الرسمى والشعبى طلبت لبنان وساطة مصر . وفى ٣ نوفمبر توصل المفاوضون (٢) إلى اتفاق سرى عرف بأتفاقية القاهرة (٣) وقد تحقق بالاتفاق حق العمل والإقامة والتنقل للفلسطينيين المقيمين فى لبنان وقت توقيع الاتفاق وذلك وفقا لتسهيلات سجلها الاتفاق فى ١٣ بندا . كما يتم إنشاء

لجان محلية من الفلسطينيين فى المخيمات لرعاية مصالح الفلسطينيين وذلك بالتعاون مع السلطات المحلية وضمن نطاق السيادة اللبنانية . وتوجد نقاط للكفاح المسلح داخل المخيمات تتعاون مع اللجان المحلية لتأمين حسن العلاقة مع السلطة . وتتولى هذه النقاط موضوع تنظيم وجود الأسلحة وتحديدها فى المخيمات . والمهم أن الاتفاق ينتهى إلى تسجيل أن الطرفين يؤكدان أن الكفاح المسلح الفلسطينى عمل يعود لمصلحة لبنان كما هو لمصلحة الثورة الفلسطينية والعرب جميعهم .

وكان أهم ماانتهت إليه الأزمة الأولى مع المقاومة هى :

- تثبيت مواقع المقاومة فى لبنان وانطلاق العمل الفدائى منها .
- تحديد القوى التى تتصدى حتى بالسلاح للعمل الفدائى الفلسطينى وهى الحلف الماروني والدول العربية اليمينية حسب تعبير فؤاد لحود - وإسرائيل .
- أن الوجود الفلسطينى فى لبنان أصبح ورقة فى الصراع على الحكم فى لبنان وذلك واضح من أهداف الحلف المارونى .
- أن هناك أزمة حكم فى لبنان تحاول كل القوى إخفاء معالمها، ولعل تصريح ريمون إده لجريدة النهار - ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧٣ تحمل كل المعانى فهو يقول تعليقا على تصريح لوزير الدفاع نصرى معلوف الذى يدعو فيه إلى مساواة اللبنانيين فى حمل السلاح فيقول ريمون اده « من الآن فصاعدا كل ضحية تقع من جراء استعمال الأسلحة الحربية سيضع الرأى العام المسئولية على عاتق حكامه ، وربما ينزعج الحكام من هذا الأمر. ولكن ربما يأتى يوم يوجه هذا السلاح نحو صدور الحكام أنفسهم ، وعندئذ يذوقون طعم الرصاص عندما يخرق جلودهم . فإذا لم يشعروا اليوم بخطورة هذه الأمور فسيشعرون بذلك غدا وربما فى الآتى القريب» .

وبعد ثلاثة أشهر فقط أى فى فبراير سنة ١٩٧٠ قامت السلطة الأردنية بما سبق أن قامت به السلطة فى لبنان وهو افتعال الصدام مع المقاومة والذى انتهى

بمذابح سبتمبر سنة ١٩٧٠، وتصفية الوجود الفلسطيني الثوري من الأردن. وكان نجاح الأردن فيما فشلت فيه لبنان أحد عوامل تركيز الوجود الفدائي في لبنان، كما هو دافع أيضا للبنان لمحاولة جديدة يتم الاستعداد لها. ولظروف تتعلق بتركيب المجتمع والحكم في لبنان استغرق الاستعداد هذه السنوات الثلاث التي انتهت بأحداث سنة ١٩٧٣. وإذا كانت أحداث سنة ١٩٧٣ قد كشفت عن فريق في السلطة بلبنان يرفض الالتزام باتفاق سنة ١٩٦٩ مع المقاومة فإنها كشفت أيضا عن عجز الجيش اللبناني عن القيام بالمهمة التي نجح فيها جيش الأردن لاختلاف ظروف تركيب وتسليح كل من الجيشين. فمؤكد أن جيش لبنان استخدم كل قدراته من طيران إلى مدرعات إلى مدفعية لتصفية المقاومة ولكن الصدام انتهى دون تحقيق أهدافه. صحيح أنه حقق بعض الكسب من خلال اتفاق «ملكارت» بفرض قدر من القيود على المقاومة ولكن الهدف الأصلي لم يكن إلا التصفية الجسدية مثلما حدث في الأردن، وربما أكبر. وقد تمت مناقشة مسألة عجز الجيش اللبناني على كل مستويات السلطة في لبنان تحت دعوى الخطر الإسرائيلي. وأوضحت المناقشات أن الجيش حتى لو توفر له السلاح فهو بحكم تركيبه وفقا لتركيب المجتمع اللبناني هو في الواقع جيش بلا وحده تجمعه. وأنه إن استخدم في تصفية المقاومة فهو معرض للانقسام. وقد أوضح التقرير المشهور بالتقرير ٥٣٢ مدى عجز الجيش اللبناني عن القيام بالمهام المطلوبة منه. وأن إعادة تسليحه وتدريبه قد يستغرق سنوات إلى جانب عدم ضمان التزامه بتنفيذ الأوامر نتيجة التركيب الطائفي لرتبه وتوزيعاته وبالتالي فليس هناك مفر من الاعتماد على الميليشيات الخاصة على أن يكون الجيش عاملاً مساعدا لها. وقد تمت مناقشة مسألة إعداد الميليشيات في اجتماعات بين سليمان فرنجية رئيس الجمهورية والعماد اسكندر غانم قائد الجيش من ناحية وفي المكتب السياسي لحزب الكتائب برئاسة الشيخ بيير الجميل ثم بين كميل شمعون وبيير الجميل من ناحية

-أخرى . وقد كشفت المناقشات أن هناك أربع مشاكل تحتاج إلى خطة تحرك وتعبئة لتذليلها حتى يمكن إنشاء ميليشيات حقيقية وهى مشاكل التمويل وجمع الشباب والتسليح والتدريب . وفعلا وضعت خطة متكاملة لذلك .

وقد تحملت جماعة الكسليك- وهى مجموعة الرهبان الموارنة- العبء الأكبر فى حملة جمع التبرعات تحت شعارات ونداءات متعددة ،وقداستطاعت جمع ٥٦ مليون ليرة — ٢١ مليون دولار بأسعار ٧٣/٧٤ — لهذا الهدف وقد تبرع فى هذه الحملة عدد من الدول العربية الإسلامية وقد فسر لى شربل قسيس رئيس الرهبانيات المارونية ظاهرة الدعم الإسلامى بأن الهدف مشترك وهو محاربة الإلحاد والمادية . فقيادات هذه الدول مقتنعة أن الشارع الإسلامى فى لبنان والفلسطينيين خاضعون للشيوعية ومن هنا توافقت القمة الإسلامية مع القمة المارونية فى الهدف

وتحمل حزب الكتائب المسئولية الأولى فى تعبئة الشباب للتدريب العسكرى باعتباره أكثر الأحزاب اللبنانية قدرة على ذلك بحكم بنيانه التنظيمى الفاشى .

وتولى جيش لبنان مسئولية شراء السلاح وتحويله للميليشيات التابعة للكتائب والأحرار وحراس الأرز بعد ذلك ثم بالاتفاق مع رئيس الجمهورية على تكليف ضباط الجيش من الموارنة على وجه خاص بتدريب الميليشيات وذلك عن طريق الإجازة أو الإعارة . بل لقد استخدم الجيش اللبنانى الدعم العربى المالى والعسكرى الذى تقرر له فى مجلس الدفاع العربى فى ٥ يوليو ١٩٧٤ لصالح الميليشيات .

وقد تم إعداد دورات تدريب لميلشيا الكتائب فى ألمانيا الغربية وإسرائيل والأردن .

والواقع أن الأدوار لم تكن محدده تماما بمعنى أن من يقوم بجمع المال لا علاقة له بشراء السلاح أو التدريب مثلا بل لقد تداخلت الأدوار وقام الجميع بدورهم فى خطة التعبئة . فى هذا الإطار مثلا قام الشيخ بيير الجميل رئيس حزب الكتائب برحلات إلى سوريا — ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٧٣ — اجتمع خلالها بالرئيس حافظ

الأسد فى جلسة مغلقة ثم اجتمع وعبد الحليم خدام رئيس الوزارة ووزير الخارجية وعدد من قيادات البعث السورى . وقد ذكرت جريدة النهار فى اليوم التالى أن الاجتماع المغلق بين الأسد والجميل تناول وضع المقاومة فى لبنان والتعاون اللبنانى السورى . وقد ذكر بيير الجميل للأسد أنه مع «المقاومة التى تريد أن تحرر الأرض لا مع المقاومة التى تريد أن تشتغل بالسياسة .. !» ولعل نظرة إلى الصفحة الأولى لجريدة النهار فى هذا اليوم تعطى انطباعا بالمناخ العام للاجتماع فتحت عنوان «مؤتمر قطرى» ذكرت أن الاستعدادات تجرى لعقد مؤتمر قطرى لحزب البعث تطرح فيه التطورات السياسية الأخيرة . وتحت عنوان آخر «سوريا تفرض قيودا على الخبراء السوفيت» ذكرت أنه أصبح بموجب الإجراءات الجديدة لا يحق لأى خبير روسى أن يتحرك كما يشاء إلا بإذن خطى ومحدد من السلطات السورية . وقالت النهار إن الأوساط السوفيتية تتخوف من حدوث تغيير بارز فى العلاقات مع سوريا وأنها غير مرتاحة لوجود عناصر قيادية فى الحكم السورى تسعى إلى فك الارتباط بين دمشق وموسكو. وتحت عنوان آخر «وقف توزيع وفا» ذكرت النهار أن وكالة أنباء فلسطين ـــ وفا ـــ أوقفت توزيع نشرتها اليومية بسبب الرقابة التى طلبت سوريا فرضها على النشرة كما أغلقت إذاعة الثورة الفلسطينية فى «درعا» بسوريا .

وفى أول فبراير سنة ١٩٧٤ زار بيير الجميل القاهرة وأجرى مباحثات مع الاتحاد الاشتراكى عبّر خلالها بيير الجميل عن وجهة نظره فى المقاومة بلبنان . وقد التقى خلال الزيارة بالرئيس أنور السادات فى برج العرب . ثم عاد إلى لبنان على طائرة مصرية خاصة .

وفى أول ابريل سنة ١٩٧٤ زار بيير الجميل المملكة العربية السعودية بطائرة سعودية خاصة وخلال الزيارة ذكرت جريدة النهار أنه زار مطار مشيط العسكرى حيث استقبله الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير وجميع القادة العسكريين

للمدينة العسكرية التى وصفتها النهار بأنها تعد أحدث مدينة عسكرية فى الشرق الأوسط . وقد زار بيير الجميل المدينة العسكرية وأجرى مباحثات مع الأمير خالد الفيصل وفى اليوم التالى طبقا لرواية جريدة النهار زار كلية الطيران الحربى فى جدة وتفقد المنشآت والمعدات العسكرية وشاهد التدريب على عمليات إطلاق صواريخ أرض - جو الأمريكية. وقد ذكر الأمير فواز بن عبد العزيز أمير مكة له أن لبنان عزيز على كل سعودى ، وكل ضرر يحل بلبنان هو ضرر للسعودية وتمنى أن يتخلص لبنان من كل مشاكله « وذكرت جريدة حزب الكتائب أن الملك أبلغ الشيخ بيير أن اليسار اللبنانى شيوعى وأن الشيوعية والصهيونية شىء واحد وهما عدو العرب» .

وفى مايو سنة ٧٤ زار بيير الجميل الأردن بطائرة أردنية خاصة وزار خلالها وحدات الجيش الأردنى وطبقا لرواية الوفد المرافق له أنه فى أثناء زيارته لأحد المواقع العسكرية شاهد تدريبا عمليا على المدفعية ثم عمليات الصاعقة وقد شرح قائد الموقع للشيخ بيير قواعد التدريب وأن الموقع مفتوح لتدريب جنود الدول العربية . وسأل الشيخ بيير هل يمكن تدريب أفراد ليست لهم صفة تمثيل دولة فأجاب قائد الموقع « إن تعليمات جلالة مولانا أن تلبى طلباتك جميعها حتى دون الرجوع إليه ثم التقى الشيخ بيير مع الملك حسين حيث عرضه عليه وجهة نظره فى وجود المقاومة بلبنان . ثم إن كميل شمعون كان يفخر علنا بأن الميلشيا التابعة لحزبه « النمور» تتدرب فى الأردن([4]) . ولابد أن يضاف إلى هذه الأدوار دور المهاجرين اللبنانيين فى الخارج سواء بتقديم الدعم المالى أو الوساطة فى عمليات شراء السلاح

وقد قدر انتونى سامبسون فى كتابه «سوق السلاح .. (*)الذى صدر فى منتصف ١٩٧٧ كمية السلاح التى اشتراها جانب الجبهة اللبنانية بأنها تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٦٠٠ مليون دولار و يقول إن هذه الأموال جاءت من البنوك المنهوبة ووكالة المخابرات المركزية وإسرائيل وألمانيا الغربية والفاتيكان وإيران الشاه وأن

هناك أدلة فى باريس على أن جزءا من مبلغ المليونى دلاور الذى سرق من شركة داسو عن طريق محاسبها دى فاتير قد دفع إلى الجبهة اللبنانية عن طريق المرتزقة جين كاى .

و يقول إن قدراً كبيراً من الأموال جاء من الأنظمة العربية التى كانت مشدودة باعتبارين فهى كأنظمة إسلامية تميل إلى الفلسطينين ولكنها كأنظمة محافظة فهى تتعاطف مع المسيحيين وهكذا قامت بتمويل المسيحيين سراً . أما إسرائيل فقد كانت ترسل السلاح عن طريق ميناء جونية فى حماية زوارق الدوريات الإسرائيلية . وهو ما أشار اليه أيضا دين براون المبعوث الأمريكى إلى لبنان فى حديث أذيع من واشنطن فى ١٠ اغسطس ١٩٧٦ ونشر فى الصحف اللبنانية فى ٢٣ اغسطس .

و يقرر سامبسون أن عمليات تمويل شراء الأسلحة تجاوزت حدود إمكانيات أى فرد مهما كان غناه بل وتجاوزت حدود إمكانيات لبنان نفسه . و يشير إلى أن موارد الدعم الفلسطينى كانت متوفرة قدمت لهم من الأنظمة العربية الراديكالية . وذكر أسماء عدد من سماسرة تجارة السلاح الذين قدموا الأسلحة إلى الجبهة اللبنانية ومنهم جونتر ليفهاوزر الألمانى الغربى والذى كانت له تجارب فى بيع الأسلحة الى تشومبى و بيافرا والأكراد وهناك لبنانى من الأرمن مقيم فى نيو يورك هو سركيس سوجاناليان الذى يمثل عدة شركات أمريكية فى تجارة السلاح وتولت شركات الملاحة اليونانية مهمة نقل الأسلحة .

ونصل من ذلك إلى أن القوى التى تريد تصفية العمل الفدائى تعمل بكل الإمكانيات لتحقيق هدفها رغم الاتفاقات والتعهدات وأن فشل الجيش اللبنانى فى أن يحقق لها هذا الهدف مثل الجيش الأردنى جعلها تلجأ إلى إنشاء الميليشيات الخاصة . ومن خلال ممارستها لإنشاء الميليشيات ظهر بوضوح أن وراء هذه القوى اللبنانية توجد قوى عديدة ذات مصلحة خاصة فى إثارة الصراع على الصعيد اللبنانى

وهى إن كانت خلال صدامات سنة ١٩٧٣ كان الكل يشير إليها بقوى مجهولة إلا أن عملية إنشاء الميليشيات كشفت الأستار عن الكثير مما كان مفروضا أن يبقى فى الظلام

وهذا ينقلنى إلى النقطة الثانية بعد صدامات ١٩٧٣ بين المقاومة والجيش فى لبنان والتى رجحت فى اعتقادى اختيار سنة ١٩٧٣ نقطة بداية لمذبحة لبنان الكبرى وهى قرار مؤتمر القمة العربى بالجزائر باعتبار منظمة التحرير المتحدث الشرعى الوحيد باسم الشعب الفلسطينى .

فقد عقد مؤتمر القمة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٧٣ ومشكلته الرئيسية هى التى طرحتها وفود الملك حسين على العواصم العربية قبيل المؤتمر وهى مشكلة تمثيل الشعب الفلسطينى . ووضح للأردن فى ظل نتائج حرب أكتوبر عدم قبول الدول العربية لتمثيل الأردن للفلسطينيين، ولذلك تخلف الملك حسين عن المؤتمر بعد أن وافق وزراء الخارجية على توصية بأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى . ولذا هدد الملك حسين بمقاطعة مؤتمر جنيف ، ودارت داخل المؤتمر مناقشات طويلة انتهت بانتصار الموقف الفلسطينى وأقر المؤتمر توصية وزراء الخارجية

والمهم فى موضوعنا أنه كانت هناك تحفظات بالغة الأهمية على قرارات المؤتمر . فقد تحفظ الأردن على قرار اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وتحفظ لبنان على قرار باعتبار كل الأراضى العربية حقا استراتيجيا للعمل الفدائى . وقد تحددت سياسة كل منهما تجاه منظمة التحرير. وعلى أساس هذا الموقف الذى جمع بين لبنان والأردن بشكل أو بآخر بموقف العداء من منظمة التحرير تحددت إمكانيات التعاون بينهما فى هذا المجال . ورغم إعلان الأردن أنها سوف تقبل الأجماع العربى بشرط أن ذلك يعنى إعفاءها من أى دور مباشر من أجل التوصل إلى تسوية إلا أن رحلات الملك حسين إلى عدد من العواصم العربية بعد

مؤتمر الجزائر أوضحت إصرار الأردن على الالتفاف على قرار قمة الجزائر ومحاولة إسقاط كلمة «الوحيد» عن تمثيل منظمة التحرير للشعب الفلسطيني . وقد ادعى زيد الرفاعي رئيس الحكومة الأردنية في حديث له مع صحيفة «النهار اللبنانية» (٦) أن هناك تنسيقاً بين الأردن والسعودية ومصر وسوريا إلى حد أنه قال «أنه ليس عندنا ما يجعلنا نعتقد أن هذه الدول الثلاث وافقت على إقامة دولة فلسطينية ولعل أكثر زيارات الملك حسين إلى العواصم العربية التي أثارت أزمة هي زيارته للأسكندرية في ١٦ يوليو ١٩٧٤ . وقد ذكر البيان المشترك الصادر عن الزيارة (٧) « يعلن الجانبان أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي للفلسطينين باستثناء الفلسطينين المقيمين في المملكة الأردنية» . كما اتفق الجانبان على ضرورة التوصل إلى اتفاق فك الإرتباط على الجبهة الأردنية كخطوة نحو الحل السلمي العادل . وكانت ردود الفعل التي أثارها البيان وخاصة بين الفلسطينيين حادة . ولذلك أعلن اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر في تصريح للصحف : «أن ما ورد في البيان المشترك لا يمثل أي قيد على حق منظمة التحرير في تمثيل الشعب الفلسطيني . وأن الاستثناء الوارد بالبيان مقصور على الفلسطينين الموجودين في الضفة الشرقية لنهر الأردن . وأن هذا الأمر مفهوم جيدا للجانب الأردني» . وقال « إن المقصود هو تمثيل المنظمة لكل الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة والخارج ذلك أن الطرف الأردني متفق على أن الضفة الغربية كانت وديعة لدى الأردن» (٨) وكان تعليق المتحدث الأردني بأنه لا يعترف إلا بالبيان المشترك .

وأهم ما يوضحه التحرك الأردني هو أن الأردن ليس يعارض قرار مؤتمر القمة بالجزائر ويرفض قبول الإجماع العربي بل ويحاول كسب أطراف عربية إلى جانبه .. ولما فشل في ذلك طرح فكرة التمثيل المزدوج للشعب الفلسطيني على أساس أن الأردن تمثل الفلسطينيين في الضفة الغربية واعتبار تحرير الضفة الغربية مسئولية أردنية ويترك لمنظمة التحرير مسألة المطالبة بالحقوق القومية

والتاريخية للشعب الفلسطيني. وكان ذلك أيضا طرحاً تكتيكيا فقط وتأكد ذلك حين عقد مؤتمر القمة العربي التالي بالرباط في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٤ ومهمته الأساسية هي إنهاء النزاع بين الأردن ومنظمة التحرير.

وقد عرض الملك حسين وجهة نظره. ثم قدم عدة بدائل بأن يتم تشكيل وفد عربي موحد في جنيف أو تكوين وفد أردني فلسطيني أو وفد أردني يتفاوض عن الضفة الغربية والأراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧ ووفد فلسطيني يتحدث عن حقوق شعب فلسطين أو خروج الأردن من المفاوضات في جنيف. وطالب الملك بتعديل قرار مؤتمر الجزائر باعتباره خطأ يجب تصحيحه. وبعد جهود مكثفة انتهى المؤتمر إلى قرار ينص على أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. وكان رد الأردن هو أنها لن تشترك في مؤتمر جنيف. والواقع أثبت أن الأردن لم تكن جادة في تهديدها لاعتبارات كثيرة في مقدمتها أن أهمية الوجود الأردني دوليا وعربيا هي إلى حد كبير وليدة دوره الفلسطيني. وفي الوقت الذي ينتهي فيه هذا الدور فإنه سيفقد كثيرا من أهميته. هذا إلى جانب ثقل دور الفلسطينيين في الإنتاج والجيش والتجارة في الأردن وهو ما لايمكن أن يستغني عنه النظام الأردني..

والموقف الأردني في جوهره هو رفض منظمة التحرير بحكم المصلحة والأيديولوجية فهو صاحب مصلحة في جزء من فلسطين منذ إنشاء شرق الأردن. ثم هو لايمكن أن يقبل فلسفة الثورة التي قامت عليها المنظمة. فهناك تناقض طبيعي بين الثورة والنظام. وتبلور ذلك في تشكيك الأردن في حق منظمة التحرير في تمثيل الشعب الفلسطيني. فهو يرى أن الشعب الفلسطيني لم تتح له فرصة الاختيار وبالتالي لابد من تحرير الأرض عن طريق الأردن ثم يستفتى الشعب الفلسطيني بعد ذلك. ولعل هذا المنطق قديم تردد في صراع الاستعمار الأوربي مع حركات التحرر في أفريقيا. وطرح الأردن دعوة فك الارتباط على حدوده مثل مصر وسوريا هما في الأساس ليضع عقبات ممثلة في

دافع عملي يعطى له السيطرة والتوجيه فى الضفة الغربية معتمدا على أن الأردن هو المقصود بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ وأن الفلسطينيين مجرد لاجئين. كما كان واضحا أمام الأردن أن مذابح سنة ١٩٧٠ لم تحقق الهدف السياسى لها إذ بقيت الثورة الفلسطينية وكسبت اعترافا دوليا بها. وكان لابد من العمل على ضرب المنظمة بصورة أخرى وهو مالم يعد ممكنا إلا من خلال ضربها على ساحة لبنان. وأحداث سنة ١٩٧٣ كشفت عن دور أردنى فى ذلك. والمهم أن هذه الصدامات أوضحت أن هناك توافقا أردنيا لبنانيا تجاه الثورة الفلسطينية.

وارتبط ذلك كله بأن عام ١٩٧٣ أيضا يعتبر عام تصعيد إسرائيل نوعية عملياتها الانتقامية ضد الفدائيين الفلسطينيين فى لبنان. ففى ١١أبريل قامت قوة كوماندوز إسرائيلية بدخول بيروت عن طريق البحر الميت. وجدت سيارات فى انتظارها ونقلت أفرادها فى شوارع بيروت إلى منازل عدد من قيادات المقاومة وقتلت بالفعل محمد يوسف النجار عضو اللجنة المركزية لمنظمة فتح ومسئول الشئون السياسية باللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ورئيس اللجنة السياسية للفلسطينيين فى لبنان. وقتلت كمال ناصر المتحدث الرسمى باسم قيادة منظمة التحرير وكمال عدوان عضو اللجنة المركزية لمنظمة فتح والمسئول العسكرى والتنظيمى عن القطاع الغربى الذى يشمل الضفة الغربية المحتلة وغزة. وثبت من التحقيق الذى قامت به الحكومة أن لبعض قيادات جيش لبنان علاقة بالعملية.

وفى نفس الوقت هاجمت مجموعة من ٢٠ مسلحا منطقة صيدا وقامت بنسف مستودعات تكرير البترول. وقد أعلنت المقاومة أنها عملية قامت بها وحدة كوماندوز اسرائيلية بهدف الوقيعة بين لبنان والمقاومة. والغريب أن وزارة الدفاع اللبنانية نفت بيان المقاومة. ونفت أن اسرائيل هى التى قامت بالعملية المشبوهة.

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٩٧٤ دعا إسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل «لبنان الى إبعاد جميع المنظمات الفلسطينية عن أراضيها».

وقد لخصت صحيفة الشعب ـ القدس ـ الخطة كلها فقالت إن .. الولايات المتحدة تعد مشروعا لوضع وجدات من مراقبي الأمم المتحدة ـ على طول الحدود الاسرائيلية اللبنانية وذلك بالا تفاق مع عدد من الدول العربية . وأنها تهدف بذلك إلى تجميد نشاط الفدائيين فى لبنان ووضعهم فى موقف لا يمكنهم من ممارسة أى نشاط، وأضافت الصحيفة أنه ينبغى على الفدائيين أن يستعدوا لإحباط المشروعات التى تستهدف طردهم من لبنان .

وقد ارتبطت نهاية سنة ١٩٧٣ وطوال العام التالى بحرب إعلامية بين الدول العربية على صفحات صحف لبنان ـ مما أثار غضب الرؤساء والملوك العرب . وقد سمعت من قيادات لبنانية تأكيداً بأن هذه المسألة كانت موضع مناقشة فى جلسة مغلقة بين الملوك والرؤساء العرب فى مؤتمر القمة بالجزائر ثم مؤتمر الرباط . كما أن أكثر من رئيس من دول المواجهة قد بعث برسائل إلى سليمان فرنجية رئيس جمهورية لبنان يلفت نظره إلى ما يتعرض له من نقد جارح فى صحف لبنان . وأكد لى سليمان فرنجية هذه الشكاوى التى تلقاها من الرؤساء والملوك العرب من صحافة لبنان وتطالب بنوع من الانضباط أو بمعنى آخر الرقابة عليها .

وباجتماع هذه العناصر جميعا تكتمل الأسباب التى رجحت فى اعتقادى اعتبار سنة ١٩٧٣ بداية للأحداث فى لبنان . وهى تجميع خيوط الأطراف صاحبة المصلحة فى مذبحة لبنان الكبرى ومصدر التوجيه والتخطيط . وقد وصل الأمر إلى حد أنه حين اختار مؤتمر القمة العربى فى الرباط سليمان فرنجية رئيس لبنان ليتحدث باسم العرب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة وقبل الرئيس اللبنانى أن اعتبرت هذه الأطراف ذلك خروجا عن الدور المرسوم للبنان . ولإعادة فرنجية إلى داخل الطريق المرسوم ارتكبت ما لا يمكن أن يوصف إلا بالحماقة . فحين وصول الرئيس فرنجية إلى نيو يورك لإلقاء خطابه المحدد له ١٤ نوفمبر فوجئ بتفتيش حقائب الوفد واستدعاء الكلاب البوليسية للقيام بعملية التفتيش بحثا عن الحشيش . كما قيل ذلك بناء على بلاغ من السفارة الأمريكية فى بيروت . والغريب أنه رغم أن

الحادث لم يسبق له مثيل إلا أن الحكومة الأمريكية لم تتحرك للاعتذار عنه إلا بعد مرور أسبوعين حين عبرت وزارة الخارجية فى ٢٦ نوفمبر عن أسفها .

وربما كان الانطباع الذى تعطيه هذه الخيوط هو إقرار بأن ما حدث فى لبنان كان مؤامرة . والواقع أن إجابة قيادات لبنان عن هذا السؤال قد اختلفت . وكان هناك اتجاهان الأول يرى أنها مؤامرة تم الإعداد والتخطيط لها والآخر يرى أن المؤامرة بدأت لاستغلال الأحداث أى أن الصدام بدأ نتيجة عوامل ذاتية ثم استغلتها المؤامرة وفى الاتجاه الأول كان هناك رأيان . رأى يرى أنها مؤامرة شيوعية . وكان من أطرف الإجابات ما سمعته من جماعة الكسليك ــ الرهبان ــ من أن الشعب الفلسطينى كله شيوعى وحين سألت إن كان بينهم واحد كفر بالشيوعية وانضم للاخوان المسلمين مثلا قيل لى بالقطع كلهم شيوعيون . وأغرب الإجابات ما سمعته من سليمان فرنجية الذى قال إنها مؤامرة أمريكية وشيوعية . وأن الخطة الأمريكية كانت تهدف إلى إبادة واحدة من الشعبين . فإن نجح لبنان فى إبادة الفلسطينين تكون المشكلة قد حلت و يستريح الكل وإن نجح الفلسطينيون فى إبادة اللبنانيين وإقامة دولة لهم فى لبنان تكون المشكلة أيضا قد حلت وأن الفلسطينين فى ذلك تحالفوا مع إسرائيل ضد لبنان ..!!!

أما رهبان الكسليك فلهم رأى أكثر غرابة ، وغرابته جعلتنى أتردد فى كتابته حتى لا يقال إن ما سمعته بأذنى كان غير صحيح إلى أن وجدت بعضا منه مكتوبا . فهم يعتبرون (١٠) ماجرى مؤامرة نسجها الأقوياء ، اليسار الدولى ومترنيخ القرن العشرين .. هنرى كيسنجر ، نفذها الفلسطينيون مع بعض الأنظمة العربية من جهة ومع بعض المحسوبين على لبنان ـ مع الأسف ـ من جهة أخرى . وتحفز الجميع للاستفادة من انهيار لبنان :

الامريكيون والروس : تفاهم على حل المشكلة الفلسطينية فى إطار انقسام النفوذ فى العالم .

الفلسطينيون : الاستعاضة عن فلسطين بوطن جديد على انقاض لبنان .

المسلحون فى لبنان : صهر لبنان بالطابع الاسلامى ودمجه فى الأمة العربية .

اسرائيل : تزيح عن كاهلها الفدائيين ومطالب الفلسطينين .

وهو ما يفسر لى ما سمعته من الاباتى شربل قسيس رئيس الرهبانيات المارونية قوله «تآمر الكل علينا» .

و يقول الدكتور ديمون رباط خلال مناقشته الأزمة فى هيئة الحوار الوطنى وأمام جميع القيادات فى لبنان « قال لى أحد الأمريكيين الكبار وهو يهودى .. لبنان سيزول كدولة وأنا أنصحك بمغادرة لبنان . (١١)

رشيد كرامى رئيس وزراء لبنا ن خلال الحرب الأهلية أكد ما سمعته منه فى حديث مع مجلة الصياد «إن الأحداث كانت أقوى منا . لأن المؤامرة كانت أكبر منا وأقوى . لقد حاولت إنقاذ البلاد . وقد نجحنا إلى حين إلا أن المؤامرة كانت أقوى منا وأكبر (١٢) .

حتى الملك حسين كان رأيه أن ما حدث كان نتيجة عوامل مختلفة بعضها داخلى والكثير منها خارجى سواء كان هذا انعكاسا فى حد ذاته .. لتناقضات قائمة فى الوطن العربى أو من جهة مداخلات من جهات أجنبية (١٣) .

أما الرأى الآخر الذى يرفض التفسير على أساس مؤامرة مطلقة كان لكل القيادات فى الحركة الوطنية وجبهة الرفض ــ بالمعنى التقليدى الشائع ــ بين المنظمات الفلسطينية ومنطق هذا الرأى أن تصور ماجرى على أنه مؤامرة منذ البداية حتى النهاية هو هروب من الواقع وإضفاء صفة العبقرية الخرافية لمخطط التآمر . فلو أعيدت الأحداث مرة أخرى لما أمكن إعادتها كما جرت . فالمسألة ليست مسرحاً ومخرجا يحكم حركة الممثلين . ووصل ببعض أصحاب هذا الرأى

إلى أن الذين يتصورون فكرة التآمر المطلق هم ضحايا «عقدة الاضطهاد» التى تمثل جوهر فلسفة الصهيونية والخط السياسى للموارنة والرأى الراجح بين هذا الفريق أن الأحداث وقعت بالتناقض اللبنانى المحلى و بالتناقض العربى ثم بدأت المؤامرة للاستفادة من وضع قائم .. فهل هناك من يرفض «وجبة جاهزة» بلا مجهود أو على الأقل بلا جهد شاق..

وفى دراسة حول الحرب الأهلية (١٤) يرى الكاتب أن تفسير الأحداث على أنه مؤامرة هو قول يستند إلى فهم خاطئ لطبيعة الوضع اللبنانى ولطبيعة الصراع الدائم على أرض لبنان . فالمؤامرة هى تحرك سياسى يقوم به قبضة من العملاء . فهى قد تأخذ شكل اغتيالات سياسية أوعمليات أو قد تصل إلى مستوى الانقلاب العسكرى ، لكن المؤامرة لا تشمل فى نظر الكاتب حربا أهلية تشترك فيها جميع الشرائح الاجتماعية والطوائف والقوى السياسية وأن استخدام كلمة مؤامرة يخفى مفهوما خاطئا للصراعات الاجتماعية والطبقات والحروب . فالتآمر يستطيع الدخول فى الصراع . أى أن اشتعال حرب أهلية يسمح للعملاء والجواسيس والعصابات بمحاولة التأثير فى مسار الحرب عبر استخدام الأسلوب التآمرى وتحمل هذه المقولة كذلك مفهوما خاطئا لطبيعة الامبريالية . فالامبريالية التى تستطيع عبر التآمر إشعال حرب أهلية هى امبريالية لها قدرة غير محدودة . والتركيز على الجانب التآمرى وحده فى الحرب الأهلية يقود إلى مفاهيم وممارسات خاطئة تهمل دراسة الدافع الفعلى وتناقضاته التى فجرت الحرب الأهلية .

وتناقش هذه الدراسة تفسير أن الحرب الأهلية هجوم أمريكى عام على المنطقة العربية فترى أنه ينطلق من بعض الواقع الغربى ليعممها دون محاكمة . ثم يبنى استنتاجاته على أساس التعميمات . فهو يرى فى جميع التحركات العربية قبل حرب اكتوبر و بعدها الأصابع الأمريكية و بالتالى فالحرب الأهلية فى لبنان هى جزء من لعبة الأمم التى يتقنها الساحر كيسنجر بكل براعة .

إن الامبريالية الأمريكية تتراجع اليوم فى العالم بأسره لذلك فهى تحاول ترتيب أوضاعها فى الشرق العربى ضمن التراجع الذى فرض عليها . لكن كل تراجع يحمل فى داخله إمكانية الهجوم . وقد يقوم بهجمات تكتيكية تمهد للانتقال من التراجع إلى الهجوم . هذا هو الموقف الأمريكى تجزئة الحل ، ابتزاز تنازلات أساسية ، تعريب الصراع وذلك تمهيدا للانقضاض عليه من جديد .

والواضح أن الباحث حين أراد أن يفسر نفسه وقع فى التناقض فأكد ما أراد أن ينفيه .

أما التفسير الثالث الذى ترد عليه الدراسة فهو أن الحرب الأهلية صراع بين الدولتين العملاقتين .. وترى أنه تحليل من مقولة صحيحه ليقوم بتعميمها بشكل خاطىء ومبتذل فالصراع بين العملاقين صراع حتمى والوفاق ليس سوى لحظة فى الصراع .. ومثل هذا التفسير للحرب الأهلية يعنى دعوة مطلقة إلى التهدئة . بحجة عدم السماح لأحد الطرفين باستغلال الصراع لمصلحته ويخفى وجهة يمينية تتعامل مع الحركة الوطنية بشك مطلق ، يصل إلى حد اتهامها بالوقوع تحت تأثير الدول الكبرى .

والتفسير الأخير الذى ترفضه هذه الدراسة هو أن الحرب كانت صراعا طبقيا داخليا وذلك ينطلق من اعتبار لبنان تشكيله اقتصادية واجتماعية مستقلة . وهو ما يؤدى الى الوقوع فى خطأ عدم الفهم الدقيق للصراع الفعلى وعدم أخذ الواقع العربى بعين الاعتبار بشكل جدى .

ومع أننى أختلف مع الآراء التى أوردتها هذه الدراسة وخاصة أن كل ما كانت تريد نفيه تنتهى إلى تأكيده إلا أننى أرى عدم الدخول فى المناقشة حول ما إذا كان الحرب الأهلية اللبنانية هى مؤامرة أم لا .. فالقبول المطلق بالرأى الأول خطأ كما أن القبول بالرفض إطلاقا هو أيضا خطأ .

وأظن أن الأفضل من مناقشة الفرضيات وحسما للجدل يكون أجدى للدراسة



(٨) ١١ مايو ١٩٧٤ .

(٩) الأهرام ١٩ يوليو سنة ١٩٧٤ .

(١٠) الأهرام في ٢٠ يوليو سنة ١٩٧٤ .

(١١) برقية لوكالات الأنباء الفرنسية - وأف - رقم ٤٠ في ١٣ فبراير سنة ١٩٧٤ .

(١٢) لبنان - أمانة تاريخية وحضارية في عنق الموارنة . كراسات جماعة الكسليك رقم ١٨ صـ ٣١ - ٣٢ .

(١٣) محاضر جلسات هيئة الحوار الوطني . الجلسة الرابعة . مجلة الطريق . بيروت أغسطس سنة ٧٦

(١٤) مجلة الصياد . بيروت ١٠ مارس سنة ١٩٧٧ .

(١٥) مجلة الصياد . بيروت ٣ فبراير سنة ١٩٧٧

(١٦) خالد جابر . التوازنات المسلحة والحرب الأهلية . الحلقة الثالثة . شئون فلسطينية رقم ٥٩ صـ ٤٩ - ٥٢ .

الفصل الثانى

البعد اللبنانى .. للأزمة

إن أزمة لبنان هى فى الأساس والجوهر مشكلة لبنانية، وذلك على عكس الوهم الشائع بأنها فلسطينية لبنانية. فالقاعدة أن أى نظام حكم يفتقد وسائل التطوير والتغيير من داخله، فهو نظام يحكم على نفسه بالفناء. إذ أن أبواب التغيير المغلقة تؤدى إلى الإنفجار حيث لا تكون هناك وسيلة متاحة للتغيير إلا القوة. فصلب المشكلة اللبنانية فى النظام الطائفى. فهو على حد وصف أحد الباحثين يقف ضد التغيير. فأصبحت المشكلة أن التطور فى مواجهة التخلف والإذعان فى مواجهة التغيير(١). فلبنان فى الحقيقة يعيش بعقلية القرون الوسطى وإن كان يرتدى أزياء القرن العشرين. وهى حقيقة يدركها الجميع فنجد مثلا أن الشيخ موريس الجميل يقرر «بت أو من أنه إذا لم تسارع الدولة إلى تحقيق الثورة فى الشرعية فسوف نشهد الثورة على الشرعية(٢). أما الرئيس السابق فؤاد شهاب فقد كان أكثر تحديدا وتوضيحا وذلك فى البيان الذى أعلنه فى ٤ أغسطس سنة ١٩٧٠ حين رفض

ترشيح نفسه للرئاسة و يقول فيه : أن المؤسسات السياسية اللبنانية والأصول التقليدية المتبعة فى العمل السياسى لم تعد فى اعتقادى تشكل إداة صالحة للنهوض بلبنان، وفقا لما تفرضه السبعينات فى جميع الميادين، ذلك أن مؤسساتنا التى تجاوزتها الأنظمة الحديثة فى كثير من النواحى سعيا وراء فعالية الحكم، وقوانيننا الانتخابية التى فرضتها أحداث عابرة ومؤقته، ونظامنا الاقتصادى الذى يسهل سوء تطبيقه قيام الاحتكارات. كل ذلك لايفسح المجال للقيام بعمل جدى على الصعيد الوطنى؟ (٣)

« إن الغاية من هذا العمل الجدى هى الوصول إلى تركيز ديمقراطية برلمانية أصيلة وصحيحة ومستقرة، وإلى إلغاء الاحتكارات لتوفير العيش الكريم فى إطار نظام اقتصادى حر وسليم يتيح سبل العمل وتكافوء الفرص » .

« إن الاتصالات العديدة التى أجريتها والدراسات التى قمت بها عززت قناعتى بأن البلاد ليست مهيأة بعد ولا معدة لتقبل تحولات لايمكننى تصور اعتمادها إلا فى إطار احترام الشرعية والحريات الإنسانية التى طالما تمسكت بها » .

وجاءت المأساة. وبالآلاف من الضحايا ظهر مدى التخلف الذى تعيش به وفيه لبنان، والأهم ظهر أنه ليس هناك وطن أسمه لبنان بل هناك عدة أوطان تحمل هذا الإسم. وأصبح الكل يردد تعبير الرئيس السابق شارل حلو بكل مافيه من سخرية ومرارة وهو الذى قاله فى لقاء له مع رؤساء تحرير الصحف « اللبنانية ليست مواطنة ولكنها وظيفة » . فإن مجرد مرور الزمن على صيغة الوطن المؤقت لا تكفى لتحويله إلى وطن دائم. فالكيان الطائفى المتوازن ليس مرحلة على طريق الوطن بل هو تأجيل للدخول فى مرحلة الوطن (٤). وتقرر صحيفة حزب الكتائب « العمل » أن الميثاق الوطنى تحول إلى عقد تجارى، بل شركة استثمار للمناصب والوظائف العامة (٥) .

وربما كان أمرا طبيعيا فى لبنان أن جميع القيادات اللبنانية أدانت فى إجاباتها الطائفية وقررت بضرورة إلغائها ولكنها فى الأزمة حاربت من أجل استمرارها. وهى إحدى مآسى لبنان أن الكل يتحدث بلسان و يعمل فى اتجاه آخر. فالواقع أن الطائفية بالنسبة لهذه القيادات الطائفية تمثل سلطان وامتيازات. وهى لايمكن التنازل عنها اختيارا. وإذا كانت بالنسبة لهم مالا وجاها فهى بالنسبة للبنان وقفة بالزمن عند بدايات القرون الوسطى.

والخطأ الشائع وخاصة فى الإعلام العربى أن الدستور اللبنانى يعمق الطائفية و يعطيها الصفة القانونية، وأن الميثاق الوطنى هو وثيقة طائفية والواقع أن دراسة الدستور والميثاق الوطنى تكشف عكس هذا الادعاء أو مع افتراض حسن النية هذا الخطأ الشائع، صحيح أن الطائفية فى لبنان لها جذور فى التاريخ، ولكن صفحات هذا التاريخ لا تعطى الشرعية للخطأ مهما طال عليه الزمن. فهى فى خلاصتها كانت حفاظا على التراث فى مواجهة قوى الاحتلال التركى. وجاء الاحتلال الفرنسى ليعمق التمايز و يقنن التفتت ورغم استمرار شريحة من الموارنة تتعاون دائما مع المستعمر. أى مستعمر إلا أن ذلك ليس عذرا لاستمرار الطائفية. ففى سلسلة كراسات جماعة الكسليك «الرهبان» كتيب منها بعنوان «لبنان أمانة تاريخية وحضارية فى عنق الموارنة» (٦) يقول بكل فخر واعتزاز إن علاقة الموارنة بالفاتحين الأوربيين ممتازة. وكانت نتيجتها أن ترك الصليبيون لبطريرك الموارنة الزعامة على أمته (٧) و يقرر نفس الكتيب أن صداقة الموارنة لفرنسا تقليدية و وطيدة بدأت مع الملك القديس لويس التاسع أثناء الحملة الصليبية السابعة إلى حد أن تقلد موارنة من آل الخازن مناصب قنصلية فرنسية. ا. رفيعة. وأصبح النضال ضد الاستعمار الفرنسى يعنى الإنتماء للعرب والمسلمين وإنكار للمسيحين فى إقامة دولة لهم.

فالمسألة ببساطة أن الطائفية هى امتيازات حصلت عليها الفئة التى تعاونت مع الإستعمار الأوربى على حساب الآخرين. وقد تبلور ذلك

بشكل واضح فى معركة استقلال لبنان حيث كان هناك تياران أحدهما ينتمى إلى العالم العربى وأغلبيته من المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس وجناح من الموارنة وتيار ينتمى إلى فرنسا. ولاعتبارات متعددة تم الاتفاق على استقلال لبنان بأن يتنازل دعاة الوحدة العربية عن ضمها إلى التيار العربى وأن يتنازل دعاة الانتماء إلى فرنسا عن تطلعاتهم نحو المستعمر(٨). ورغم أن المقارنة فى حد ذاتها بين الوحدة العربية والاستعمار الفرنسى جريمة سياسية إلا أن الواقع الذى انتهى إليه الأمر كان بهذا الشكل وكان ماعرف بالميثاق الوطنى.

والميثاق الوطنى فى مفهومه العام هو تعاقد بين شخصين هما بشارة الخورى وریاض الصلح. كل منهما باسم الطائفة التى ينتمى إليها لتنظيم الحياة الوطنية فى لبنان على أساس العدل بين الطوائف والعدل فى توزيع المناصب. وهو اتفاق تبلور فى البيان الوزارى الذى ألقاه رياض الصلح رئيس الحكومة فى مجلس النواب طلبا لثقة المجلس فى أول حكومة بعد الاستقلال. وهذا البيان الوزارى خاليا تماما من أى إشارة إلى الطائفية(٩). والواضح أنه لو كان هناك أى اتفاق طائفى بين الزعيمين لظهر أثره على البيان الوزارى الأول. ويبدو أن الإضافات هى التى حرفت هذا البيان بدليل ماذكرته صحيفة حزب الكتائب من أنه تحول إلى عقد تجارى وسبقت الإشارة إليه. فقد قامت الفئات المسيطرة سياسيا واقتصاديا بأن جعلت منه تنظيما للحصص والغنائم والامتيازات.

والمؤكد أن الميثاق الوطنى بعيد عن الطائفية. فليس من المعقول أن يتفق زعيمان على اتفاقين متناقضين أحدهما مكتوب والآخر غير مكتوب. فهذا أسلوب العصابات وهو بعيد عن طبيعة الرجلين تماما. فالتعديلات التى أدخلت على الدستور الذى وضعته فرنسا أيام الانتداب تؤكد أن الميثاق الوطنى ضد الطائفية، فالدستور خاليا تماما من هذا الأسلوب الطائفى . والنص الوحيد فى الدستور الذى يحمل الطابع الطائفى هو المادة رقم ٩٥ التى تنص على أنه «بصورة مؤقته والتماسا

للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة فى الوظائف العامة و بتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولة» و واضح أن هذه المادة وضعت تحت شرطين : الأول أن هذه الاجراءات مؤقتة ، والثانى أنها لا تضر بمصلحة الدولة . فإذا بالمؤقت يصبح دائما ، وإذا بالضرر يصبح واقعا .

فالطائفية تحولت من دائرة الدين وهى القديمة إلى دائرة السياسة والإدارة . وقد أفرز الكيان الخاص لكل طائفة شعورا طائفيا يصل إلى حد الولاء . وهو ماتضاءلت أمامه سائر أنواع الارتباطات الاجتماعية(١٠) . بل وذابت أمامه ضرورة الولاء للوطن ، لأن الوطن أصبح فى معناه الواقعى هو الطائفة . وذلك بسبب القوانين التى صدرت لتصبح جذور الطائفية ورغم أنها تتناقض مع الدستور إلا أن لبنان وحده دون سائر الأوطان ليس فيه هيئة يمكن الاحتكام إليها فى عدم دستورية القوانين . فقانون الانتخاب مثلا يعطى لكل طائفة عددا من النواب يتناسب مع عدد اعضائها . وهو مايجعل المواطن لايشعر بالمواطنه الكاملة مع أن المادة السابعة من الدستور تنص على أن اللبنانيين سواء أمام القانون و يتمتعون بالحقوق المدنية والسياسية و يتحملون الالتزامات والواجبات دون مافارق بينهم .

ومايقال عن قانون الانتخاب يقال عن كل مجالات الحياة . فالإنسان اللبنانى لايوظف أو يتزوج أو يعيش إلا من خلال الانتماء إلى طائفة مع أن الدستور ينص فى المادة ١٢ على أن لكل لبنانى الحق فى تولى الوظائف العامة لاميزة لأحد على الآخر إلا من حيث الاستحقاق والجدارة إلا أن الواقع أن الوظائف تقسم بنسب طائفية ، بل وأحيانا بمعايير سياسية . وقد حضرت خلال وجودى بلبنان مشكلة مهندس تقدم للعمل بشركة فيليبس و بسبب طائفته وضعت العراقيل أمامه رغم أنه الوحيد الذى تتوفر فيه شروط الوظيفة وكان من بين الأسئلة التى جهت إليه حول رأيه فى جمال عبد الناصر مع أن عمله مهندس !!

وكانت نتيجة القوانين غير الدستورية أن أصبحت الطائفية وسيطا بين المواطن

والدولة . وهو ماخلق التمزق فى نفسية اللبنانى السياسية . فالطائفة التى ينتمى إليها تشكل الإطار الذى يشعر من خلاله بوجوده السياسى . فالطائفية تقف حاجزا بينه وبين الشعور بالدولة كدولة لجميع المواطنين . ولعل هذا مايفسر مدى بشاعة ما ارتكبه اللبنانيون فى بعضهم خلال الحرب لأن كلا منهم ينتمى إلى وطن هو طائفة . وعلى حد اعتراف صحيفة حزب الكتائب «نحن شعب متخلف . . فرديون . . ننظر إلى القضايا العامة من خلال أنانيتنا ومصالحنا الصغيرة المباشرة . (١١)»

وخلاصة ذلك أن هناك فارق بين الطائفية الدينية والطائفية السياسية وأن سيادة الطائفية السياسية جعلت ولاء وانتماء اللبنانى إلى الطائفة وليس إلى الوطن فأصبحت لبنان عدة أوطان . وأن الطائفية السائدة ضد الدستور والميثاق الوطنى . وخاصة وأنه ليس هناك سلطة قضائية يمكن الاحتكام إليها فى عدم دستورية كثير من القوانين . وقد أثبتت صفحات الثلاثين عاما الماضية أن ماوضع ليكون موقفا مؤقتا لايصلح أن يكون خطا دائما وأن صيغة التوازن أدت بلبنان إلى كوارث وصدامات دموية . كما أن هذه الصيغة قد أغلقت الأبواب دون التطوير والتغيير وجعل النخبة السياسية مجرد عدد من الأفراد حتى أن اختيار رؤساء الجمهورية يكاد يكون محصورا فى عدد من العائلات المارونية التى لا تتجاوز أصابع اليد . كما أن رؤساء الوزارات طوال ثلاثين عاما حتى المذبحة هم فى نطاق عشرة أسماء ولم يحدث طوال هذه السنوات سوى استثناء واحد فرض عليه الفشل حتى لايتكرر . وإذا كانت النخبة لا تتجدد فإن قوى المجتمع اللبنانى كانت فى تجدد وتغير أمام التغيرات الاقتصادية والاجتماعية وتزايد المتعلمين فى الوقت مثلا الذى لايمثل فيه مجلس النواب أكثر من ١٠٪ من الشعب اللبنانى حسب تقدير صائب سلام(١٢) . وأمام هذه المعادلة وهى الجمود على القمة والحركة والتغير فى القاعدة كان لابد من الانفجار . وقد أدرك الرئيس السابق فؤاد شهاب احتمالات الخطر وحاول إيجاد منفذ لتسريب الضغط وكانت فكرته فى تعديلات على معدلات ونسب التوازن

فجعل منها فى كثير من المجالات بالمناصفة، ولكن أحدا من بعده لم يفهم الهدف من فتح الابواب لاحتمالات الانفجار. وزاد من الخطر إحساس عدد من الطوائف أنه ليس لها دور أو نصيب فى الحكم والإدارة.

وبرغم النجاح الإعلامى فى تصوير الأزمة فى لبنان وكأنها طائفية أساسا وماغير ذلك امتدادات ثانوية إلا أن الحقيقة الواقعية غير ذلك بالتأكيد. ربما ساعد على هذا الخلط التطابق بين القيادات فى الوضع الطائفى والوضع الإقتصادى وبمعنى آخر بين مواقع القيادات فى الطوائف وفى النشاط المالى الاقتصادى. فالتفتت الإقطاعى والعشائرى والعائلى كان يرتبط من خلال عدد من الأشكال الاجتماعية والسياسية بالسلطة العثمانية على أساس من جباية الريع والضرائب المختلفة. وقد ساعد على استمرار الانقسام والتفتت الطائفى طبيعة الطبقة الوسطى فى لبنان التى تقوم بدور الوسيط بين السوق العالمية والسوق العربية، وبالتالى فهى اصلا قامت بالارتباط بالغرب(١٣). وهى فى المفهوم العلمى ليست طبقة بل شريحة اجتماعية باعتبار أن الطبقة تقوم على علاقات الإنتاج، أما فى واقع عدم وجود علاقات إنتاج، فإن شرط وجود الطبقة كشكل للصراع الإجتماعى ليس متوفرا. ويترتب على ذلك أن الصراع القائم بين هذه الشرائح لايشكل صراعا على السلطة بل هو صراع على اقتسام الثروة. وفى إطار الطائفية يصبح الصراع السياسى محكوم بإطارات صراع الطوائف(١٤). ولعل هذا يفسر شعارات أغنياء المسلمين بتعديل النسب. ولعل أفضل مايفسر ذلك مايطلق فى لبنان على الأغنياء من أنهم موارنة الفريقين أى المسيحيين والمسلمين. فهم يختلفون بينهم على نسب أقتسام الثروة والسلطة بينما شعب لبنان على اختلاف أديانه واتجاهاته يسعى إلى تغيير البنيان كله.

وطبيعة الإقتصاد اللبنانى ساعدت كثيرا على هذا الجمود السياسى الذى عاشته لبنان طوال الثلاثين عاما الماضية بدون تطور أوتغيير فى الوجوه أو البنية

الاقتصادية. فهو اقتصاد يقوم على الخدمات التى تمثل حوالى ٧٠٪ من الدخل القومى. وهى من أعلى النسب فى العالم، وكانت النسبة ٥٠٪ فقط فى بداية الخمسينات. وجوهر هذا القطاع هو العمل المصرفى. وأكثر ماميز السوق المالية فى لبنان أن ثلثى نشاطها هو فى أيدى المصارف الأجنبية والمختلطة، كما أن الثلث الباقى يفتقد إلى التنوع حيث لا توجد مصارف متخصصة باستثناء مصر التسليف الزراعى والصناعى. و بقى دورها حتى سنة ١٩٧٤ محصورا فى نقل الأموال العربية إلى الأسواق الدولية(١٥). وفى دراسة فرنسية أعدها كلود دوبار وسليم نصار عن الطبقات الإجتماعية فى لبنان تحليل لشركات الخدمات من مصارف وشركات تأمين وتجارية وعقارية أنه من أصل ٧٧٢ شركة هناك ٢٤٨ أى ١ر٣٢٪ هى فروع لشركات أجنبية. غير ١٥٢ شركه أى ٦ر١٩٪ هى شركات مختلطة. أى أن الرأسمال الأجنبى موجود بصورة مباشرة فى ٤٠٠ شركة أى ٥٢٪ من مجموع مؤسسات قطاع الخدمات المعلن عنها رسميا. هذا إلى جانب أن ٣٧٠ شركة الأخرى مرتبطة بالدول الرأسمالية المسيطرة وذلك من حيث وظائفها ودورها كمحطة محلية أى أن هذا القطاع كله يحكمه الغرب. فإذا ماطبقنا الإحصاءات على قطاع واحد مثلا من الخدمات وهو قطاع المصارف طبقا للدراسة الفرنسية نجد أن سنة ١٩٧٢ كانت ٢٧٪ من الودائع إلى جانب ٢٨٪ من القروض للمصارف الأجنبية بينما كانت النسبة ٣٠٪ من الودائع غير ٣٢٪ من القروض للمصارف ذات الأكثرية الأجنبية أى ٥٧٪ من الودائع غير ٦٠٪ من القروض للمصارف الأجنبية. وفى مقابل هذا نجد أن ٧ر١١٪ من الودائع غير ٣ر٧٪ من القروض هى للمصارف العربية، أما المصارف التى ذات أكثرية عربية فقد كان نصيبها ٣ر١١٪ من الودائع مع ٧ر١٠٪ من القروض، أى أن مجموع ما للبنوك العربية بقطاعيها لايزيد عن ٢٣٪ من الودائع مع ١٨٪ من القروض. و يبقى للمصارف اللبنانية ٢٠٪ من الودائع مع ٢٢٪ من القروض. أى أن الأجانب يسيطرون أيضا على النشاط المصرفى وصاحب ذلك ظاهرة ذوبان المصارف

اللبنانية والعربيّة فى المصارف الأجنبية. ولظروف خاصة بالمنطقة فإن لبنان كانت نقطة جذب للأموال العربية حيث كانت تقوم بدور الوسيط. وهناك تقرير «إنه بين ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٥ توجه ٦٥٪ من فائض الأموال البترولية فى دول الخليج أى حوالى ١٫٥ مليار ليرة لبنانية نحو لبنان». هذا إلى جانب رؤوس الأموال اللاجئة والتى هرب بها أصحابها من الدول العربية. وهى حوالى ٦٠ مليون ليرة من فلسطين - ١٠٠ مليون ليرة من مصريين - ١٥٠ مليون ليرة من العراقيين ٥٠٠ مليون ليرة من السوريين أى ٨١٠ ملايين ليرة لبنانية. أى أن لبنان حصل على ٢٫٣ مليار ليرة من الأموال العربية خلال هذه الفترة وهويقدر حاليا بحوالى ٣مليار ليرة. وتؤكد هذه الدراسة الفرنسية أن خطورة هذه المصارف فى لبنان تنبع من أنها تسحب قسما مهما من القروض التى كان يمكن للاقتصاد اللبنانى أن يستفيد منها، وذلك باستثمارها فى الخارج. فهى تنقل إلى المصارف الأم مايزيد عن نصف الأموال التى كان يمكن أن توظف فى لبنان والشرق الأوسط وتصل هذه الأموال إلى ٣٩٨٠ مليون ليرة سنة ١٩٧٤ أى مايوازى ٥٠ - ٦٠٪ من الناتج المحلى. وهكذا يمكن إدراك دور لبنان فى عملية النهب التى تتم سكوت.

هذا إلى جانب ظاهرة أخرى غير النهب وهى التوجيه والتحكم فى البنية الاقتصادية للبنان. فقد ظهر أن هذه المصارف الأجنبية توجه قروضها نحو الخدمات وهى تهدف من ذلك إلى الحد من نمو القطاعات الإنتاجية وتمويل تجارة الاستيراد الواردة أساسا من الغرب. كما أن المصارف اللبنانية تساهم فى هذا الدور حيث تتصرف وفق منهج المصارف الأجنبية وذلك لغياب مؤسسات مالية مؤهلة لتوجيه توظيف رؤوس الأموال.

ويضاف إلى ذلك دور آخر تقوم به المؤسسات الأجنبية من خلال لبنان وهو التجارة، فلبنان وسيط بين الدول الصناعية الكبرى التى يستورد منها وفى مقدمتها الولايات المتحدة التى كان لها ١٦٫٢٪ من الواردات سنة ١٩٧٤ وتليها فرنسا ولها

٨ر١٤٪ ثم ألمانيا الغربية ١ر١٣ ثم بريطانيا ولها ٨ر١١٪ ونفس النسبة لإيطاليا. وفى نفس الوقت نجد أن لبنان يقوم بالتصدير الى العام العربى وفى مقدمته المملكة العربية السعودية التى تحصل على ٣ر١٦٪ من صادرات لبنان ثم الكويت ونصيبها ٦ر٩٪ ثم سوريا ونصيبها ٢ر٧٪ ثم ليبيا ونصيبها ٤ر٦٪. وباختصار فان العالم العربى يحصل على حوالى ٦٠٪ من صادرات لبنان ولعل مايجب الانتباه له وسط هذه الأرقام أن الشريحة العليا من الموارنة من المسيحين والمسلمين على حد التعبير الشائع لهم مصالح مالية أغلبها مع السعودية والكويت. هذا إلى جانب أنه خلال سنوات استقلال لبنان قامت سوقه المالية على استغلال تناقضات ونكبات الأمة العربية. فاحتلال الصهيونية لفلسطين نقل النشاط التجارى من حيفا إلى بيروت حتى لقد تضاعف النشاط فى ميناء بيروت ٢٨مرة.

كما كانت نقطة جذب أمام تيار الاشتراكية فى الدول العربية الكبرى وباختصار فإنه فى الوقت الذى كان يتعاظم دور قطاع الخدمات فى اقتصاد لبنان كان فى نفس الوقت يتقلص دور الزراعة والصناعة. فقد هبطت نسبة دخل الزراعة فى الدخل القومى الى ١٠٪ بعد أن كانت ١٥٪ وفى إطار الزراعة نفسها حدث انهيار تقريبا فى معدلات إنتاج الزراعات الغذائية لحساب الزراعات التجارية «للتصدير» وهو نفس ماحدث بالنسبة للصناعة التى اتجهت نحو الصناعات التحويلية كالملبوسات والبلاستيك والصناعات التجميعية مثل الثلاجات وغيرها. وبالتالى فإنه حتى النسب الصغيرة التى للزراعة والصناعة تحولت إلى خدمة الاقتصاد الوسيط أى تحت سيطرة علاقات الشريحة الاقتصادية التى تمثل الوساطة مع اقتصاديات الغرب. وهكذا أصبحت سيطرة هذه الشريحة بما لها من واقع القيادة الطائفية تمثل ظاهرة الجمود والتخلف فى لبنان. فالمعروف أن علاقات الانتاج الرأسمالى تتيح الفرصة للتطور والقضاء على العلاقات الاقطاعية والعشائرية والطائفية وجعلها فى إطار محدود. أما فى مجتمع يسوده الاقتصاد الوسيط فإن إمكانيات التطور الطبيعى غير متاحة. ويكفى توضيح أثر

هذا الاقتصاد على القوى العاملة، إن نسب عمال الزراعة التى كانت تمثل ٤٥٪ من القوى العاملة فى الستينات أصبحت تمثل حوالى ١٨٪ فى السبعينات بينا العمالة فى الخدمات كانت ٣٤٪ من القوى العاملة فأصبحت ٥٧٪. والنتيجة أن تقلص العمالة فى قطاعات الإنتاج هو تعبير عن انهيار نصيب قطاع الإنتاج فى الدخل القومى و بالتالى سيطرة رأس المال التجارى أى أنه تم استبدال توزيع وسائل الإنتاج بتوزيع الأرباح. وعلى هذه القاعدة توحدت الطوائف لتشكيل توازناتها فى المستوى السياسى. فالرأسمالية الوسيطة ملازمة للكيان و بالتالى جزء من عملية التجزئة والتفتيت. و يترتب على هذا استحالة وجود صراع طبقى يتبلور فى إطار الاقتصاد الوسيط(١٦). فالمجتمع اللبنانى يتجه فى الظروف الحالية نحو مجتمع متعدد الفئات أكثر مما يتجه نحو مجتمع طبقى. فلا وجود لطبقة يسودها قدر مشترك من الوعى الواحد على صعيد الإنتاج. والقاعدة أنه لاوجود فعلى للطبقة دون وعى طبقى. فالوعى الطبقى جزء أساسى فى حقيقة الطبقة ولذلك فنى لبنان طبقات متباينة ومتداخلة أفقيا ورأسيا فى نوع العمل والصلحة والنظرة إلى المجتمع. وقد يكون من الأصح القول بأنه توجد فئات طبقية متمايزة لكنها غير متجهة إلى الإنقسام الحاد. ومايطرح فى الساحة اللبنانية هو شعارات الإصلاح وليست دعوات الرفض الكامل للنظام الإقتصادى(١٧).

وكان مستحيلا لاقتصاد دولة بمثل هذا الشكل الهش أن يستمر بدون أزمات. وكانت بداية السبعينات هى قمة الأزمات التى واجهت لبنان. فالتحول فى المنطقة كان يحمل علامات النهاية لدور لبنان كوسيط و بدأت بالتالى عمليات التقلصات الحادة. ونجد أن لبنان فشلت فى اقتطاع حصة أكبر من المال العربى. فقد كانت قيمة الودائع العربية فى الجهاز المصرفى اللبنانى ٣مليارات دولار سنة ١٩٧٤ بينا، كان دخل دول البترول فى نفس العام يزيد عن ٥٠مليار دولار اتجهت أغلبها إلى سوق المال العالمى. وكان واضحا أن بيروت بدأت تفقد دورها كنقطة ترانزيت للأموال العربية. وقد لخصت دراسة اقتصادية الأزمة فى لبنان إلى أن خطط

التنمية تعثرت بسبب الإدارة العرجاء والسياسيين العاجزين[18]. والواقع أن هذا تبسيط للأمور. فالأمر أعمق من ذلك بكثير. فلبنان الجنة التي يتغنى بها البعض و يفخرون أنه أعلى معدل دخل في العالم العربي حيث يبلغ ٩٤٤ دولار بينما هو في السعودية لايتجاوز ٧١٤ دولار وهي أعلى نسبة دخل في العالم العربي. وإذا كان ذلك صحيحا إلا أن الأرقام هنا تحمل قدرا هائلا من التضليل. فتوزيع الدخل في داخل لبنان يختلف عن ذلك كثيرا. فنجد أن ٢٪ من سكان لبنان يحتكرون ثلثي الدخل القومي و يرتفع الرقم إلى ٤٪ فقط للذين يحصلون على نصف الدخل القومي بينما يحصل العمال في الزراعة والصناعة والحرف وهم حوالي ٥٠٪ من الشعب اللبناني على ١٥- ٢٠٪ من الدخل القومي[19].

و يزيد من بشاعة الصورة مدى التركيز في النشاط الذي يتجمع في العاصمة بيروت إلى حد السيطرة الكاملة على الاقتصاد وهو مايعتبر من عيوب التركيب الاقتصادي لأي دولة. وهو مايكاد يكون حكرا على بيروت وحدها. إذ أنني أشك في أن هناك دولة أخرى تمثل العاصمة مثل هذه المكانة في دولتها. فهي تضم ٧٥٪ من مجموع العاملين في القطاع الصناعي ومثل هذه النسبة- ٧٥٪- من العاملين في قطاع الخدمات. وهو مايعني أن بيروت تستقطب حوالي ٦٠٪ من العاملين في لبنان كله على اختلاف القطاعات. وكان من نتائج هذا التركيز الفريد للنشاط الاقتصادي في بيروت عدم قيام بديل لها في لبنان. و بالتالي انعدمت تقريبا أمام أي من الباحثين عن عمل في غير النشاط الزراعي الفرصة للتوجه إلى سواها[20]...

وقد أطلقت هذه الدراسة على النظام اللبناني تعبير الرأسمالية المتوحشة.. فنقول إننا اخترنا في لبنان نظاما رأسماليا للإنتاج. إلى أن هذا النظام يشبه إلى حد بعيد النظم التي سادت أوربا في القرنين الثامن والتاسع عشر، أو ذلك النظام الذي اتبعته الولايات المتحدة قبل فترة الكساد الكبير سنة ١٩٣٠. وقد أطلق

بعض الكتاب الفرنسيين على النظام المذكور أسم الرأسمالية المتوحشة . وذلك نظرا لما تسعى إليه من مضاعفة لنصيب الفرد من الدخل القومى فى أقصر فترة زمنية ممكنة على حساب ماتخلقه من مظاهر ضاره سواء على البيئة العاملة أو على الصحة أو حتى ماتخلفه من تحطيم متواصل فى البيئة الاجتماعية .

فالتركيز الشديد للخدمات والانتاج والعماله فى بيروت إلى جانب أنه يخل بالبنيان الاقتصادى فإنه يخلق حالة صالحة للثورة . فالجهاز الرسمى لايستطيع توفير الخدمات الضرورية لمثل هذا الزحف البشرى وفى وقت قصير مما يجعل ظروف الحياة فى العاصمة متفاوتة وتصاعد معدل الأسعار فى خطوط جنونية لا تتفق وأى منطق اقتصادى . و بالتالى يضع الحكومة فى صورة العاجز عن العمل بينا الأزمات تتزايد حدتها .

ولعله الغباء أو غرور السلطة الذي دفع باغنياء لبنان الجدد إلى استعراض ثرواتهم و بذخ حياتهم على صفحات المجلات وكأنه نوع من التحدى اليومى للشعب اللبنانى .

وقد ارتبط ذلك كله بالأزمة الاقتصادية فى العالم الرأسمالى الذى ترتبط به اقتصاديات لبنان ارتباطا عضويا وثيقا مما جعلها ضحية تضخم بلا انضباط حتى أصبح ارتفاع الأسعار على حد توصيف الصحف اللبنانية بمعدلات جنونية .

و بدأت معالم أزمة الاقتصاد اللبنانى المختل البنيان أصلا تتزايد . والأزمات الاقتصادية إما أن تواجه بحلول جذرية أو أن تكون مفجر للغضب الجماهيرى وربما للثورة .

وقد لاحظت من إجابات القيادات اللبنانية أن كل قيادات الموارنة تنفى وجود أزمة اقتصادية . وكان رأى بير الجميل أن الطبقة الغنية يمكنها أن تدبر أمرها والطبقة الدنيا تعنى بها الدولة و بالتالى فالمشكلة تنحصر فى الطبقة الوسطى . وفعلا قرر المكتب السياسى لحزب الكتائب فى يناير سنة ١٩٧٥ عقد مؤتمر عام لإنقاذ

الطبقة الوسطى من الانهيار. وقد بحثت فى كل كراسات جماعة الكسليك وكتب الرهبان عن كلمة عن الأزمة الاقتصادية فى لبنان فلم أجد. وفى المقابلات معهم وعلى رأسهم شربل قسيس كان الإصرار على أن المشكلة هى الوجود الفلسطينى وليست مشكلة اقتصاد يختنق. وكانت الكتائب وحدها التى ترى أن الأزمة مجرد مسألة غلاء. وتفسر ذلك بأسباب خارجة عن نطاق لبنان وكأن لبنان مجرد ضحية. فالكتائب ترى أن مصدر المشكلة هو أن لبنان بعد حرب تشرين وقبلها بات مهددا بخسارة تفوقه أى بفقدان إحساس العرب بالحاجة إليه. فلم يعد لبنان وحده بلد العلم والمعرفة. ولم يعد وحده مركزا عالميا للتجارة والاقتصاد والمال، ولم يعد وحده خضرة الشرق وجماله. فقد بدأت الصحراء نفسها ترتدى ألوان لبنان[21]. وبغض النظر عن لغة التعالى وتصور أن لبنان كان يوما ينفرد وحده دون العرب بهذه الصفات فإن التشخيص بعيد عن الواقعية أو الدراسة العلمية.

وفى مواجهة رأى الموارنة كان هناك إجماع على أن المشكلة اقتصادية وفى هذا الجانب يتميز موقف الطوائف المسيحية غير المارونية التى ترى أن المشكلة اقتصادية وسياسية. أما الحركة الوطنية اللبنانية فهى تراها صراعا طبقيا يتخفى بأردية الطائفية. وقد لاحظت أن هناك اتفاقا على أن هذا الصراع الطبقى لم يصل فى حدته إلى حد الاحتكام للقوة المسلحة وقد بنيت حسابات الحركة الوطنية على هذا الوهم الخاطىء.

وسوف أحاول أن أرسم صورة يوم واحد من حياة لبنان فى فبراير ١٩٧٤ أى قبل انفجار الأحداث بعام ومن خلال إحدى صحف لبنان ولا يمكن اتهامها باليسارية وهى جريدة النهار.

ففى الصفحة الثالثة من عدد يوم ٤ فبراير كان العنوان على الأعمدة الثمانية هو «مهرجانات الاحتجاج على الغلاء تشمل المناطق، والسطر الثانى هو اتهام السلطة بالتواطؤ مع المحتكرين وبعض القادة النقابين بالتواطؤ مع السلطة». وفى مقدمة

للصفحة التى عرضت صورا من إضرابات مدن لبنان جميعها تقول «التحرك الحزبى والنقابى لدعم اضراب السادس من شباط احتجاجا على الغلاء والاحتكار، اتخذ طابع المهراجانات الخطابية وشمل معظم المناطق ورافقته فى بعض الأماكن تظاهرات صاخبة ندد خلالها المتظاهرون بالسلطة المتواطئة مع المحتكرين» وببعض القادة النقابيين «المتواطئين مع السلطة» وكان من أبرز المهرجانات مهرجان خطابى أقامه حزب البعث العربى الاشتراكى فى طرابلس، ومهرجان دعت إليه الأحزاب والقوى التقدمية والوطنية فى شكا. ومهرجان أقامه حزب الميثاق والحزب الشيوعى فى مجلة النهر، ومؤتمر دعا إليه اتحاد النقابات فى صيدا، ومظاهرات قامت فى صور. وفى صفحة جريدة النهار عرض لمؤتمرات جرت فى خمسة مدن وكانت العناوين كلها حماسية وتدعوا إلى الإضراب رغم تخاذل موقف الاتحاد العام للعمال.. وكان من بين ماقيل فيها كلمة النائب الدكتور عبد المجيد الرافعى فى مظاهرة، طرابلس،» كم تبدو النقمة والثورة مشروعة إزاء كل هذا خصوصا عندما ترتهن لقمة الشعب بإدارة الإحتكار وتصبح هذه الإدارة المحرك لارتفاع الأسعار فى جو تنعدم فيه الرقابة الحكومية» . وفى صيدا تحدث النائب السابق معروف سعد فى المؤتمر النقابى فقال : «إن مطلبى هو زيادة الأجور، ورفع الحد الأدنى لايهم إلا فئات قليلة من الخاضعين لقانون العمل بينما المطالب التى تمس الإحتكار، كاستيراد المواد الأساسية من قبل الدولة وخفض الأسعار وتعديل قانون الإيجارات،لم تحققها الدولة لأن السلطة نفسها هى سلطة المحتكرين أنفسهم.

وطبعا إذا كانت هذه الصورة التى رسمتها صفحة فى يوم واحد من جريدة النهار فلنا أن نتصور بقية الأيام. وكان أبرز معالمها أن الحركة الوطنية تمضى على طريق الحوار والضغط بالإضراب من أجل تحقيق قدر من المطالب الإقتصادية.

فخلال العامين السابقين على المذبحة خاضت قوى الحركة الوطنية اللبنانية

معارك مع موارنة الجانبين عن طريق الحوار. وكان شعار المرحلة « ٧٣/ ١٩٧٤ » هو « ندوات الفكر الملتزم » وهى ندوات تمت فى نوادى القرى والمدن واشتركت فيها وفود عن أحزاب اليمين واليسار. وقد كان من الواضح خلال هذه التجربة أن قوى اليسار اللبنانى تكتسح اليمين وخاصة فى قلب المناطق التى يطلق عليها « قلاع حزب الكتائب » مما دفع قيادة الحزب إلى اتخاذ قرار بعدم المشاركة فى ندوة يشترك فيها اليسار، أو على حد قولهم « الشيوعيين » . واثبتت هذه التجربة أن أصحاب النظام اللبنانى عاجزون عن الدفاع عنه عن طريق الحوار.

وفى الحركة النقابية كانت قوى اليمين تتصور أنها تسيطر على الحركة النقابية بحكم التركيب العددى لها حيث تضمن هى نصف المقاعد و يبقى الصراع على النصف الآخر و بالتالى فهى تضمن الأغلبية وطرحت شعار « وحدة الطبقة العاملة » ولكن التجربة الواقعية خيبت أمل اليمين حيث بدأت الاتحادات تضيع من يده الواحدة بعد الأخرى فعاد وسحب شعار الوحدة « وطرح شعار التقسيم ولكن الوقت كان فى غير صالحه وقوى اليسار تنتشر فى صفوف الحركة النقابية.

فى الحركة الطلابية تكررت نفس الظاهرة ففى انتخابات اتحادات الطلبة أصيبت قوى اليمين بهزائم ساحقة لأول مرة فى تاريخ لبنان. وفى مواقع مفاجأة مثل الجامعة الأمريكية. حتى كانت النتيجة النهائية أن لليسار ٧٠٪ من مقاعد اتحادات الطلبة فى الجامعة وحتى فى المدارس الثانوية بل وفى المناطق المسيحية.

حتى الانتخابات النيابية بدأت نفس الظاهرة تزحف إليها وهو ما اعتبره اليمين كارثة. وتبلورت المعركة فى انتخابات الجنوب حيث كاد رجل النظام قطب تكتل الوسط « الاسعد فرنجية صائب سلام » وهو كامل الأسعد رئيس المجلس النيابى أن يفقد مقعده فى مواجهة شاب شيعى أيضا وتدخلت قوى الأمن والجيش ومع ذلك فقد كان فوز الأسعد بفارق ألفين صوت فقط حيث نال حوالى ١٣ ألف صوت.

وادرك اليمين بالقطع أن المعارك السياسية فى غير صالحه وأن اليسار يسعى

إلى التغيير بالتطوير بينما النظام عاجز عن التطوير فى إطار الشرعية لأن التطوير يعنى ضياع الامتيازات.

وانصافا : لابد من تسجيل ظاهرة أن اليمين المستنير أدرك خطورة الموقف فاليمين فى عزلة مما تجعله يحتكم إلى السلاح ، واليسار فى نشوة الانتصارات مما يجعله يحتكم الى الشارع اللبنانى ، و بالتالى يفتح الأبواب لصراع من أجل التغيير قد لايعرف أحد مداه. فطرح اليمين المستنير فكرة تعديل قانون الانتخاب بهدف تحويل الصدام من الشارع إلى داخل البرلمان و بالتالى يتحول من طاقة غضب قد تهدم ماهو قائم إلى طاقة كلامية تمتص الغضب وتحقق قدرا من التطوير ولكن اليمين رفض حتى محاولة اليمين المستنير لإنقاذه. واتجهت أنظاره نحو الجيش ليحسم الصراع.

والواقع أن الطائفية السياسية والبنيان الاقتصادى المختل قد تركا بصماتهما على كل أوجه الحياة فى لبنان. وإن كان الجيش هو أكثر المؤسسات التى أصابها الخراب بسبب ذلك باعتبار أن إنشاء جيش مسألة لها مواصفات أهمها الانضباط والولاء لسلطة تمثل الوطن ووحدة هدف تجمع أفراد القوات المسلحة.

فالخلاف الأساسى حول هوية لبنان.. أهو دولة عربية أم رأس جسر للغرب فى المنطقة العربية ، أو بمعنى آخر عربية أم ذو وجه عربى وماترتب على هذا الخلاف من خلاف حول معالجة القضايا الحيوية كان سببا فى عدم بناء جيش حقيق فالموارنة على وجه خاص يعلقون أن لبنان يستمد قوته من ضعفه ، أى أن ضعفه سوف يدفع الآخرين إلى عدم الاعتداء عليه. بينما كانت أغلبية الشعب اللبنانى تريد إنشاء جيش قوى.

وأكبر عقبات إنشاء جيش قوى هى تركيبة الجيش الطائفية مما يحول دون وحدته بل وحتى النسب الطائفية لم تحترم. وفى سنة ١٩٧٢ كانت ٨٥٪ من رتب قادة الوحدات مسيحية بينما ترك للمسلمين ١٥٪(٢٢) . وقد تمت مناقشة المشكلة فى البرلمان فى يوليو ولكنها انتهت إلى تبادل الشتائم والاتهامات و بقيت المشكلة.

ولم يقف أثر الطائفية عند حدود توزيع الرتب بل امتد إلى دور الجيش نفسه حيث خرج الجيش من أزمة ١٩٥٨ التى استعان فيها كميل شمعون بالأسطول السادس جيشا طائفيا . إذ دخل مجال العمل السياسى من باب الطائفية وكلاهما شر السياسة والطائفية بالنسبة لاى جيش ، اذ تحول الاحساس العام أن الجيش أصبح لفئة وليس للوطن . وكان الدليل أنه يستخدم لضرب بيروت ـ ١٩٧٣ ـ بالطائرات بينا يختفى حين تهاجم إسرائيل لبنان (٢٣) .

وقد عمق المشكلة انغماس الجيش فى السياسة وخاصة فى عهد فؤاد شهاب . وإنصافا ، فإن شهاب اعتمد على الجيش لأنه فى الأصل ضابط ثم هو لم يصل الحكم بحزب . فكان عليه أن يعتمد على من يعرفهم وكلهم من الضباط . وفى الوقت الذى دخل فيه الجيش السياسة كان فى الواقع جهازا مستقلا على عكس دول العالم كله فهو طبقا لقوانين ١٩٥٥ استقل قائد الجيش تماما عن السلطة التنفيذية وفى غياب قانون للتجنيد الإجبارى أصبح الجيش لعبة فى يد السلطة . وكان الاعتماد عليه فى بداية عهد سليمان فرنجية ـ ١٩٧٠ ـ لتنفيذ «مخطط» حسب تعبير فؤاد لحود ضرب الفلسطينيين لتمرير الحل السلمى خطأ ، لأن جيش لبنان ليس مثل جيش الأردن مما زاد أزمة الجيش حدة .

وكان أيضا من بين نتائج إدخال الجيش إلى السياسة أن أصبحت مواقع القيادة فيه عرضه للتطهير والتبديل حسب التغييرات التى تقع فى الهيكل السياسى للنظام وجرت بالفعل عمليات تطهير وإخراج للضباط ، إلى جانب الاجازات التى اعطيت لعدد كبير من الضباط لتدريب ميلشيات الموارنة .

وقد أضيف لعوامل إضعاف الجيش اللبنانى غير التركيب الطائفى وإدخاله مجال السياسة عامل آخر وهو التسليح . فإن طبيعة النظام الاقتصادية «الوسطاء» حولت مسألة التسليح من مهمة قومية إلى تجارة ، وتجارة على الطريقة اللبنانية حيث الرشاوى تحت اسم العمولات والغش تحت دعوى الجهل . وقد زاد من بشاعة

الجرم فى هذا المجال الافتقار الى الشعور بالولاء للوطن. وأشهر الأمثلة على ذلك صفقة صواريخ الكروتال وطائرات الميراج والتى بلغت ٢٠٠ مليون ليرة. ورغم دفع العمولات الهائلة لتمريرها فإن الصفقة ألغيت. و يبرز رئيس الوزراء هذا القرار بأنه كان لتجنب خسائر كبيرة تلحق بخزانة لبنان وحتى بالدفاع عنه «أى حتى لا تأتى إسرائيل وتدمر هذا السلاح. والمفارقة تأتى من أن الصاروخ كروتال استبدل بمدافع ٢٠مم المصممة قبل الحرب العالمية الثانية ضد طائرات كانت سرعتها لا تتجاوز نصف سرعة الصوت ليستعمل اليوم فى لبنان ضد طائرات سرعتها ضعف سرعة الصوت!(٢٤) وهو مايعنى أن الدولة بالفعل لا تريد تعزيز جيش لبنان. بل لقد وصل الأمر عند مناقشة ميزانية الدفاع ١٩٧٣/٧٢ أن وقف بير الجميل رئيس حزب الكتائب ليقول فى البرلمان إن نصف أو ثلاثة أرباع الموازنة التى توضع هنا من أجل الدفاع لو وضعت للمياه، للكهرباء، للطرقات التى نحن بحاجة إليها كان أفضل من أى شراء حديد لاينفعنا فى شىء(٢٥).. فالسلاح فى نظر زعيم حزب الكتائب حديد لانفع منه إذا كان للجيش ولكنه أمر حيوى إذا كان لميلشيا الكتائب. ثم يقول بير الجميل: إن قوة لبنان ليست بالجندية ولابالجيش، بل قوتنا باحترامنا للمواثيق الدولية و بصداقاتنا..! بل إن كل الجيوش العربية مع كل السلاح الذى تملكه لم تستطيع أن تصمد أمام إسرائيل..! فى الوقت الذى يسخر فيه بير الجميل من جيش لبنان والجيوش العربية كان يعرف أن هناك تقريرا أعدته لجنة عسكرية لقيادة الجيش عرف بالتقرير «٥٣٢» يتضح منه أن جيش لبنان لم يصد اعتداءات إسرائيل فى ١٩٧٢ بسبب تقصير من قيادته المارونية و بسبب دور الطائفية وعدم وجود وطن للجميع.

وفى تقرير آخر أعده العميد الركن كنعان المعاون العملانى لرئيس الأركان فى ١٢نوفمبر سنة ١٩٧٥ وفى الصفحة السادسة منه يقول بالنص: «لقد أصيب الجيش بهزات عنيفة متتالية تركت آثارا بليغة فى معنوياته منها ماجرى تداركه ومنها مازالت آثاره تتفاعل حتى الآن ويمكن إيجاز هذه الهزات بما يأتى:

أ ـ محاكمات ضباط المكتب الثانى «المخابرات»

ب ـ محاكمات صفقات الأسلحة.

ورغم أنها اتخذت صيغة التطهير الذاتى فإنها فتحت المجال أمام الكثيرين للخوض فى أمور الجيش الداخلية والنيل من سمعته.

جـ ـ حملات التشهير التى كانت تجد لها مبررا فى غارات العدو الاسرائيلى.

د ـ حملات التشكيك والتشهير التى رافقت وتلت أحداث آيار «مايو» ١٩٧٣.

هـ ـ حملات التشكيك والتهجم التى تلت أحداث صيدا سنة ١٩٧٥.

و ـ حملات التجريح والتهجم على قائد الجيش السابق حتى استبداله.

ز ـ متابعة حملات التجريح بغية شل كل ماهو فاعل فى ادارات الدولة من أجهزة ومؤسسات، وتعطيل دورها وخاصة كل مايعطل دور الجيش

و يضيف فؤاد لحود فى كتابه إلى هذه العوامل عوامل أخرى منها شراء معدات وأسلحة غير ملائمة وقيادة الجيش وادارته بصورة «اعتباطية» وطمس الحقائق تسترا برداء السرية وكرامة الجيش والتناقض فى الأوامر باستخدام الجيش.

و يبدو أن هذه الحقائق كانت غائبة عن القيادة السياسية فى لبنان والتى تصورت أن هذا الجيش ليست مهمته الدفاع عن لبنان ولكن المهمة الأساسية له هى الدفاع عن الموارنة ضد العدو الذى يختارونه وهو الفلسطينيون. والغريب أن دولة مثل لبنان تعتبر مركزا رئيسيا لكل أجهزة المخابرات فى عالم تغيب عن قيادتها أبسط المعلومات عن كيان الدولة. و يبدو أن كون بيروت مركزا للجاسوسية هو أيضا أحد أبعاد الأزمة.

فالواقع أن بيروت هى واحدة من مراكز المعلومات فى العالم وهى المركز الرئيسى فى العالم العربى، وذلك بحكم طبيعة الدولة فى لبنان، والتفتت الحرافى للكيان فى لبنان وانتماء الطبقة الحاكمة إلى النفوذ الأجنبى إلى حد يصل للولاء. وتحت شعار الحرية أصبح كل شىء مباح. فليس فى لبنان سر وليس هناك أبواب

مغلقة. وأدق اسرار الدولة يمكن أن تحصل عليها من أى مقهى حتى بدون مقابل. فكل طرف يحرص على أن يقدم أدق أسرار الطرف الآخر دون إدراك أن كل الأطراف هم أبناء وطن واحد. وحكومات العالم العربى استفادت من بيروت كمركز معلومات ومخابرات كما استفادت كل دول العالم صاحبة المصالح فى هذه المنطقة. و بقدر ماكانت كل الأطراف تحرص على استمرار هذا الوضع فى لبنان بقدر ماكان الصراع على أشده بينها على الساحة اللبنانية. ولم يكن الصراع وتفاعل الاطراف العربية بعضها مع بعض بل ومثلا نجد أن دولتى ألمانيا وجدتا فى ساحة لبنان ميدان صراع بينها.

وبحكم المجتمع المفتوح أصبحت الكلمة فى لبنان مسموعة فى العالم كله إلى حد أن صحف فى لبنان لايكاد يصل التوزيع للواحدة منها الألف نسخة ومع ذلك فهى تجد أكبر إذاعات المنطقة العربية تنقل عنها بدعوى أنها اتجاهات الصحف وأصبحت الحرب بالكلمة جزءا أصيلا فى حياة لبنان تعيش عليه وتعيش به.

وساعد على ذلك كله عدم وجود جهاز أمن بالمعنى الحقيقى والموجود شرطة لاتملك سلطة و بالتالى لاتخيف أحدا. و يكفى تعبيرا عن إحساس الشرطة بعجزها أن عسكرى المرور فى بيروت حين يجد سيارة تقف فى مكان ممنوع لايعطيها مخالفة كما يحدث فى كل دول العالم ولكنه ينحنى مثل الأطفال فى بلدنا ليفرغ الهواء من عجلات السيارة ويمضى فرحا بانه عاقب صاحب السيارة دون أن يدرى أنه يعبر حقيقة عن فلسفة الشرطة التى لا تملك من أمر نفسها شيئا...!

وهكذا تتبلور أزمة لبنان فى ظاهرتين: القوى المستفيدة من التقسيم الطائفى تجمع الثروة والسلطة والسيادة الطائفية وأكثر هذه القوى تنظيما هى حزب الكتائب والجياع الفقراء هم مركز نشاط الحركة الوطنية اللبنانية.. وكانت إحدى الأفكار التى برزت نتيجة أن الوضع الاقتصادى والطائفى والإعلامى هو مناخ مثالى لاكتساح اليسار للشارع اللبنانى هى ضرورة خروج قوة تحاول أن تسرق من الحركة الوطنية على رأى السينمائيين «الكادر» أى تبتلع الصورة فيختفى غيرها. وكانت

حركة المحرومين التى يقودها الإمام موسى الصدر هى المرشحة لهذا الدور.

وأعتقد أن ذلك يستدعى الوقوف قليلا أمام قوتين.. الكتائب .. وحركة المحرومين وعلاقتها بالأحداث.

فالكتائب هى التى أطلقت رصاصات البداية للأحداث بعد أن كان الوطنيون الأحرار هم الذين أطلقوا إشارة البداية لانفجار سنة ١٩٥٨ وفى مكتب بشير الجميل ابن بير الجميل وقائد قوات الجبهة وهو لم يصل إلى سن الثلاثين حاولت أن أحصل على الصورة التنظيمية للحزب ولعل «منفضة» السجائر التى على المائدة كانت تذكرنى دائما بطبيعة الحزب وعقيدته. فهى عبارة عن طبق من الفضة يحمل على أطرافه ثلاث بنادق من الفضة أيضا يلتقى سلاحها الابيض معا لتمثل نقطة تحمل منها المنفضة. والغريب هى هواية قيادات الجبهة بالعنف مثلما يضع سليمان فرنجية مدفع نحاس صغير على المكتب!

فحزب الكتائب ولد تنظيما عسكريا حتى من الاسم العائد إلى كتيبة وأساس التنظيم هو المجموعة الصغرى التى تتصاعد إلى وحدات ثم إلى سرية فكتيبة، لتمثل ميلشيا الحرب بعد أن فرض عليه بعد الاستقلال أن يعلن نفسه حزبا سياسيا. وليس تنظيما عسكريا. والحزب يقسم لبنان إلى وحدات صغيرة يقيم فى كل منها مسئول عسكرى وآخر سياسى أو تربوى. وكانت إرادة الحزب تتجمع فى شخص رئيسه إلى أن تقرر إقامة مجلس شورى للرئيس وذلك سنة ١٩٤٢ واستمر هذا الوضع عشرة أعوام حين جرى تعديل جديد فيه من دائرة القيادة من الفرد الى مجموعة صغيرة من ١٨عضوا أصبحت بعد ذلك ٢١ هى ماأطلق عليه المكتب السياسى. وهو صاحب سلطة القرار فى الحزب فيما يتعلق بإقرار سياسة الحزب وتنظيماته و يقوم بالتعيين فى جميع الوظائف، وهو يتألف من رئيس الحزب ونائبه والأمين العام. وكان فى الماضى الرئيس هو الأمين العام. ووزراء الحزب ونوابه البرلمانيين ونوابه السابقين وخمسة أعضاء ينتخبهم مجلس الحزب المركزى لمدة سنتين. أى أن المكتب فى الأغلبية الساحقة بالتعيين، أى ١٦ بالتعيين وخمسة

بالانتخاب غير المباشر، أى بالاختيار ونظرة على تشكيل المكتب السياسى توضح أنه يمثل طبقة واحدة من المجتمع اللبنانى .

التوزيع المهنى فى المكتب السياسى ١٩٧٠ (٢٦)

المهنة	العدد	النسبة
محامون	١٠	٤٧ر٦٪
رجال أعمال	٤	١٩٪
صحافيون	٣	١٤ر٢٠٪
اقتصاديون	١	٤ر٨٪
صيادلة	١	—
أطباء	١	—
حر يون	١	—
المجموع	٢١	١٠٠٪

والأهم هو دراسة سيطرة المكتب السياسى على اقتصاد لبنان . وفى ملاحق الكتاب جدولان : أحدهما عن الشركات التى يملكها أو يديرها أعضاء المكتب السياسى للحزب والآخر عن الشركات التى تشارك مؤسسات الحزب أو ترتبط بها بشكل من الأشكال .

فنجد أن ٤٢ شركة وبنك يديرها أو يملكها ١١ من أعضاء المكتب السياسى(٢٧) وبين هذه الشركات ٤ أمريكية وواحدة فرنسية ألمانية وأشهر هذه الشركات هى كاز ينو لبنان وهو شركة مساهمة خطورته أنه عن طريق إيراد صالة القمار ودخل الكازينو تدفع العمولات إلى الوزراء والنواب وغيرهم دون سلطة رقابة أو دليل يسهل العثور عليه .

هذا إلى جانب ٦١ من أكبر شركات لبنان أصحابها أنصار الحزب و يدخلون شركاء فى بعض الشركات التى يملكها قادة الحزب وأشهر مثال على ذلك شركات چوريج أبو عضل الخمسة عشرة والذى يملك مجلة الأسبوع العربى التى تعتبر أحد أدوات التعبير عن سياسة حزب الكتائب(٢٨).

والظاهرة التى لا تقل أهمية عن تركيز الثروة والسلطة فى يد نخبة محدودة بل فى أن كوادر الحزب من الشباب الذى يقل عمره عن ٢٥سنة وهم معظم الذين كانوا يقاتلون؛ حيث يسهل السيطرة عليهم بالإغراء والاثارة وخلق الهوس الطائفى. فنجد أن ١٥٪ من أعضاء الحزب فى معدل الأعمار من ١٤ سنة حتى عشرين سنة وهم عصب المقاتلين، وقد التقيت بكثير منهم فى بيوت بيروت وكل منهم يتحدث بفخر عن عدد الرصاصات التى أطلقها عبر الشوارع، وكان أحدهم وسنه ١٤ سنة يحكى كيف أنه غالطهم فى سنة من أجل أن ينتقل من سلاح البندقية إلى المدفع سريع الطلقات. و يضاف لذلك أن ٢٦٪ من الأعضاء فى فترة العمر ٢١- ٢٥ أى أن ٤١٪ من أعضاء الحزب أقل من ٢٥ سنة عمرا بينا نصف أعضاء الحزب فى عمر ٢٦- ٤٠. أما الذين تجاوزوا سن الستين فهم ١٪ فقط أى أن النخبة الحاكمة للحزب تختار من نسبة ٨٪ هى الذين بين ٤٦ سنة حتى ٦٠ عاما.

والحقيقة التى يجب أن تكون فى الذاكرة هى أن هناك علاقة وثيقة بين نمو عضوية الحزب و بين الأزمات(٢٩). فعندما يبدو أن النظام السياسى مهدد يتلق الحزب مزيدا من الطلبات ومع انخفاض الأزمات وحدتها تدريجيا ينسحب الأعضاء ببطء و بشكل غير رسمى من صفوف الحرب «أما الذين يبقون طو يلا فى الحزب فلا تتجاوز نسبتهم عن ١٤٪ مثلما حدث سنة ١٩٥٨ حين تدفقت أعداد هائلة بدخول الحزب ومعظمهم من العمال ولكن الموقف كشف مدى التناقض بينهم و بين الحزب وكانوا يمثلون مشكلة إلى أن جدد الحزب بطاقاته سنة ١٩٦٠ وتم خروجهم منه.

والحزب حسب كلام بشير الجميل معى يقوم حاليا بإصدار بطاقة جديدة بعد

إنتهاء المذبحة ليعرف كوادره التي مازالت تدين له بالولاء بعد سنين قاد الحزب بهم الحرب الأهلية .

وشعار الحزب هو «الله ، الوطن ، العائلة» وطبقا لتفسير فيلسوف الحزب فإن الفرد هو الوحدة الأساسية بعد أن كانت في البداية هي العائلة . فهو فرد وعضو في مجتمع يؤلف أمة ودولة ذات سيادة «إن كون الشخص الإنساني غاية عقيدتنا المحورية فذلك يعني أن ماقمنا به ومانرمي إليه إنما يهدفان في غايتها الأخيرة إلى خير الشخص كشخص . وإذا كنا نعمل على أن يقوم لبنان برسالته التي أوحت بها معطياته الخاصة ، فلأن تلك الرسالة في مرماها القريب والبعيد تهدف إلى خدمة الشخص الانساني . فالشخص هو أبدا غاية ، وله الأولوية على كل ماعداه في الكون(٣٠) . والغريب أن المؤلف يقول «إنه إذا كانت الأولوية للشخص . وإذا كانت قيمة الشخص تأتي قبل المجتمع فلا يعني هذا أن الكتائب تنادي بالفردية أو تحط من قيمة المجتمع» . ولست أدري أي فلسفة هذه التي لا تريد حتى أن تعترف بحقيقتها فيقول مفكر الحزب هربا من مسألة الفردية : «إن إيمان الكتائب بالعائلة هو من القوة والعمق والأهمية بحيث تحتل العائلة المرتبة الثانية في المثلث العقائدي الكتائبي» .

وقد تبنت فلسفة الكتائب دعوى القومية اللبنانية وهي من خلق رهبان الجبل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهي في الواقع القومية المارونية ولكن لأنهم يخلطون عمدا بين المارونية واللبنانية فهم يطلقون عليها قومية لبنانية والهدف هو خلق كيان لمواجهة القومية العربية . وهو مايؤكده رئيس الحزب بقوله إننا نؤمن بوجود قومية لبنانية مساوية للقومية العربية . وأن ارتباطنا الأيديولوجي بالقومية اللبنانية هو مصدر صراعنا مع القومية العربية . إننا نؤمن أن العرق اللبناني موجود كغيره من الأعراق الموجودة في أوربا (٣١) . أما نائب رئيس حزب الكتائب جوزيف شادر فيقول(٣٢) : إن لكل دين عصره و يصبح على مر الزمن أكثر فأكثر روحانية ولذلك بينما نجد أن المسيحية في القرن العشرين أكثر روحانية مما كانت عليه في

القرون [illegible] ... [illegible] اليوم فى القرن الرابع عشر على الزغم من أن المسلمين اللبنانيين أقل تعصبا من المسلمين فى أجزاء أخرى من العالم العربى بسبب اتصالهم بالمسيحيين فإنهم اليوم فى القرن الثامن عشر هذا على الرغم من مظهرهم الذى يبدون به فى القرن العشرين .

والحقائق التى يهمنى التركيز عليها بالنسبة لحزب الكتائب :

أولا : أن الأزمة الإقتصادية تمس الحزب فى كيانه باعتباره حزب الطبقة الوسطى التى امتدت إليها الأزمة وهو صاحب الإحتكارات والشركات وأزمة الحكم تمس قيادة الحزب لأن التغيير سوف يكون على حسابها . ومن هنا كان حزب الكتائب صاحب مصلحة إن لم يكن صاحب المصلحة الأولى من قوى الصراع اللبنانى فى إشعال الحرب الأهلية .

ثانيا : أن الحزب يحكم بسيطرته على اقتصاد لبنان فهو على علاقات مفتوحة عن طريق الاقتصاد مع الغرب وخاصة الولايات المتحدة و يرى أكثر من مصدر أن المسألة قديمة وأن فرنسا لها دور فى تشجيع فكرة تأسيس الحزب وإمداد رجاله بمساعدات مالية كثيرة فى سنوات الحزب الأولى . وأن سجلات المفوضية الأمريكية فى ذلك الوقت ذكرت بعض التفصيلات عن هذه المساعدات بأن بعض كبار المسئولين فى الحزب كانوا يتلقون راتبا شهريا من الحكومة الفرنسية أيام الإنتداب هذا إلى جانب الإتصالات الثقافية والسياسية(٣٣) . كما أن له علاقاته مع العرب وخاصة دول البترول الآسيوية وقد لفت نظرى أن صحيفة لبنانية هى صحيفة الجمهورية المعروفة بميولها السعودية تكاد تتصور أن وجهة نظر الموازنة هى وجه نظر لبنان . ففى صفحة تعليقات الصحف نجد أن الصحف(٣٤) التى اختارتها هى فى أغلبها صحف الكتائب

بوجه خاص والموارنة بوجه عام ... افتتاحية جريدة العمل المتحدثة باسم الكتائب ربع الصفحة بالضبط وهى تركز حول الهجوم على الفلسطينيين تحت عنوان « القضية : هى الوجود الفلسطينى . و بقية الصحف الأخرى هى البيرق والإصرار وصحيفة بدور ينت ـ ليجور الفرنسية اللغة .

ثالثا : أن حزب الكتائب هو الحزب اللبنانى الوحيد الذى يكاد يحتكر أصوات اليهود اللبنانيين فى الانتخابات وخاصة انتخابه فى بيروت . وهو مايفتح له قنوات سريعة الإتصال مع إسرائيل .

رابعا : أن الحزب حين يتم الاحتكار للسلاح هو أكثر أحزاب لبنان قدرة على جمع السلاح والمسلحين . فهو يملك الثروة وحوالى نصف الأعضاء من الشباب الذى يمتلىء رأسه بالهوس الطائفى والاستعلاء العنصرى .

خامسا : أن نظرته للعرب تحمل الكثير من الاحتقار و يكفى أن نائب رئيس الحزب يقول إنهم يعيشون فى القرن الثامن عشر مع أن مظهرهم يبدو وكأنهم فى القرن العشرين .

أما القوى الكامنة التى تستحق المرور على تكوينها فهى حركة « المحرومين » وقد توجهت إلى مقر رئيس الحركة الإمام موسى الصدر بالحازمية حيث يقع فى داخل القلعة المارونية وتحت تصورات الحرب الأهلية طوال ١٩ شهرا رجوت صديقا مارونيا أن يحملنى إلى هناك و يكون فى انتظارى لأننى سوف أسأل عن مسلم داخل قلعة الموارنه . واقتربنا من منطقة المبنى ولم أجد أحدا أسأله سوى راهبة كانت تسير وأنا أتوقع فى نفسى أن لا تعرف المقر الرئيسى لمجلس الشيعة ولكنها بلطف شديد أوصلتنا حتى مدخل المبنى الأنيق وكان لبنان لم يكن بها حرب وعلى مرأى البصر منه منازل المحرومين ، وقد دمرتها مدفعية الموارنة من حول مقر الإمام الصدر. وكانت المفاجأة الأخرى عند المدخل هى أن الرجل الجالس

فى استعلامات مقر المجلس الشيعى الأعلى لايعرف العربية فهو إيرانى وكان كل ماأردته وحصلت عليه هو كل مطبوعات حركة المحرومين لأن الإمام جاء متأخرا ساعة لعذر وفاة أحد أصدقائه وتعذر لقاؤنا مرة أخرى وأكتفيت بأن جمعت كل تصريحاته . وهو الرجل الذى عاش عمره فى إيران وعاد ليحتل معقد رئاسة المجلس الشيعى سنة ١٩٦٩ وأثار حوله حملة أكثرها يتركز حول مدى علاقته بالنظام الإيرانى الامبراطورى وهو الذى يقود أكبر طائفة عددا فى لبنان وهم يمثلون أفقر مواطنى لبنان ، والذين يمثلون مايعرف بحزام الفقر حول بيروت وفى كتاب عضو حزب الوطنيين الأحرار ـ شمعون ـ يقول (٣٥) إن أكثر النازحين نحو العاصمة كانوا من الشيعة وكان المسيحيون ينظرون إلى هذا التروح الإسلامى الشيعى بعين الرضى باعتبار أن الشيعة هم حلفاؤهم الطبيعيون نظرا للعلاقات التى تربط الجهتين بامبراطورية إيران .

وإذا كان يلفت النظر توصيف ماروفى للزحف الشيعى والتحالف الطبيعى مع الموارنة بحلقة اتصال هى إيران . فإن دور الإمام خلال الأزمة كان حقيقة دور فى حاجة إلى تبرير . فهو الذى أعلن دعوة الشيعة إلى الإضراب العام نتيجة عدم إهتمام الحكومة بحل مشاكلهم «وقال : إن أهالى الجنوب رفضوا الإسعافات و بعد أن نفذ الصبر عزمنا لاعن ارتجال ولا عن رغبة فى التخريب والفوضى ، عزمت أنا وأخوانى وعزمت أنتم ـ مخاطبا جموع الشيعة ـ وعزم كل لبنانى على أن نبدأ بالخطوات السلبية . هذا الثلاثاء إضراب عام . فإذا لم ننجح فى تنفيذ المطالب فأنا أمامكم ، أمام المظاهرات يوم الثلاثاء المقبل . فإذا لم تنفذ المطالب فى الأسبوع المقبل فإننا نحن الذين بنينا قصور بيروت ، سنحتلها ونقيم فيها . فأبناء الجنوب بيوتهم القصور وليست خيام الصليب الأحمر ، ولايعتب علينا أحد إذا أخذنا القصور الفارغة » (٣٦) ، و يبدأ سلسلة من المظاهرة من مدينة إلى أخرى لتنتهى وفق الخطة بالزحف على بيروت .

ثم أصبح شعاره الذى يردده فى كل مكان هو «السلاح زينة الرجال» وفى الأسبوع الأول من إبريل سنة ١٩٧٥ أى قبل البداية الرسمية لسباق لبنان المحموم مع الموت انتخب الإمام موسى الصدر للمرة الثانية رئيسا للمجلس الشيعى الاعلى وعدل له القانون الداخلى للمجلس بحيث يستمر رئيسا مدى الحياة وجرى التعديل وحول المقر أكثر من ٢٠ الف شيعى بينهم آلاف المسلحين يطلقون النار وأعضاء المجلس فى الداخل يناقشون مسألة التعديل وانتهت المناقشة بفوز الإمام الصدر.

وبحكم أن حركة المحرومين التى يقودها الإمام الصدر حديثة عهد وليست حزبا فإننا لانجد إلا ما نشرته بعد الأحداث وحده الدليل المحايد لتحديد موقع الإمام الصدر فى حركة الصراع.

فنشرة الحركة (٣٧) ترى أن اليسار اللبنانى هو الذى «أثار الغرائز الطائفية بعد نشر المعلومات ذات الطابع الطائفى والغريب أن القادة والأحزاب التى تدعى التقدمية والعلمانية كانت تمارس هذا الأسلوب بشكل مكشوف» وتمضى النشرة فى عرض دور حركة المحرومين التى تقول عنها إن حركة المحرومين هى واحدة من هؤلاء اللبؤات ـ وعفوا للمصريين الذين لايستعملون هذا الوصف ولكننى أنقله حرفيا من نفس عدد النشرة ـ وقفت قبل المحنة وطوال أشهرها ولياليها موقف الأم الحقيقية والموقف فى :

١ ـ فى مايو سنة ١٩٧٤ وصلت حركة المحرومين فى مهرجان صور و بعد . . مهرجان بعلبك إلى قمة التصعيد الجماهيرى . وقررت الحركة إقامة المهرجان الأخير فى بيروت يليه الاعتصام فى المسجد تمهيدا لإسقاط الحكومة ـ وهى طبعا حكومة سنية أرادت الكتائب إسقاطها ـ وكانت الحركة تدرس إمكانية تصدى السلطة لها وتعالج مضاعفاتها . فإذا بها تطلع على تقرير (٣٨) دقيق يكشف عن وجود حركة تسلح واسع النطاق لدى بعض الطوائف اللبنانية . كما يؤكد وجود تعبئة طائفية معادية ، وتبين أن التصعيد سيؤدى الى كارثة وطنية واننا سنجد امامنا

يوم الاعتصام لبنانيين مسلحين ، لاالقوى الحكومية . . وهنا يسيطر الشعور بالمسئولية الوطنية على قيادة الحركة فتجاوزت المزايدات والجد السياسي وتحملت الاتهامات والطعنات فحولت النضال إلى مد جسور جديدة إلى سائر الطوائف اللبنانية بواسطة المثقفين وأسست الأمانة العامة للفكر الملتزم فى خدمة المحرومين . أى أن حركة المحرومين التى كان شعارها السلاح زينة الرجال بعد تعبئة الجماهير وأثارتها طوال ثلاثة أعوام ودعتها إلى احتلال القصور فى بيروت عرفت بتقرير سرى أن هناك طوائف فى لبنان مسلحة وهذا السر الخطير كانت تنشره صحف لبنان صباح مساء ويبقى السؤال معلقا لماذا قامت حركة المحرومين بقيادة الإمام الصدر بهذا الدور التهيجى ثم عادت إلى مد الجسور بعد فوات الأوان حتى قيل عن الإمام إنه المقاتل وقت السلام والمسالم وقت الحرب .

وكانت حركة المحرومين من أعلى الأصوات التى عارضت مقاطعة حزب الكتائب نتيجة مذبحة عين الرمانة . وكان منطق الحركة أن عزل الكتائب يعتبر انحرافا تكتيكيا يجعل الجماهير متعاطفة مع الكتائب . وكان موقف إمام الشيعة أحد أسباب عدم النجاح فى فرض العزلة على الكتائب إلا فى عدم اشتراكها فى الوزارة التى تشكلت بعد المذبحة وهى وزارة رشيد كرامى .

وقت راجعت كل نسخ نشرات صوت المحرومين بحثا عن كلمة نقد فى حزب الكتائب أو حزب الوطنيين الأحرار فلم أعثر على تعبير صريح واحد ولكننى وجدت فى البيانات اتهاما للرجل الذى قدم حياته ثمنا وهو كمال جنبلاط فتتهمه أنه حسب وصفها « ومن يقف وراء جنبلاط فى داخل لبنان وخارجه » وراء مؤامرة بدت واضحة على الهيئات والقيادات الإسلامية . وقد خططت ومولت بدقة متناهية تمهيدا للاستيلاء على السلطة فى المناطق ذات الأكثرية الإسلامية بعد أن تم تمزيق وحدة لبنان وشعبه وأرضه بالاشتراك مع القوى اليمينية الانعزالية الموتورة . ثم تستمر نشرة صوت المحرومين فتقول : إن

المؤامرة أخذت فى الاعتبار وضع المقاومة ومحنتها وعملت على استغلالها . فأوقعت بينها و بين حماتها الحقيقيين . وهى تحاول قطع الجسور بين المقاومة و بين معظم الفئات اللبنانية لتصبح أسيرة أهواء ونزوات السيد جنبلاط .. وتنتهى إلى أن حركة المحرومين تلفت نظر الطائفة الدرزية الكريمة لما عرف عنها من التمسك الشديد فى احترام القيم والتقاليد والمقامات الروحية إلا أنه يقع على عاتقها دون سواها وضع حد لهذا الإنسان ـ جنبلاط ـ الذى أصبح مضرب المثل فى الإساءة إلى كل هذه القيم والتقاليد والمقامات الروحية(٣٩) وهو مالم يصدر من أى قيادة مارونية فى لبنان ضد كمال جنبلاط فى أى لحظة من لحظات القتال ومافكر أحد فى حزب الكتائب أو الاحرار لدعوة الدروز لوضع حد ـ! لجنبلاط ، أما مايتعلق بالمؤامرة للاستيلاء على السلطة فى المناطق الإسلامية فهو رغم أنه كان رأيا جديدا إلا أننى سمعته بعد ذلك من سليمان فرنجية.

والحقائق التى يجب الوقوف عندها مع حركة المحرومين :

١ ـ أن الإمام موسى الصدر تراه الطائفة المارونية حليفا .

٢ ـ أن قيادة الإمام لحركة المحرومين كانت إحدى القوى فى تهيئة المناخ بلبنان للصدام .

٣ ـ أن حركة المحرومين أرادات أن تنافس اليسار على قيادة المحرومين باعتبارها قيادة مقبولة ولن تثير شكوك أصحاب الاحتكارات . إذ ساعة الصدام سوف تحتكم إلى المنطق وإعادة الجسور ولايصبح السلاح زينة بل يختفى .

وفى إعتقادى أن صورة البعد اللبنانى للأزمة تكون قد اكتملت بذلك وهو مايفتح الطريق نحو الخروج إلى دائرة الأوسع وهى البعد العربى .

هوامش الفصل الثانى

(١) Kouty, Anuer, The crisis in The Lebamese System Washington 1976, p. 1

(٢) جريدة النهار فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٦٨ .

(٣) صحف لبنان فى ٥أغسطس سنة ١٩٧٠

(٤) مروان ناصر- فلسفة الميثاق الوطنى اللبنانى- شئون فلسطينية عدد ٥٩ لسنة ١٩٧٦ .

(٥) من حصاد الأيام- فى القضية اللبنانية ٧٤/ ١٩٧٦ . منشورات دار العمل صـ٤٣ .

(٦) القضية اللبنانية- جماعة الكسليك كتيب رقم ١٨ صـ١٢ .

(٧) يوسف جوهر- تاريخ لبنان العام ص ٢١١ .

(٨) بشارة الخورى- حقائق لبنانية- المجلد الأول- ص ١٩٩ .

(٩) الدكتور جورج ديب- الميثاق الوطنى اللبنانى . شئون فلسطينية رقم ٥٠/٥١ صـ٢١ .

(١٠) الدكتور ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد بيروت سنة ١٩٧٥ دار الطليعة صـ١٠٥ .

(١١) من حصاد الأيام ، فى القضية اللبنانية ، ٧٤/ ٧٦ . صـ١٩ .

(١٢) محضر الجلسة الثانية للجنة الإصلاح السياسى التابعة لهيئة الحوار الوطنى .

(١٣) طلال شاهين- المفجر الرئيسى للصراع فى لبنان شئون فلسطينية رقم ٥٥ فى ١٩٧٦ .

(١٤) خالد جابر- السلطة والتوازن فى لبنان . شئون فلسطينية رقم ٥٠ فى ١٩٧٥ .

(١٥) الدكتور هشام البساط- مركز بيروت المالى . ملحق عن المصارف الحوادث . يوليو سنة ١٩٧٧

(١٦) خالد بن جابر- مرجع سابق .

(١٧) الدكتور ناصيف نصار- مرجع سابق ص ١٥٩ .

(١٨) جريدة النهار الملحق الإنمائى- ١٢مايو سنة ١٩٧٤ .

(١٩) Kouty. Enurt. p. 13-17.

(٢٠) د. رياض طبارة « هيمنة بيروت وفرص التنمية . جريدة الأنوار فى ١١ يونيو١٩٧٧ وهى عن دراسات للكاتب بعنوان « السكان والتنمية » .

(٢١) من حصاد الأيام . فى القضية اللبنانية ٧٤/ ١٩٧٦ صـ٤٨ .

(٢٢) فؤاد لحود- مأساة جيش لبنان- ص ٨٤- ٩١ .

(٢٣) كلمة رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان السابق فى جلسة البرلمان ١٦أبريل ١٩٧٤ .

(٢٤) فؤاد لحود . مأساة جيش لبنان ص ٦٢ .
(٢٥) محاضر جلسات المجالس النيابي ٧٢-٧٣/ ٢ ص ١٣٦٤ .
(٢٦) راشد حميد - الكتائب - شئون فلسطينية رقم ٤٦ نقلا عن رسالة دكتوراه في جامعة نيو يورك .
(٢٧) ملحق الشركات العائدة لحزب الكتائب (رقم ٣) .
(٢٨) ملحق الشركات الصديقة لحزب الكتائب (رقم ٤) .
(٢٩) راشد حميد - الكتائب - مجلة شئون فلسطينية رقم ٤٦ .
(٣٠) أمين ناجي «فلسفة العقيدة الكتائبية . منشورات الكتائب . بيروت ١٩٦٦ ص ٣٤ .
(٣١) The Daily Star. 2 March 1969 .
(٣٢) راشد حميد - مرجع سابق .
(٣٣) د . أنيس صايغ . لبنان الطائفي . بيروت ١٩٥٥ ص ١٥١ .
(٣٤) الجمهورية - بيروت : ص ٤ في ١٥/ ٦/ ١٩٧ .
(٣٥) فؤاد لحود . مأساة جيش لبنان ص ٣٢ .
(٣٦) نص خطاب موسى الصدر في الأنوار في ٢٧ مايو سنة ١٩٧٠ .
(٣٧) صوت المحرومين . نشرة داخلية . العدد ٣ في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٦ .
(٣٨) الأصل في اللغة العربية أن تكون تضطلع ولكنها جاءت هكذا في النشرة .
(٣٩) صوت المحرومين . عدد السابق الإشارة إلى من النشرة - ص ٢٨ .

الفصل الثالث

البعد العربى

إذا كان عام ١٩٧٣ هو عام الحرب العربية الاسرائيلية فإن عام ١٩٧٤ هو عام بداية الحرب العربية أو حرب الاستنزاف العربية بمعنى أدق. وهى كانت أنسب مناخ لتحقيق أمل طال السعى من أجل تحقيقه وهو ضرب آخر قلاع الثورة الفلسطينية وتصفية اليسار اللبنانى أو بمعنى أشمل لقيام المذبحة الكبرى على أرض لبنان. وليس مهما فى اعتقادى تحديد المسئول عن حرب الاستنزاف العربية بقدر أهمية تحديد معالم هذه الحرب. فلسنا أمام ساحة قضاء تاريخية ولكننا أمام مهزلة مرضية تحتاج إلى توصيف. فما إن انتهت حرب اكتوبر حتى انفرط العقد العربى وتحول الأخوان على الجبهة إلى أعداء فى الساحة السياسية. وامتدت ألسنة اللهب فى الحرب الإعلامية من دول المواجهة إلى عمق العالم العربى.

فى ١٨ يناير سنة ١٩٧٤ تم توقيع اتفاقية الفصل بين القوات على الساحة

المصرية (الكيلو ١٠١) وإلى أن تم توقيع اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة السورية فى آخر مايو سنة ١٩٧٤ كانت بذور الخلاف وحملات الشك قد قفزت إلى الميدان. وتحول رفقاء الحرب بالأمس إلى خصوم السياسة اليوم. وكان الواضح من حملات الحرب الإعلامية أن هناك دعوى بأن سوريا تتعرض لضغط كبير لتوقيع الاتفاق. وقد اشتركت فى الاتصالات مع الولايات المتحدة مصر والسعودية. وقد كانت التعليقات أن «صوت طرقعة» البنيان السورى تحت الضغط قد أصبحت مسموعة فى كل عاصمة عربية. وحضر جروميكو إلى دمشق والتقى بكيسنجر. والمهم فى ذلك كله أنه أصبح واضحا أن هناك تيارين أحدهما يمضى بسرعة نحو التسوية بينما الآخر يتعثر ويحكم وحدة الهدف ووحدة العدد فقد وقع الشقاق بينهما لأن الذى تعثر ليس ممتنعا ولكنه فقط كان يريد التيار الآخر أن يقف معه. ولم يقف الأمر عند حد ذلك فإن اتفاق سيناء ـ والذى كان مفروضا أن يوقع فى مارس سنة ١٩٧٥ ولكن الاتصالات فشلت فى آخر لحظة ليوقع فى سبتمبر ـ قد زاد من فجوة الخلاف، إذ كان واضحا استحالة الوصول إلى اتفاق جديد على الجبهة السورية، كما أن بنود اتفاق سيناء قد أثارت أكبر جدل شهدته الأمة العربية خاصة وأن الإتفاق ينص فى مقدمته أنه اتفاق بين مصر وإسرائيل بينما كل الإعلام المصرى كان ينفى ذلك يؤكد أنه اتفاق مع الولايات المتحدة ثم المادة الأولى التى تنص على أن النزاع بينهما وفى الشرق الأوسط لايتم حلة بالقوة المسلحة وإنما بالوسائل السليمة. وتعطى المادة الثانية تعهدا من الطرفين بعدم استخدام القوة أو التهديد أو الحصار العسكرى فى مواجهة الطرف الآخر. والمادة السابعة التى تقرر السماح بمرور الشحنات غير العسكرية المتجهة إلى إسرائيل ومنها بالمرور فى قناة السويس(١). وهو ما اعتبرته سوريا ومنظمة التحرير إنهاء لحالة الحرب بين مصر وإسرائيل عمليا وخاصة وأن الإتفاق غير محدد المدة بل إن مادته التاسعة والأخيرة تقرر أنه سوف يبقى ساريا حتى تحل مكانه اتفاقية جديدة. ثم أضيف إلى ذلك إجراء عملى بفتح قناة السويس فى يونيو سنة ١٩٧٥ واعتبرته سوريا ومنظمة

التحرير عقبة عملية أخرى وأثار جدلا حادا بين مؤيد باعتبارها مصدر دخل لمصر ودليل على حسن النيات ومعارض يرى أنه ضمن شروط فرضت على مصر أو على الأقل هي عقبة في طريق أي امكانية جديدة للحرب .

وليس موضوعنا هو تقييم الاتفاق أو فتح القناة بل الموضوع أصلا هو مجرد تشخيص الحالة التي كان العالم العربي عليها . فقد أثار الاتفاق ضجة هائلة في عدد من العواصم العربية تركزت حول هذه البنود ثم انتقلت إلى ماقيل عن وجود بروتوكولات سرية وتطورت حملات النقد الى حد تبادل الاتهامات وظل موضوع البنود السرية مجالا خصبا للتأويل والتفسير في ظل إنكار مصري مطلق إلى أن أعلنه كيسنجر أمام الكونجرس (١) وظهر أنه ليس هناك بروتوكلات ولكن وثيقتين واحدة لإسرائيل والثانية لمصر الأولى تحت عنوان «تعهدات أمريكية لإسرائيل» والثانية تعهدات أمركية لمصر .

وقد وصلت حدة الموقف بين مصر من جانب وسوريا ومنظمة التحرير من جانب آخر إلى درجة تجاوز حدود الخصومة السياسة إلى مايشبه المقاطعة في ظل حرب إعلامية ساخنة سقطت خلالها أجهزة الإعلام المصرية في أخطاء استراتيجية زادت من حدة الاتهامات . فهي بدلا من أن تنفي الاتهامات الموجهة إلى مصر إذا بها تثير قضايا أعمق وأخطر حتى أكدت موقف الطرف الآخر بل وأوصلته إلى حد القناعة بما يقول . وأصبح طابع التعامل بين حلفاء الأمس هو العصبية الشديدة التي تصل إلى التطرف في الخصومة والاتهامات والافتقاد إلى الأرضية الصالحة لأي حوار مفيد ، بل إن أي كلمة نصح عاقلة في هذا المناخ كانت تعرض صاحبها للاتهامات بالشيوعية أو العمالة . والحقيقة التي غابت في هذا المناخ هي أنه ليس في قدرة دولة عربية وحدها أن تخوض حربا في مواجهة إسرائيل . وبالتالي فالخلاف بين دول المواجهة هو في النهاية على حساب مستقبل الصدام الحتمي بين العرب وإسرائيل وفي صالحها حتى في مرحلة العمل السياسي . لأن أي دولة وحدها تحتاج في العمل السياسي إلى قوة مؤثرة . فإن دخلت وخلفها حقيقة عدم القدرة على

الأحتكام للسلاح وحدها وهى مختلفة مع غيرها فهو أمر يؤثر على موقفها بلا شك. وهو مايعنى باختصار أن الضرورة الاستراتيجية هى دائما وحدة جبهة دول المواجهة.

وكان الموقف الفلسطيني راجعا إلى الخوف من المستقبل أو بمعنى آخر ماقد يترتب على الاتفاق. وكان المنطق المطروح أمام القيادة الفلسطينية هو أن المادة الثامنة من اتفاق سيناء تقرر أن الخطوة التالية سوف تكون اتفاق سلام نهائى. أى أن الخطوة الدبلوماسية سوف تكون هى الإعداد لمؤتمر جنيف لوضع هذا الاتفاق النهائى ولكن وثيقة الوعود الأمريكية لإسرائيل تنص صراحة على «أن الولايات المتحدة ستواصل التقيد بسياستها الحالية تجاه منظمة التحرير. أى أنها لن تعترف بمنظمة التحرير أو تتفاوض معها مادامت منظمة التحرير لا تعترف بحق إسرائيل فى الوجود. ولا تقبل قرارى مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨ وستجرى حكومة الولايات المتحدة مشاورات كاملة وتسعى لتوفيق موقفها واستراتيجيتها فى هذا الموضوع فى مؤتمر جنيف مع حكومة إسرائيل. ثم تلتزم الولايات المتحدة لإسرائيل بعدم اشراك أى منظمة أو دولة فى المؤتمر إلا بموافقة جميع المشتركين الأصليين أى بموافقة إسرائيل.» وسوف تبذل الولايات المتحدة كل الجهود لتضمن إجراء المفاوضات الأساسية فى المؤتمر على أساس ثنائى كما أنها سوف تعارض وتقترع عند الضرورة ضد كل مبادرة فى مجلس الأمن لإجراء تعديل لبنود القرار ٢٤٢(٢).

ويصبح على منظمة التحرير أن تقبل العمل وفق الالتزامات الأمريكية لإسرائيل وهى التزامات لا تترك للمنظمة شيئا تستطيع المناورة أو حتى الحركة فى إطاره بل نفرض عليها إن أرادت أن تتنازل عن كل شيء مقابل وعد بدعوتها إلى مؤتمر جنيف. وإذا عقد المؤتمر فإن الالتزام الأمريكى لإسرائيل أن يكون الاتفاق الأساسى اتفاقا ثنائيا، وبالتالى يكون مؤتمر جنيف مجرد حفل دبلوماسى. أى أن تتنازل المنظمة عن أهدافها لمجرد الحصول على بطاقة دعوة فى

مدخل دبلوماسى وكان رد الفعل الطبيعى وهو رفض الاشتراك فى مؤتمر جنيف ورفض تعديل قانون المنظمة.

ويعتقد بعض المؤمنين بحتمية نجاح جهود السلام بأن الموقف الفلسطينى المعارض يشكل العقبة الرئيسية وربما الوحيدة التى تحول دون انعقاد مؤتمر جنيف لدراسة تفاصيل الحل. ولذلك تغدو قضية «تدجين» المقاومة الفلسطينية وإدخالها ضمن إطار المفاوضات من أهم القضايا التى يجب إنجازها خلال مرحلة التحضير لمؤتمر جنيف(٣).

وترجمة ذلك لبنانيا تعنى أن موقف المقاومة المعارض هو العقبة فى سبيل مؤتمر جنيف. وهو المؤتمر الذى يمثل أمل الموارنة فى التخلص من الوجود الفلسطينى إلى «الوطن المنتظر» له. وبالتالى فلابد من عقد المؤتمر ولذلك لابد من «كسر شوكة» المقاومة على حد التعبير الشائع أو تدجينها. وباعتبار أن أى صدام فى لبنان سوف يؤدى ليس فقط إلى إنهاك المقاومة وتجريدها من معظم أسلحتها وإنما أيضا إلى التضحية بعشرات الآلاف من الفلسطينين العزل من السلاح. وفى غياب الأرض والوطن يعتبر العنصر الفلسطينى أغلى أرصدة ماتملكه المقاومة(٤). وهو ماتدركه القيادات المارونية جيدا.

وشعر الفلسطينيون أكثر من غيرهم بمقدمات الخطر. فقد كان لابد من وجودهم لإعطاء الشرعية لأى اتفاق نهائى. ولكن المهم هو كيفية هذا التواجد. فالأردن بتأييد عربى يرى أنه هو طرف المباحثات للتسوية وبعدها يأتى الدور الفلسطينى. ثم إن معالجة القضية كلها تأتى من منطلق قرارا مجلس الأمن ٢٤٢ الذى ينظر إلى الفلسطينيين من زاوية أنهم لاجئون. وهو ماترفضه. ومعها كل الحق. منظمة التحرير. ومن هنا برز دور منظمة التحرير فى عرقلة اتفاق محتمل هو

بالتأكيد اتفاق ضد أهداف الثورة وآمال الشعب الفلسطيني. وكان رد الفعل العربي مناقضا لكل ماهو معلن من بيانات ووعود بدلا من دعم المقاومة. وكان محوره الأساسي فكرة البدائل وهي:

•• تغيير القيادة الفلسطينية بقيادة أكثر ليونة. وبدأت بالفعل عمليات «جس النبض» وجرت منافسة بين اسمين أحدهما يمثل الجناح السعودي في فتح والآخر هو رجل سوريا في منظمة التحرير. ولكن حجم التفريط في الأهداف المطلوب الموافقة عليه حال دون أن يوجد البديل دون أن يسقط فور اختياره أو فرضه على المنظمة أمام قواعده وجماهير الشعب الفلسطيني. ثم إن العملية كلها مالم يتم «طبخها» داخل إطار المنظمة فسوف لايتحقق لها النجاح. ووصل الأمر إلى حد الاتجاه نحو أمل أن تنجح إسرائيل فيما فشلت فيه بعض القوى العربية وهو إيجاد قيادة فلسطينية من داخل الأرض المحتلة تكون بديلا عن منظمة التحرير ولكن ذلك أيضا فشل ولو حتى الآن؟!

•• البديل الثاني هو الضغط على منظمة التحرير لتصبح في حجم يفرض عليها قبول التفريط أو على حد القول أن يقبل القتيل توريث القاتل. وأصبح شعار هذا البديل هو «تحجيم» المقاومة أي تحديد حجمها أو «تقزيم»- من قزم- دورها على الساحة العربية بوجه عام وعلى الساحة الفلسطينية على وجه خاص. وهي تعبيرات سادت الساحة العربية. ولم يكن تحقيق هذا البديل ممكنا بالوسائل السياسية أو المالية خاصة وأن الثورة الفلسطينية كانت تكتسب دورا عالميا وتأييدا دوليا في كل المجالات وفي مقدمتها الأمم المتحدة وحين عملت مثلا على إدانة الصهيونية بالعنصرية في الجمعية العامة اعتبرت الدبلوماسية العربية هذا العمل نوعا من «الطيش» وتخريب جهود السلام. وإن كانت قد عادت الى تأييده اضطرارا أمام التأييد العالمي الذي حصلت عليه دبلوماسية الثورة الفلسطينية والتي أصبحت عضوا في كثير من الوكالات المتخصصة.

•• وكان البديل الأخير هو تصفية الثورة والنظر إلى الفلسطينيين من منطلق إنسانى بأنهم لاجئون. وهو فى الواقع كان أصعب البدائل والواقع العربى كان يشير إلى أن الفلسطينيين فى العالم العربى هم لاجئون بالفعل ولكنهم فى لبنان وحدها «ثورة» وكوادر مسلحة فهى آخر مابقى للفلسطينيين من مواقع فى العالم العربى.

والتقت الخطوط .. تيار عربى مع تيار لبنانى داخلى مع تيار دولى أو بمعنى أدق أمر يكى عند نقطة واحدة وهى إمكانية تحقيق إن لم يكن البدائل الثلاثة من خلال الساحة اللبنانية، فعلى الأقل يمكن تحقيق بديلين وهما الأول والثانى ومنهما يمكن الوصول بالصبر واستمرار التصفية إلى البديل الثالث والأخير.

وهكذا كانت صورة العالم وخاصة فى الدول ذات الفاعلية والتأثير فى العالم العربى أن الحكومات تقف فى جانب والثورة الفلسطينية تقف فى جانب آخر. ربما كان مايخفف من بشاعة الصورة حالة التمزق التى عليها صفوف الثورة الفلسطينية حيث كان لكل طرف عربى تنظيم فلسطينى يمكنه أن يلعب من خلاله. وللإنصاف فقد كانت هذه التظيمات تتمتع بقدر من استقلالية الحركة عن الدولة المصدر باستثناء تنظيم الصاعقة، وسياسة التوازنات التى وقعت القيادة الفلسطينية فريسة لها وإن كان أحيانا يبدو أنه لم يكن أمامها بديل عنها إلا بالالتزام بالثورة بكل ماتعنيه من نتائج ومصاعب.

وكان طبيعيا أن يتقدم موارنة لبنان لتحقيق أمل الجميع، وخاصة وأن مناخا مثل هذا القدر من التوافق قد لايتكرر مرة أخرى لسنوات عديدة.

وقبل الانتقال إلى هذا الدور فى إطار الوجود الفلسطينى بلبنان لابد من إلقاء نظرة على خريطة العالم العربى تكون أكثر شمولا وأبعد مدى من دائرة القضية الفلسطينية والمواقف منها لتحدد صورة واقعية للحالة التى وصلت إليها دول المنطقة فى عام المذبحة الكبرى لبنان.

وهكذا جاء عام ١٩٧٥ وصورة العالم العربي :

١ - حرب إعلامية وحشود عسكرية بين العراق وسوريا بسبب الخلاف على توزيع مياه نهر الفرات ، وأخذت حملات الإعلام بينهما تتبادل الاتهامات بالعمالة مرة وبالاستسلام مرة وبالتخاذل الثوري مرات والعراق كانت هي العمق الاستراتيجي لسوريا خلال الحرب.

٢ - الحرب الإعلامية بين مصر وليبيا والتي وصلت إلى درجة تبادل الشتائم في الاذاعات وليبيا كانت هي العمق الاستراتيجي لمصر طوال أيام الحرب.

٣ - الخلافات بين مصر وسوريا حول تكتيك التحرك نحو التسوية السياسية وقد ذكرت «النشرة الإعلامية الأسبوعية» لمكتب وزير الإعلام المصري إن هذه الخلافات الرئيسية الثلاث تقلل من قدرة العمل العربي على الحركة.

وقد ارتبط ذلك بتحرك الأردن ضد قرار مؤتمر القمة العربي بالرباط الخاص باعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، والتي ارتكزت الأردن خلالها على التهديد بعدم الاشتراك في جهود السلام وبالتحديد في مؤتمر جنيف . وذكرت وكالات الانباء - في ٩ مايو سنة ١٩٧٥ - أن الرئيس الأمريكي فورد اقنع الملك حسين بالاشتراك في مؤتمر جنيف لأسباب تتعلق بالقانون الدولي(٥) . وبالتالي أصبح هناك تناقض علني بين استمرار دور الأردن في التسوية وبين الموقف الفلسطيني من التسوية .

وزاد على ذلك كله حادث اغتيال الملك فيصل في ٢٥ مارس سنة ١٩٧٥ ورغم أن الأمير القاتل أعدم واختفت تفاصيل الجريمة إلا أن مايتردد عنها هو أن هذا الشاب قد جرى له غسيل مخ في الولايات المتحدة والافلام الامريكية تحكي عن الكثير من الجرائم التي تمت بهذه الطريقة . والذي يهمنا في موضوعنا هو أن أغتيال

فيصل كان يعني بالنسبة لقضية العرب الأولى وهي فلسطين وفاة أقوى من يطالب بالقدس عربية، وحديثه مع كيسنجر شاهد له على ذلك.

وكان من أكثر مايثير الدهشة في أحداث هذا العام هو بروز «الوفاق الخليجي» بين السعودية والعراق وإيران ـ الشاه ـ أو «الترويكا» المؤثرة في المنطقة ذلك في أعقاب التوقيع النهائي في ١٣يونيو سنة ١٩٧٥ على اتفاق العراق وإيران بشأن الحدود بينها. وهو الاتفاق الذي وضع بعد وساطة سعودية ومصرية في مؤتمر الأوبك بالجزائر وبتأييد جزائري في مارس من نفس العام. وبرغم بروز هذا الوفاق الثلاثي فإن الاستقرار لم يتحقق في المنطقة بسبب أزمة الحدود بين العراق والكويت ومشكلة الحدود بين قطر والبحرين ومشكلة الثورة في ظفار حيث تقف قوات إيرانية أردنية بريطانية مع السلطان قابوس بينما قوات جبهة تحرير ظفار لاتجد الدعم سوى من اليمن الجنوبية.

وفي الشمال الأفريقي كان التوتر قائماً بين ليبيا وتونس حول وحدة لم تعش بين البلدين لأيام وصراع طال بين الجزائر والمغرب.

وكانت هذه الصراعات جميعها تتجسد على الساحة اللبنانية بشكل واضح وملموس باعتبار أن وجهات النظر المتعارضة بين العرب لا ترى متكاملة في مواجهة بعضها إلا على الساحة اللبنانية حتى إن سليمان فرنجية قال لي: إن العرب حاربوا بعضهم على ساحة لبنان.

وقد ترتب على ذلك عدة ظواهر، أولها عودة سياسة المحاور. ففي مواجهة محور القاهرة ـ الرياض سعت سوريا لإقامة محور دمشق ـ عمان ـ بيروت ـ الثورة الفلسطينية. وقد حاول كل محور كسر تحالفات المحور الآخر. وأخذ ذلك طابع الشد والجذب بين العواصم العربية واستعملت فيه كل أنواع الأسلحة من ضغوط إعلامية إلى تأخير في سداد المساعدات المالية.

والمهم أن الثورة الفلسطينية بمنطلقاتها الأساسية قد أصبحت تقف وحدها على الساحة العربية فهي تجد الدعم والتأييد من طرف حول موقف محدد أو في إطار خط واحد بينما لاتجد الدعم والتأييد العربي حول منطلقات الثورة الكاملة والتي كانت قبل حرب أكتوبر موضوع تأييد عربي كامل.

وكان المعنى المباشر للتطور الذي وقع على الساحة العربية أن تناقضا في المصالح قد برز على السطح لأول مرة منذ قيام الثورة الفلسطينية بين الثورة والحكم «العربي» وأصبحت هناك قناعة لدى بعض الحكام إن إستمرار «ثورية» الثورة الفلسطينية هو عقبة في سبيل تحقيق التسوية المطروحة، إلى درجة برزت نغمات مشبوهة تدعوا إلى الإقليمية ورفض الثورة الفلسطينية باعتبارها عبء لادخل لهم به أو على الأقل يكفي ماقدم من أجلها. وفي نفس الوقت كان لابد من عملية احتواء أو حصار للقوى القادرة على دعم النضال الفلسطيني. وقد استوعبت كل الطاقات العربية في أزمات شغلت الحكومات بالأمن الذاتي أو أحلام الغد.

وشعر الفلسطينيون بقرب إحكام «المصيدة» فقاموا بحملة إعلامية ضخمة والواقع يشهد لهم بهذه الموهبة والقدرة على الصراخ. وكانت صحافة لبنان بل الساحة البنانية هي السلاح الوحيد الذي في أيديهم. وقد أصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بياناً في ٢٢ يونيو من نفس العام تكشف فيه موقف عناصر فلسطينية مدعمة من عواصم عربية تسعى لشق الساحة الفلسطينية وخلق بديل عن منظمة التحرير أو على الأقل قيادتها التي ترفض المشاركة في مؤتمر جنيف على أساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

وفي مواجهة ذلك قادت حكومات عربية كثيرة حملة صليبية ضد ماأسمته «الخطر الشيوعي» وأصبح كل تياريري خلاف ماتراه هذه الحكومات سواء في مجال التسوية أساسا أو على الساحة الداخلية هو شيوعي لابد من تطهيره

وتصفيته ، والمهم أن المقصود لم يكن أعضاء الأحزاب الشيوعية بل إن المقصود الحقيق كان المعارضة للتيار السائد فى المنطقة . وقد عقد فى لبنان فى ١٢ مارس مؤتمر تضامن شعوب الشرق الأوسط تحت شعار « مكافحة الشيوعية فى المنطقة » ورأسه كميل شمعون واشتركت فيه رابطة العالم الإسلامى فى مكة .

وهكذا التقى الخط السائد فى عواصم عربية مع مصالح شريحة الموارنة « المسيحية والإسلامية » اللبنانية . فقد كانت الساحة اللبنانية هى التجسيد الواقعى للمعركة من أجل التسوية أولا وتصفية المعارضة التى كان تيارها سائدا حتى لسنوات قليلة . فالوجود الفلسطينى مركزا فى الساحة اللبنانية هو العامل الحاسم فى إبراز هذا التجسيد بل والمبالغة فى خطر التيار الآخر .

وقد كانت الإجابات للقيادات اللبنانية توضح أن الجبهة اللبنانية (شمعون - الجميل - شربل قسيس - فرنجية) ترى أن الوجود الفسطينى هو المشكلة وأنه لا حل لأزمة لبنان دون خروج الفلسطينين من لبنان . وهو ما لا يشاركهم فى هذا الرأى أحد سواء من المسيحين غير الموارنة أو المسلمين من غير المتحالفين مع الموارنة . بل لقد قال لى شمعون : إننا لن نتوقف حتى نطردهم من لبنان .

ولابد لفهم منطق الجبهة اللبنانية إن جاز تسميته بمنطق باعتباره أقرب إلى المصالح منه إلى المنطق أن ندرس مسألة الوجود الفلسطينى على الساحة اللبنانية فى ظل البعد العربى للأزمة . وقد مر هذا الوجود بمرحلتين الأولى هى مرحلة ماقبل الثورة حيث كان يعيش الفلسطينيون فى مخيمات محكومة بالحديد والنار وهو مايحلم البعض بإمكانية عودته ومرحلة مابعد الثورة وقد عرض كمال جنبلاط الموقف فى تحديد دقيق (٧) « بأن الشعب الفلسطينى يعيش فى لبنان فى ظل رواسب تذكره بما كان عليه قبل الثورة فى المخيمات وممارسات السلطة اللبنانية والمكتب الثانى -

المخابرات. بوجه خاص قبل أن تحرره الثورة من سوء المعاملة التى كان الوجود الفلسطينى راضخا لها. إن الشعب الفلسطينى لايزال يخشى العودة إلى السابق ولايطمئن للحكم اللبنانى بوصف هذا الحكم لايمثل اتجاها وطنيا بالمعنى الصحيح للكلمة. ذلك لأن رواسب الانعزالية لا تزال فيه، فى الحكم والإدارة والجيش. وهو مؤكد سوف يختلف لو اطمأن الفلسطينيون إلى أن الحكم فى لبنان حكم وطنى.»

«وفى مواجهة الخشية الفلسطينية هناك خوف مارونى لأسباب تاريخية متعددة ولتصورات نفسية عميقة أصبحت لديهم مسلمات بالخوف من المحيط العربى الواسع خاصة وأن الحركة الوطنية فى أوساط المسيحين لم تأخذ الفرصة لتقوى. وزاد من درجة الخوف سوء تصرف الجانب المسلم أو انقياده هو أيضا إلى لون الصنميات الطائفية. هذا بالإضافة إلى عنصر آخر يجعل الخوف المارونى مستمرا وهو الخوف من التيارات الفكرية، فالثورة الفلسطينية أخذت تجرف اللبنانيين. مسيحيين ومسلمين. فى تيارها. ذلك أن من يعايش الثورة لابد أن يتأثر بها خاصة فى ظل أوضاع لبنان.»

ويمضى كمال جنبلاط فى تشخيصه فيقول «هناك عنصر آخر غير الخوف المتبادل هو دور النظام السياسى. فنظام لبنان متحجر لايريد أن يتطور على أى صعيد فالكل. فلسطينيون ولبنانيون. يشعر أن هذا النظام هو عدوهم، عدو التطور، عدو التقدم، عدو الفئات التى تئن من الاحتكار، أكانت وسطى أو محدودة الدخل أو صغيرة، كما هو عدو تطور المفهوم الوطنى للبلد. هذا المفهوم المتمثل فى عبور اللبنانيين من اتحاد الطوائف أو هذا التعايش الكاذب الذى يتفجر من آن إلى آخر فى ثورات دامية، إلى انصهار هذه الطوائف ضمن شعب لبنانى حقيق وبمفهوم للوطن لامفهوم للملجأ»

هذا إلى جانب التبدلات الديموجرافية التى طرأت على التوازن الداخلى بين

المسلمين والمسيحين حتى أصبح المسلمون حوالى ٦٥٪ والمهم أن الموارنة أصبحوا من حيث العدد ثالث طائفة لبنانية بعد الشيعة ثم السنة. وأصبح الأرثوذكس بدورهم يتسلقون سلم النسل لكى يصبحوا تقريبا فى موازاة الموارنة. والمعروف أن للموارنة الغلبة فى السلطة.

وأضاف أمين الحافظ رئيس وزارة لبنان السابق إلى تحليل كمال جنبلاط بعدا تاريخيا، بأن كثيرا من اللبنانيين سواء كانوا مسيحين أو مسلمين يحقدون على الثورة الفلسطينية ضمنا أو علنا لأنها قد تهدد التركيبة الاجتماعية الاقتصادية الموجودة فى لبنان. وعلينا أن نذكر أن جزءا من الثروات فى لبنان فى بداية هذا القرن كانت من أثمان الأراضى التى باعها اللبنانيون لليهود فى فلسطين. وقد تساوى فى هذا المسيحى والمسلم. إذن فهذه المدخرات التى كانت بداية قيام المؤسسات التجارية ونمو قطاع الخدمات والتجارة التى يفخر بها لبنان. وإذا لم يرافق الوضع اللبنانى تنمية شاملة فإن الخوف سوف يبقى والحرب سوف تستمر على الثورة الفلسطينية من كلا الطرفين، المسلم والمسيحى.

ومؤكد أن الوجود الفلسطينى فى لبنان كان عامل تغيير فى مجتمع لا يريد قادته له أن يتغير فهو عنصر دفع لعوامل التحديث فى البنيان اللبنانى. إذ أن فى مجرد وجودها على أرض لبنان حتى دون تدخل منها أو تحرك كان فتحا لمجالات واسعة أمام التنظيمات الجماهيرية للحركة التى أخذت أحيانا أشكال انتفاضات طبقية. وواضح أن الوجود الفلسطينى الثورى هو حماية لنضال الحركة الوطنية اللبنانية مهما بالغت قيادة الثورة فى حيادها من الصراع فى لبنان. وقد كان ذلك سببا لإثارة أصحاب المصلحة فى استمرار الجمود ضد الوجود الفلسطينى على أرض لبنان. فالكتائب على وجه الخصوص ترى أن لبنان فقد توازنه التقليدى لصالح اليسار بسبب الوجود الفلسطينى. ولذلك يتمسكون بالتوازن التقليدى وعندما يعود لبنان إلى هذا التوازن يمكن الوصول إلى حل وسط أو عودة شعار لبنان «لا غالب ولا مغلوب» أى تساهل من هنا وتساهل من هناك وتنتهى المشكلة، ولكن الأزمة

هي أن الطرف الآخر ترك الرأي للمقاومة. وهكذا تصبح المشكلة هي أن وجود المقاومة على أرض لبنان يمنع اتفاق الأطراف اللبنانية على حد تصور الكتائب».

وواضح أن هذا الرأي الكتائبي لايجد القبول من كل أطراف الصراع في لبنان فهناك رأي للاقتصاديين ملخصه هو «أنه لو لم يكن هناك مشكلة فلسطينية ووجود فلسطيني على أرض لبنان، وكانت العوامل والظروف المتراكمة منذ عهد الاستقلال قائمة بدون حلول جذرية حتى لكأن الصدام قد وقع. ليس بالضرورة بين الكتائب وفريق آخر، بل بين فريقين لبنانيين وماكان كل فريق بحاجة إلى التفتيش عن غطاء لصدامهما. ففي لبنان أكثر من غطاء(٨).

والواقع أن المسألة لها بعد آخر غير مسألة التوازن التقليدي وهو بعد اقتصادي لايمكن إغفاله. فلبنان هو في كلمات سوق المال العربي، ورقعة سياحية في قلب العالم العربي «كباريه» في حجم دولة للترفيه عن المنطقة، مركز معلومات وتجسس. هذا اللبنان بهذه المواصفات يتعارض استمرار وجوده بوجود ثورة مسلحة على أرضه لأن مجرد وجودها هي ضد كل مقومات نشاطه في المال والسياحة والترفيه والتجسس. ولعل قليلا من العرب واللبنانين من يعرف أن رشاوي وعمولات سادة لبنان تدفع عادة من حصيلة «كازينو لبنان» الشهير وهو ماسبق شرحه. فهو وزارة المالية الحقيقة في تسيير الأمور. وهي ليست مصادفة أن يكون الكازينو في هذا الموقع بل هو في الواقع تعبير حي عن حقيقة لبنان.. لبنان السلطة ومن الظلم للبنان تصور أن هذه المصلحة في التخلص من المقاومة هي مصلحة لبنانية اقتصادية بحته بل هي أيضا مصلحة عربية أو بمعنى أدق مصلحة لأصحاب رؤوس الأموال العرب في لبنان.

فالغريب أن لبنان «الماروني» الذي يرفض الانتماء إلى العرب يعيش على العرب. فهو يريد أن يقوم بدور «التاجر اليهودي» في قصص شكسبير حيث يستغل دماء المنطقة دون أن ينتمي إليها و يكتفي بأن يقال إن لبنان ذو وجه عربي»

وطبعا له وجوه أخرى متعددة. فالقوى الإنسانية المنتجة فى الاقتصاد اللبنانى هى قوى عاملة عربية أغلبها من الفلسطينيين والسوريين حيث يبلغ عدد العمال السوريين حوالى ربع مليون. ثم إن قسما من اللبنانين يعمل فى العالم العربى وعلى وجه خاص دول البترول وهم أحد موارد ميزانية لبنان، حيث يبلغ عددهم حوالى ١٤٠ ألف لبنانى يمثلون ٢٠٪ من القوى العاملة فى دول البترول(٩).

ونظرة على اقتصاد لبنان توضح أن عائد لبنان من أجور اللبنانيين فى دول البترول حوالى ٢٥٠ مليون دولار. ويدفع العالم العربى وخاصة دول الخليج بما فيها العراق والسعودية حوالى ٤٠٠ مليون دولار أجور شحن ونقل ورسوم ترانزيت. ونجد أن ٨٠٪ من الاستثمارات السنوية فى المشاريع السياحية والعقارات هى أموال عربية من دول البترول. ويضاف إلى ذلك بالنسبة للسوق المالى «المصارف» أن حوالى من ٨٥٪ إلى ٩٠٪ من الودائع ـ غير المقيمين ـ فى مصارف لبنان والتى تبلغ ٥ر١ مليار دولار هى ودائع عربية(١٠). وهناك تقديرات تشير إلى أن معدل النمو اللبنانى وهو ٨٪ كان يمكن أن يهبط إلى النصف لولا الأموال العربية(١١). وهكذا تبدو العلاقات بين موارنة لبنان الذين يسيطرون على اقتصاياته وبين دول البترول العربية وعلى وجه خاص دول الخليج بالمعنى الواسع لها. ونؤكد أن أصحاب هذه الأموال يشتركون فى المصلحة بل وفى الرأى مع أغنياء لبنان ـ الموارنة ـ فى النظرة إلى الإستقرار فى لبنان أو بمعنى آخر لبنان بدون ثورة. بل وإن موارنة لبنان رفعوا أمام هذه الدول العربية شعار أن الخطر على أموالهم يأتى من الشيوعية والحقد. وأن الذين يرفعون شعارات الثورة هم جميعا شيوعيون ينشدون الحقد وفى نفس الوقت يقولون إن الكتائب أقوى من الحقد(١٢)

فإذا أضفنا إلى ذلك التناقض الطبيعى بين الثورة والحكم لاكتملت الصورة. فالواقع أن الثورة الفلسطينية المسلحة رغم أنها لا تعمل إلا من أجل التحرير وبالتالى فالنظرية الاجتماعية تأتى بعد مسألة التحرير رغم ذلك فإن مجرد وجود

ثورة مسلحة هو خطر على كل عوامل الاستقرار للحكومات في المنطقة وخاصة في ظل الأزمة العربية الحالية والثورة بطبيعتها «معدية» وتثير شهية الجماهير في المناطق المحيطة بها. وقد لخص شفيق الحوت هذه المعادلة بقوله «حتى الرئيس حافظ الأسد عندما طرح مشروع الوحدة الفلسطينية السورية اشترط علينا أن لانحول سوريا إلى ثورة. وألا نتحول نحن إلى دولة.» فهناك خلاف في المواقع السياسية والنضالية والنظرية بين الثورة والنظام(١٣).

وهكذا التقت الأبعاد إلى حد يقرب من التطابق بين البعد اللبناني والبعد العربي تجاه الثورة الفلسطينية. وقد كان هناك اتجاهان على صعيد الجبهة اللبنانية لاستغلال هذا التطابق.

اتجاه يدعو إلى ربط المشروع الانعزالي بالوضع العربي انطلاقا من ملاحظته أن عزلة لبنان الكلية عن العالم العربي لن تحميه من الأزمة الوطنية والاجتماعية والسياسية التي عصفت وتعصف به. وأن الانتماء إلى العروبة الرسمية هو خير سبيل لمواجهة هذه الأزمة «والاستقواء» عليها. مما يفرض بالتالي تصحيح المعادلة التاريخية التي حكمت علاقات لبنان بالعالم العربي قبل هذه الحروب وهي «أقصى الانفتاح الاقتصادي على العرب وأقصى العزلة السياسية عنهم» للانتقال من ثم إلى معادلة جديدة قوامها الخروج من العزلة السياسية والانحياز إلى محصلة الوضع العربي الرسمي مع الاعتراف بمركز ممتاز لسوريا في هذا الإطار. وعلى قاعدة هذا التعريب الرسمي يكتسب المشروع الانعزالي آفاقا محددة:

**** تأمين ديمومة الكيان اللبناني وديمومة نظامه السياسي الطائفي شبه الاقطاعي بتوازناته التقليدية من خلال تجديد التسوية المسيحية الإسلامية في ظل الرعاية العربية.**

**** أحكام السيطرة على الوجود الفلسطيني تحت سقف الخطة العربية**

الرسمية حيال القضية الفلسطينية والمسائل المتصلة بالصراع العربى الصهيوني.

** تجميد الصراع اللبنانى الإسرائيلى من خلال إقفال الحدود بقوة ردع عربية فى وجه العمل الفدائى.

والاتجاه الآخر يدعو إلى الإستعانة الظرفية المؤقتة بأدوات القوة العربية من أجل الوصول إلى سلخ لبنان عن العالم العربى فى نهاية المطاف وآفاق المشروع الانعزالى فى هذا الاتجاه أبعد مدى من الاتجاه الأول فهو يسعى إلى :

** تحويل لبنان كيانا ونظاما إلى وطن مارونى غير عربى.
** تبديد حاسم للوجود الفلسطينى فى لبنان.
** إنهاء التناقض اللبنانى الإسرائيلى من أساسه.

وكانت الكتائب فى البداية تمثل الاتجاه الأول بينما الأحرار- شمعون- يمثلون الاتجاه الثانى ولكن الأحداث خلطت المواقع وأصبح هناك فريق يؤيد هذا الإتجاه.. وفريق يؤيد الاتجاه الثانى على صعيد الموازنة بوجه عام. وقد عبر بشير الجميل قائد قوات الانعزاليين عن هذه الاتجاهات بقوله(١٤): إن لبنان يجب أن يكون بلدا لبنانيا دون أن يمتزج بالعالم العربى. فلدينا حضارتنا وثقافتنا وعلاقتنا المميزة مع الغرب. والتحرير الكامل للبنان لايستلزم طرد الفلسطينين من لبنان. وهذا لن يرضى حراس الأرز- لأنه من الصعب إبادة ٤٠٠ ألف فلسطينى أو- الإلقاء بهم فى البحر. ولكن يتعين عليهم اختيار العودة إلى المخيمات و بذلك يصرح لهم بالبقاء فى لبنان.

و بأختصار فإن غياب وجود استراتيجية عربية واحدة جعل المعالجة للموقف معالجات. وأصبح المنظور الذاتى هو الغالب على السياسات العربية ولم تعد هناك

رؤ ية شمولية أو مستقبلية حتى ولو لأثر هذه الصراعات على ماتُز يده العرب سواء كان سلاما بأى ثمن أو حربا لامفر منها.

ونعود مرة أخرى إلى ضرورة وضع القضية فى إطارها الكامل. فليس كافيا النظر إليها من بعد لبنانى ولا الخروج من لبنان إلى بعد عربى أوسع بل يجب أن تستكمل الصورة بالبعد الدولى.

هوامش الفصل الثالث

(١) نص المعاهدة فى الأهرام. القاهرة ٢سبتمبر سنة ١٩٧٥.

(٢) Quandt, Intetnation at Affains. Oxferd. Puly 1977. p 10

(٣) نص وثيقة الوعود الأمريكية لإسرائيل فى ملاحق كتاب حمدى فؤاد «الحرب الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل. بيروت ١٩٧٧ ص ٤٢٧ - ٤٣٠.

(٤) د. محمد ربيع مؤتمر جنيف واحتمالات السلام. مركز الدراسات السياسية. القاهرة ص ٦٦.

(٥) د. محمد ربيع. المركز السابق. ص ٦٨.

(٦) العدد ٤٦ من ١٦/ ٤- ٢٢/ ٤/ ١٩٧٥.

(٧) النشرة الإعلامية الأسبوعية. وزارة الإعلام المصرية. العدد ٤٩.

(٨) ندوة مستقبل العلاقات الفلسطينية اللبنانية شئون فلسطينية. العدد ٤٧ فى يوليو ١٩٧٥.

(٩) الأسواق العربية العدد رقم ٣ فى مايو سنة ١٩٧٥

(١٠) فرحان صالح. الثورة الفلسطينية وتطور المسألة الوطنية فى لبنان بيروت. ١٩٧٥ ص ٥٢.

(١١) مروان اسكندر. الدور الاقتصادى اللبنانى فى العالم العربى. النهار. بيروت فى ٧مايو ١٩٧٥.

(١٢) محمد كشك. الأزمة اللبنانية والوجود الفلسطينى. بيروت ١٩٧٥، ص ٧.

(١٣) إفتتاحية صحفية حزب الكتائب العمل «أقوى من الحقد» فى ٢٤ سبتمبر ١٩٧٤.

(١٤) مجلة شئون فلسطينية- ٤٧.

(١٥) مجلة لونوفيل او بزرفاتير الفرنسية ٦ ديسمبر ١٩٧٦.

الفصل الرابع

البعد الدولى

كانت الطائفية ومازالت- هى سلاح القوى الأجنبية للعبث بمصير هذه المنطقة والسيطرة على ثرواتها وتوجيه اقدارها، وقد أراد فتية حراس الأرز تذكرة العالم العربى بأنهم يمثلون شيئا آخر لاينتمى إلى هذه المنطقة فكانوا يرقصون بجوار أكوام جثث ضحاياهم على أنغام جيتار قديم وعلى صدورهم صلبان خشبية ضخمة رمزا لفرسان الغزوة الأوربية للمنطقة «حرب التجار» والتى عرفت «بالغزوة الصليبية» . وقد التقط التليفزيون الفرنسى لهم فيلما بهذه الصور أثارت الرأى العام الأوربى ضدهم . والمهم أنه رغم مرور السنين وتغير المشاكل، وتبدل القوى، فما زالت الطائفية تمثل عنصر الإغراء للعبث فى المنطقة. ولبنان أكثرها صلاحية حيث هناك من يتصور أنه من سلالة غزاة الحملة الصليبية والتى لم يكن لها علاقة بالمسيحية إلا رمزا.

وكان الإطار العام للمنطقة محوره فى لبنان الصراع اللبنانى والذى يفرض دعاة الجمود ضرورة التغير أو الإنفجار. وفى المنطقة توجه نحو الوصول إلى تسوية سياسية للمشكلة مع إسرائيل. ولايقف عقبة فى سبيل ذلك سوى صلابة الموقف الفلسطينى وحرية الصحافة اللبنانية. وارتبط ذلك بتيارات دولية تسعى إلى ترتيب أوضاع المنطقة حسب مصالحها، وتمثل القوى الفلسطينية حجر الأساس لكل القيادات المتعارضة سواء بالعداء منها والرغبة فى تصفيتها أو بالوقوف معها والإصرار على دعمها.

وكانت الظاهرة الأساسية للعلاقات الدولية بالمنطقة العربية هى تقارب عربى أمريكى وانحسار للوجود السوفيتى فى الدول العربية. وبحكم أنهما الدولتان العملاقتان فى عالم اليوم فإن علاقاتهما بالمنطقة تمثل الخط الأساسى فى إدارة الصراع. ومادون ذلك فهو تفاصيل...... وهناك مايقرب من الإجماع بين المهتمين بشئون المنطقة على أن نقطة البداية للتغير فى المنطقة هى قناعة سائدة بضرورة إعادة ترتيب المنطقة لمرحلة مابعد جمال عبد الناصر على حسب تعبير مجلة الشئون الدولية البريطانية (١). وإعادة الترتيب ليست عملية سهلة خاصة وأنها لا تتناول كراسى ولكنها تمس قوى سياسية. وبالتالى فالأمر لايخلو بل وضرورى يا له من استعمال السكين..!

فالمنطقة تشهد انتهاء موجة انحسار الوجود الأمريكى أو على الأقل أزمة الوجود الأمريكى فى المنطقة والتى بدأت ١٩٥٥ وانتهت مع نهاية سنة ١٩٧٣ لتبدأ موجة انحسار الوجود السوفيتى.

ولعل أكثر مايلفت النظر فى هذه الظاهرة أن التبدل ليس وليد تغير فى جوهر سياسة الدولتين، ولكن وليد تغير فى السياسة العربية تجاه كل منهما. وليس موضوعنا هو تحديد الأسباب أو توزيع المسئوليات بل هو يقف عند حدود توصيف الواقع دون زيادة أو نقصان باعتبار هذا الواقع هو الأرضية التى جرت عليها مأساة لبنان.

وخوفا من الضياع فى العموميات والسقوط ضحية المعلومات غير الموثقة فإننى رأيت دراسة هذا التغير من واقع البيانات الرسمية والمصادر الموثوق فيها .

فنجد أن البيان المشترك الذى صدر عن زيارة نيكسون للقاهرة (٢) . قد رسم حدود التغير. وملاحظة شكلية أعتقد أنها ضرورية قبل عرض ماجاء فى البيان وهى أن زيارة نيكسون لأربعة عواصم عربية وإسرائيل لم يصدر عنها سوى بيانان أحدهما من القاهرة والآخر من إسرائيل ، وبالتالى فاختيار البيان المشترك الصادر عن زيارة القاهرة هو اختيار يفرضه واقع أنه التعبير الوحيد الذى صدر من الجانب العربى عن العلاقات مع الولايات المتحدة . وجاء فى هذا البيان أن العلاقات بين مصر والولايات المتحدة قد تحولت فى العام الماضى- والمقصود فترة الشهرين الأخيرين منذ نهاية حرب أكتوبر- من « التباعد » إلى « علاقة عمل بناءة » وأن الدولتين قد عقدتا العزم على الانطلاق من هذا بالتحرك هذا العام نحو تحقيق علاقة « صداقة وتعاون واسع » . وبذلك تكون العلاقات بين البلدين قد قفزت عبر ثلاثة مراحل خلال ثمانية أشهر فقط « من التباعد- وهو تعبير دبلوماسى عن مرحلة الخصومة والعداء- إلى العمل البناء بعودة العلاقات بين البلدين فى ٧ نوفمبر إلى الصداقة والتعاون . وقد أربكت هذه السرعة فى التغير الدبلوماسية الأمريكية التى لم تستطيع أن تلاحق التغير بمثله . فالسياسة الأمريكية مثل سياسة أى دولة كبرى مسألة استراتيجية يتغير فيها التكتيك ولكنها تبقى فى الجوهر مالم يحدث تغير درامى يفرض إعادة النظر فى الخطوط الاستراتيجية لهذه السياسة .

ونظرة على السياسة الأمريكية فى المنطقة تؤكد أن الخطوط الاستراتيجية بقيت على حالها لدرجة حرص الرئيس الأمريكى نيكسون ووزير خارجيته كيسنجر على أن يسجلا فى البيان المشترك مع مصر وفى مقدمته أن دعم العلاقات بين واشنطن والقاهرة « لن يكون موجها ضد أى دولة بالمنطقة أو شعوبها أو ضد أى دولة أخرى » . وهو نص غريب على بيان يصدر عن مباحثات بين مصر والولايات المتحدة بعد كل مظاهر الترحيب الخيالية التى استقبل بها نيكسون فى القاهرة .

فليس المقصود بالتحذير طبعا أن دعم العلاقات بينها سيكون ضد أى دولة عربية أو شعب عربى . و بالتالى فهو نص أرادت به الولايات المتحدة أن تخاطب به اسرائيل مؤكده لها أن موقعها فى السياسة الأمر يكية فى المنطقة هو الأصل .. ودليل ذلك صفقات السلاح الهائلة فى الكمية والنوع بل والتوقيت الذى تعلن فيه كل صفقة قبل يوم وصول كيسنجر للقاهرة أو بعد ز يارة نيكسون للمنطقة مباشرة .

فنجد أن الولايات المتحدة قدمت لإسرائيل سنة ١٩٧٤ أى العام التالى للحرب أسلحة تصل إلى ٣ر١ ألف مليون دولار وقيل إن ذلك لإقناعها بقبول الإنسحاب . وفى يناير ١٩٧٥ أعلن رسميا عن بيع ٢٠٠ صاروخ لانس لإسرائيل وهو الصاروخ الذى يمكن أن يحمل «رؤوس ذرية» ومداه ٧٠ ميلا . وقد ارتبط ذلك كله بتسريب كميات من اليورانيوم إلى إسرائيل . فقد نشرت صحيفة الواشنطن بوست(٣) أن مصنع للوقود الذرى فى ولاية بنسلفانيا الأمر يكية فقد حوالى ١٢٠ كيلو جراما من اليورانيوم وهو مايكفى لصنع ٢٠ قنبلة ذر ية خلال السنوات الماضية وأن لجنة أمن خاصة كلفت بدراسة الأمر وأن جزءا منها وصل إلى إسرائيل . لست أدرى إن ما كان يمكن تصديق ضياع يوارنيوم وكأننا نتحدث عن ضياع دولار مثلا أو جنيه ... !! والمعروف أن اليوارنيوم يخضع لرقابة دقيقة فى إنتاجه ونقله وتصنيعه .. والمسألة ليست بهذا التسيب .. وكانت مجلة تايم الأمر يكية فى شهر سابق مباشرة(٤) نشرت قصة بوليسية عن ضياع ٢٠٠ طن من اليوارنيوم أثناء شحنهم من زائير إلى دولة أور بية وأن المخابرات الأمر يكية لم تستطع معرفة السارق . وأكدت المجلة أن الكمية لم تسرق ولكن إسرائيل اشترتها عن طر يق حكومة ألمانيا الغر بية وأن موبوتو كان يعرف ذلك وحصل على عمولة ضخمة مقابلها . والمهم فى ذلك كله هو موعد إذاعة هذه الأخبار وعلاقته بالولايات المتحدة .. فحكم موبوتو مرتبط بالولايات المتحدة وشركات اليورانيوم أغلب أسهمها أمر يكية . وإذاعة الخبر فى وقت ترتبط به الولايات المتحدة بتحسين

سياستها تجاه العرب أو على الأقل أن تقف على الحياد بينهم وبين إسرائيل .

والواضح أن السياسة الأمريكية تهدف إلى حسم مسألة توازن القوى في المنطقة لصالح إسرائيل لسنوات طويلة . وفي نفس الوقت تحافظ على ما كسبته من علاقات بالعواصم العربية وأنه يرتبط بذلك بأبعاد السوفيت عن المنطقة . ويكفي تصوير هذه الحقيقة ما جاء في كتاب شيهان ومعروف أن مصدره كان كيسنجر نفسه من أن كيسنجر حين كان ينظر إلى خريطة الشرق الأوسط لم يكن يرى عليها إسرائيل أو مصر وسوريا والأردن بل كان يرى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (٥) . وبالتالي فإن استراتيجية الولايات المتحدة لم تتغير والمعروف أن خطوطها الأساسية هي ضرب الثورة العربية أو على الأقل استيعابها وتفريغها من مضمونها ومحاصرة الوجود السوفيتي والعمل على تصفيته في المنطقة مع ضمان استمرار ارتباط الشرق الأوسط بالولايات المتحدة . بحيث تضمن استمرار الحصول على البترول وحماية وتوسيع دائرة الاستثمارات الأمريكية . وهو ما يستدعي ضرورة دعم وتأييد الحكومات الصديقة والعمل على جذب حكومات أخرى إلى دائرة الصداقة الأمريكية . ويرتبط ذلك كله بشرط بقاء إسرائيل في مكانتها فوق الجميع بالنسبة للسياسة الأمريكية . وقد جاء في دراسة لمجلة أمريكية (٦) أن البعض ينسى أن للولايات المتحدة مصالح في أمن إسرائيل . فإسرائيل طبقا لهذه الدراسة تساعد على دعم المصالح الأمريكية وذلك من خلال :

* إن الوجود الإسرائيلي في المنطقة يساعد على استمرار وجود النظم المؤيدة للغرب في العالم العربي باعتبار أن الصراع في المنطقة يبقى صراعا بين إسرائيل والعرب . وهو ما يطغى على الصراع بين التقدميين والمحافظين . بل إن الصراع مع إسرائيل يتيح للنظم العربية المحافظة التعبير عن هويتها علنا ، وأحيانا بشجاعة بجوار حركة الوحدة العربية دون خوف من الصدام معها . فهناك علاقة تبادلية حين يشتد الصراع مع إسرائيل يخفت الصراع العربي الداخلي والعكس صحيح . كما أن الصراع مع

إسرائيل يخفت الصراع العربى الداخلى والعكس صحيح . كما أن الصراع مع تعتمد ماليا على مساعدات الدول العربية المحافظة.

*إن وجود إسرائيل وعلى هذا المستوى من القدرة العسكرية يدعم من القوة العسكرية للغرب فى الشرق الأوسط خاصة وأن المنطقة قيمة استراتيجية كبيرة فى الصراع العالمى.

*إن اعتماد إسرائيل على الدعم الأمريكى يزيد من حاجة العرب إلى العمل على إرضاء الولايات المتحدة طمعا فى ضغطها على إسرائيل.

وهذه المصلحة الأمريكية هى التى تدعو إلى ضرورة إنقاذ إسرائيل من نفسها ، خاصة وأن الوقت مناسب تماما لذلك. فيجب أن نجعل إسرائيل تفهم أن استمرار الموقف الحالى يعتبر أكثر خطرا من التنازلات اللازمة من أجل السلام(٧) . وهو نفس المعنى الذى أكده قول كيسنجر بأن أكثر ماكان يضايقه هو أن قادة إسرائيل لايفهمون حقيقة تكتيك ودوافع واشنطن التى تبغى حماية إسرائيل حتى من نفسها(٨) .

وكان تكتيك كيسنجر على حد تعبيره فى كتاب شيهان هو عدم معالجة الأزمات وهى باردة بل لابد أن تصل إلى درجة من السخونة فالسخونة تجعل مقومات الموقف لحظتها هى الفيصل وليست العوامل التاريخية والحجج القديمة. فاللحظة الحالية تصبح أهم من كل تراكمات آلاف السنين(٩) .

وكان العامل الآخر غير السخونة اللازمة لتدخل أمريكى هو حقيقة أن أى تسوية نهائية بدون منظمة التحرير لايمكن أن تستقر أو تتحقق . وحتى تقبل المنظمة بالدخول فى المفاوضات فقد كان لابد أن تتعرض لبعض الضربات التى تلقنها ضرورة السباحة مع التيار الذى تتبناه الدول العربية المعتدلة(١٠) . وبعدها يمكن للولايات المتحدة أن تعمل على إحضار إسرائيل إلى مائدة المباحثات وبالتالى يصبح الطريق مفتوحا لإنهاء التناقض العربى الصهيونى . وأكثر مايساعد على الإسراع بإنهاء هذا التناقض هو إبراز التناقض الداخلى العربى إلى السطح فيتصارع

العرب بينهم وبين أنفسهم ويصبح الصدام مع إسرائيل عبثا لا تقوى عليه أى دولة. وينشغل العرب بمناقشة قضية الحدود الآمنة وهى أغرب ماطرح على الساحة. فالحدود أساسا هى الحدود الدولية وليس هناك مايعرف بالحدود الآمنة وليس لها أى أصول تاريخية ولاسوابق قانونية والأخطر أن التعبير من كثرة ترديده يصبح أمرا مقبولا ثم تصبح خطوته التالية هو أن يكون التنازل دائما على حساب الأراضى العربية ولحساب سياسة التوسع الإسرائيلى. وغرابة التعبير تتضح أكثر من دراسة خطوط الحدود الآمنة التى تتصورها إسرائيل لنفسها فتظهر دائما بأنها عبارة عن أفضل المواقع لشن هجوم حرفى على الأراضى العربية.

فالسياسة الأمريكية تبدو من خلال ذلك كله أنها مازالت تهدف إلى السيطرة على مصادر الثروة واحتواء الثورة. وكلاهما ضرورى للآخر. فلايمكن ضمان استمرار السيطرة على الثروة وخاصة الطاقة دون احتواء أو إجهاض كل معالم الثورة فى المنطقة.

والولايات المتحدة تعود هذه المرة ومعها خبرة مرحلة الإنحسار السابقة لوجودها. وهى لا تريد بالتأكيد أن يتكرر لها ماسبق أن حدث. ولذلك فهى مصممة على استخدام كل الأوراق التى فى يدها لضمان استمرار الوجود الأمريكى لمدى طويل فى المنطقة العربية ومن ضمن هذه الأوراق المسألة الطائفية.

وقد يبدو للبعض غريبا أن الولايات المتحدة دون غيرها يمكن أن تلعب بورقة الأديان ولكن الواقع يقول إن نقطة بداية دخول الولايات المتحدة إلى المنطقة العربية فى منتصف القرن الماضى كانت ببعثة تبشيرية اتخذت القدس مقرا لها انتقلت إلى بيروت. ومن ثمار هذه البعثة الموجودة حتى الآن الجامعة الأمريكية وبالتالى فالطائفية ليست بعيدة عن الاهتمام الأمريكى القديم والحديث. ولاهى غريبة عنها(١١)، وبذلك تحدد معالم الطرق التى تسلكها السياسة الأمريكية فى المنطقة:

وقد كان واضحا أن إيقاع العمل الأمريكي لترتيب أوضاع المنطقة من جديد دون المساس بجوهر السياسة الأمريكية هو إيقاع سريع بل يكاد يسابق الزمن. ويتميز بأنه يسير في خطين متوازيين(١٢) الأول هو تسوية الصراع العربي الأمريكي والآخر تسوية الصراع العربي الإسرائيلي. وتقوم الدبلوماسية الأمريكية بالربط بينهما. فبقدر مايتحقق على طريق التسوية الأولى من تقدم، يتحقق تقدم آخر على طريق التسوية الثانية وإن كان ليس بالضرورة أن يكون بنفس الحجم وبمعنى آخر فقابل خطوات على طريق التراجع السياسي والاجتماعي على طريق منجزات الثورة العربية خطوة على طريق التراجع العسكري الإسرائيلي عن الأراضي العربية والتي أطلق عليها البعض «قطعة من السلام مقابل قطعة من الأرض». والأصل في وجهة نظر واشنطن هي التسوية الأمريكية العربية أما التسوية الثانية فهي جزء من الأصل.

وقد قامت الولايات المتحدة على ضوء ذلك بإعادة صياغة أسلوب عملها في المنطقة بهدف ضبط عوامل التفجير في الموقف مع تطوير واحتواء الموقف العربي. وفي هذا الإطار تم تغيير سفراء الولايات المتحدة في المنطقة ففي سنة ١٩٧٣ تغير معظم السفراء في المنطقة إلى جانب إعادة فتح السفارات المغلقة. وكانت أبرز السمات الغالبة على اختيار السفراء الجدد صفتين: الأولى أنهم شخصيات بارزة من قيادة جهاز المخابرات الأمريكية والثانية هي أنهم خبراء في السياسة السعودية أو الخليج بوجه عام. ومثال للفريق الأول ريتشارد هيلمز مدير المخابرات المركزية السابق والسفير في إيران حتى سنة ١٩٧٦ . وهو أحد كبار الخبراء في الانقلابات وأشهر إنجازاته انقلاب شيلي وجورج جودلي احد مؤسسي جهاز المخابرات الأمريكية والسفير في لبنان وهو أحد الخبراء في الأزمات الطائفية ومن أشهر إنجازاته محاولة انفصال كاتانجا عن الكونجو وانقلاب لاوس وكمبوديا. والمثال للنوع الثاني من السفراء ريتشارد مورفي السفير في سوريا والذى عمل لسنوات طويلة في السعودية ويعد أحد المتخصصين في سياسة شبه الجزيرة العربية

وهيرمان ايلتز السفير بالقاهرة والذى نقل من السعودية مباشرة للقاهرة وله أيضاً خبرة وتاريخ فى المنطقة .

وقد قام هذا الجهاز الدبلوماسى بالعمل كفريق عمل واحد لوضع السياسة الأمريكية على الواقع العربى . وكانت بداية تحركهم مؤتمر عقد بدعوة من السفير الأمريكى فى إيران ـ هيلمز مدير المخابرات السابق ـ وحضره كل سفراء الولايات المتحدة فى المنطقة ومساعديهم وعقد المؤتمر فى طهران فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٧٣ . وقد ذكرت وكالة رويتر فى خبر نشرته جريدة الأهرام أن المؤتمر حضره حوالى ٣٠ دبلوماسيا أمريكيا وحضر افتتاحه جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط . وأن جدول أعمال المؤتمر شمل الموضوعات التالية : مشاكل المصالح الأمريكية فى المنطقة ، النزاع العربى الإسرائيلى ، عمليات المقاومة الفلسطينية ، السياسة السوفيتية فى الخليج العربى . وإذا كانت قرارات المؤتمر سرية بالطبع فإن جدول الأعمال يكفى وحده للاستدلال على خطورة المؤتمر وقراراته ودراسة الأحداث التى تلت المؤتمر يمكن أن تكون مؤشرا لما انتهى إليه هذا المؤتمر من قرارات .

وكان أول إنجاز بعد المؤتمر هو انقلاب قبرص فى منتصف يونيو ١٩٧٤ والانقلاب يهدف العرب قبل أن تكون قبرص بذاتها هى الهدف . وقد عايشت أحداثه من خلال أنقره ثم أثينا فور غزو الجزيرة وذلك بحكم عملى الصحفى وكانت الصورة كما رأيتها يومها هى أنه انقلاب يفتح الباب للصدام الطائفى فى المنطقة بين المسلمين والمسيحين و بالتالى فهو « بروفه » يمكن التوسع فيها خاصة وأن عناصر الحركة فى الانقلاب محكومة بعلاقات وثيقة بالولايات المتحدة وأعنى تركيا واليونان .

وهو انقلاب لتقسيم ثالث جزر البحر الأبيض بعد سيسل وسردينيا وأكثرهم أهمية استراتيجية فى الصراع العربى الاسرائيلى . و يكفى أن قفل مجالها الجوى

بسبب الانقلاب قد شل حركة الاتصال بين الدول العربية وخاصة دول المواجهة، كما أنها تبعد ٦٠ميلا فقط عن الشاطىء السورى تزيد إلى ١٤٠ميلا بالنسبة لشاطىء لبنان ثم ١٦٠ ميلا بالنسبة لإسرائيل. وتبعد ٢٤٠ ميلا عن مدخل قناة السويس عند بورسعيد. وطبقا للخريطة الاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة فى البحر الأبيض نجد أن هناك قاعدة أمريكية فى « روتا » بأسبانيا وأخرى فى سيجونيلا فى سيسل. وقد ظهر من العمليات العسكرية خلال حرب أكتوبر أن هذه القواعد بعيدة إلى حد ما عن التأثير فى أرض المعركة بالسرعة اللازمة والفاعلية المطلوبة.. إذ كان مستحيلا ومكاريوس رئيس لقبرص استخدام القاعدة البريطانية فى قبرص التى كان يجرى تصفيتها كنقطة تموين فى عملية الجسر الجوى الأمريكى لإمداد إسرائيل بالسلاح ولم تجد الحكومة الأمريكية سوى ميناء سودا بجزيرة كريت. وقد كان السماح باستخدامه هو السبب الرئيسى وراء الدعم الأمريكى للحكم العسكرى ـ فى ذلك الوقت ـ باليونان رغم احتجاجات حلفاء أمريكا فى حلف الأطلنطى على ذلك ولم يكن أمام الولايات المتحدة سوى تجاهل هذه الاحتجاجات حيث لم يكن هناك موقع آخر مناسب يمكن منه تسهيل عملية الجسر الجوى لإمداد إسرائيل بالعتاد السريع والمستمر. فل يكن من موقع آخر سوى مالطة وقبرص. ومالطة يحكمها اتفاق يمنع الاتحاد السوفيتى من الحصول على تسهيلات بحرية فى الجزيرة مقابل الا تستخدم الحكومة الأمريكية قواعد الجزيرة البحرية أو الجوية وبالفعل فإن الولايات المتحدة ركزت سفن أسطولها السادس جنوب جزيرة كريت لمواجهة الغواصات السوفيتية على وجه خاص والوجود السوفيتى فى البحر الأبيض على وجه عام ولولا سماح اليونان للأسطول السادس باستخدام ميناء سودا بكريت لما أمكن للولايات المتحدة الاحتفاظ فى ذلك الوقت بصفة دائمة بحاملتين للطائرات فى البحر الأبيض، إذ لابد لها من ميناء قريب لتقديم التسهيلات للسفن الحربية. وكانت

الحكومة الأمريكية تطمع فى استخدام قبرص حيث إن موقعها لمركز الأحداث فى الشرق الأوسط أقرب كما أن ظروفها أكثر ملاءمة حيث يحكمها صراع طائفى بين المسلمين الأتراك والمسيحين اليونانيين . وتركيا واليونان أعضاء فى الأحلاف العسكرية الأمريكية .

وكأن الولايات المتحدة قد تعهدت فى البيان المشترك الذى صدر عقب زيارة الرئيس الأمريكى نيكسون لإسرائيل بأن الحكومة الأمريكية سوف تقدم المساعدات والدعم العسكرى لإسرائيل « وفق خطة مرسومة للمدى الطويل » .. وهو ماتأكد فى وثيقة الوعود الأمريكية لإسرائيل المرتبطة باتفاق سيناء . وصحيح أن الحكومات الأمريكية المتعاقبة قدمت لإسرائيل كل ماأرادته بل وأكثر مما طلبت إلا أن الأمر الجديد فى حكومة نيكسون- كيسنجر هو أن الدعم سوف يتم وفق خطة للمدى الطويل أى أن الحكومة الأمريكية لابد أن تضمن طرق إمداد ودعم إسرائيل لسنوات طويلة بحيث تكون الطرق مفتوحه بأمان واستمرار . وفشل الانقلاب فى قبرص فى تصفية مكاريوس جسديا . ولذلك ظهرت البدائل فى الخطة فقام سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكية بالسفر إلى لندن فانقره وأثينا ذلك لمنع عودة مكاريوس وتقسيم الجزيرة بين تركيا واليونان وبعد ساعات من مغادرة سيسكو لأنقره تحرك الجيش التركى لغزو قبرص .. وكان التصور هو إعطاء الغزو التركى صفة التمرد على الولايات المتحدة وذلك فى ضوء الخلافات المصطنعة بين البلدين وادعاء أن الغزو التركى يهدف إلى إعادة الأوضاع الشرعية إلى الجزيرة . ولم يكن طرح هذا التصور من باب الإدعاء ولكنه كان يهدف إلى منع أى مقاومة للغزو التركى وخداع أنصار مكاريوس . وكان المتفق عليه بين تركيا وسيكو أن تحتل تركيا المناطق الإسلامية فقط فى الجزيرة حتى الخط الأخضر دون تجاوز ذلك بأى شكل من الأشكال وفى نفس الوقت اتفق سيسكو فى أثينا على نقطتين : الأولى خاصة بأسلوب معالجة اليونان للغزو التركى ، فكان عليها قبول الغزو

والتصرف على أساس رفض ذلك حتى ولو بتحريك قواتها على حدود تركيا وأنها سوف تقوم بغزو تركيا ، ولكن الغباء التركي أفسد الأمر حيث لم تحرك أى قوات لمواجهة الحشد اليوناني وبالتالى فضحت عدم جديته . وكانت النقطة الثانية فى اتفاق سيسكو بأثينا هى تغيير الحكم العسكرى وقام سيسكو بنفسه باختيار كونستانتين كارمانيليس الذى كان فى باريس ليقود اليونان من جديد . وكان الحكم العسكرى فى أثينا مصدر خلاف مستمر بين أمريكا وأوربا الغربية التى ترفض الديكتاتورية ثورية العسكرية لأسلوب للحكم . وهكذا تحقق للسياسة الأمريكية هدفان ضمن إطار تسوية الصراع العربى الأمريكى الإسرائيلى بأن حصلت على قبرص المقسمة بين حليفتيها ثم فتحت الطريق فى المنطقة للصراعات الطائفية .

وقد ارتبط التحرك الأمريكي فى المنطقة سواء كان التقارب مع العرب أو إعادة ترتيب المنطقة بانحسار الوجود السوفيتي فى المنطقة . والمعروف أنه كان فى مواجهة الوجود الأمريكي بالمنطقة المصالح السوفيتية والتى تتلخص(١٣) فى دعم حركة التحرر الوطنى العربية وزيادة قوتها ومساعدتها على الصمود أمام الغزو الأمريكي . وتحرير الثروات العربية من قبضة الاحتكارات الرأسمالية العالمية . وتحرير الأرض العربية من كل أشكال السيطرة . لأن نجاح حركة التحرر الوطنى العربية فى تحقيق هذه الأهداف سيكون بالضرورة على حساب مصالح الولايات المتحدة ومواقفها فى الشرق الأوسط وسيؤدى بالتالى إلى إضعاف القوة الأمريكية بشكل عام وفى الشرق الأوسط على وجه التحديد . و ينطلق السوفيت فى تحديد مصالحهم بالمنطقة من منطلق أن كل خسارة تتعرض لها الولايات المتحدة ، وكل تقلص لنفوذها يشكل كسبا غير مباشر لموسكو ، و يؤثر على موازين القوى السوفيتية . الأمريكية لاعن طريق الحصول على مكاسب تضاف إلى كفة السوفيت بل عن طريق اقتطاع جزء من وزن القوة الاقتصادية والعسكرية الموجودة فى الكفة الأمريكية وانتقال هذا الجزء إلى أصحابه الشرعيين . وكلما تزايد وزن الأجزاء

المقتطعة من القوة الأمريكية والمعادة إلى أصحابها العرب كلما زاد اختلال موازين القوى بين العملاقين لصالح موسكو.

وهكذا كان الإستقطاب ضرورة فرضتها طبيعة الصراع فى المنطقة. ويترتب على ذلك أنه فى حالة أى توجه نحو الولايات المتحدة فهو إنهاء للإستقطاب المزدوج واتجاه نحو استقطاب من جانب واحد وهو مايفقد أطراف الصراع المحليين القدرة على المناورة والضغط.

وكانت سنة ١٩٧٢ نقطة بداية انحسار الوجود السوفيتى فى المنطقة حين أنهت مصر مهمة الخبراء السوفيت- ٨يوليو- وترحيلهم، وقبلها وقع الصدام مع السودان بسبب محاولة الانقلاب- يوليو ١٩٧١- وتعرضت سوريا لضغوط هائلة لاتخاذ نفس الخطوة ووصل إلى حد- حسب وصف مجلة الشئون الدولية البريطانية- إلى أن قامت الصحف فى مصر ولبنان وسوريا تثير الشك فى نوايا الاتحاد السوفيتى لمساعدة أصدقائه فى العالم العربى لمواجهة العدوان الإسرائيلى وبدأت حملة إشاعات منظمة من خلال أجهزة الإعلام تبعثر معلومات عن أن سوريا فرضت قيودا على المستشارين السوفيت وأن سوريا على وشك طردهم.. وأن هنالك اتفاقا سعوديا أمريكيا على أن تقوم السعودية بطرد السوفيت من الدول العربية على أن تقوم الولايات المتحدة فى المقابل بإخراج إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة. وفى هذا الإطار فإن السعودية عرضت مساعدات مالية هائلة على الأسد اذا قام بطرد الخبراء السوفيت من سوريا. والملاحظ أن الإتحاد السوفيتى مقتنع أن وراء هذه الحملة تقف الولايات المتحدة(١٤).

وما أعرفه من المصادر اللبنانية أن اليسار اللبنانى والشيوعيين اللبنانيين على وجه خاص لعبوا دورا حقيقيا فى منع سوريا من اتخاذ قرار بهذا الشكل وكانت وسيلتهم الوحيدة فى مواجهة إغراء المال هى الإقناع ومنطق محوره هو المصالح الذاتية لسوريا نفسها. وأمكن إقناعها بخطأ هذه الخطوة. وهو مالم تغفره الدول العربية

التى كانت تضغط على سوريا لطرد السوفيت منها. وقد حاسبت هذه الدول اليسار اللبنانى على ذلك فى سلوكها خلال أحداث الأزمة اللبنانية.

والعراق كانت تخضع لعملية استقطاب إلى الخليج عن طريق حل مشاكلها مع الأكراد وتسوية مشكلة الحدود مع إيران وعمل خط أنابيب لنقل البترول العراقى عن طريق تركيا. صحيح أن العراق لم تقطع الخيوط مع السوفيت ولكنها على الأقل أدخلت العلاقات معهم فى ثلاجة.

وكان انحسار الوجود السوفيتى بدون مقابل إلى درجة أن كيسنجر تعجب حسب رواية شيهان فى كتابه لأن مصر لم تطالب بشىء مقابل تحقيق خطوة كان يتمناها كيسنجر وهى طرد الخبراء السوفيت(١٥).

وليس معنى ذلك أن الإتحاد السوفيتى قد خرج تماما من المنطقة، وإلا كانت المبالغة غير عملية ولا علمية. إذ لابد أن نتذكر أنه فى النهاية إحدى الدولتين العملاقتين وتواجده ليس بالضرورة من خلال علاقات طيبة له بالعواصم العربية بل هو موجود بحكم دوره وثقله فى الصراع العالمى.

وموقف الاتحاد السوفيتى من أزمة الشرق الأوسط هو(١٦) العمل على تجميد التناقض العربى الصهيونى مرحليا على قاعدة استعادة نوع من التوازن بين العرب وإسرائيل بعكس المشروع الأمريكى الذى يريد إنهاء التناقض على قاعدة من تفوق إسرائيل على المنطقة. والأساس الذى يرتكز إليه الموقف السوفيتى هو تصور نوع من التوازن يقوم على ترجمة دقيقة للتوازن الدولى العام بين المعسكرين منقولا إلى منطقة الشرق الأوسط.

ويلتزم الاتحاد السوفيتى فى تصوره للتسوية بالتزامين أساسين هما الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية المحتلة سنة ١٩٦٧. وتمكين الشعب الفلسطينى من إقامة دولته الوطنية المستقله. وهما بالضبط المطلبان اللذان يؤدى تحقيقهما معا إلى تجميد مرحلى للتناقض العربى الصهيونى.

أما مسألة ضمانات الأمن فإن الاتحاد السوفيتي يرى الالتزام بمبدأ الضمانات الأفقية المتبادلة والمتكافئة . فإذا كانت هذه الضمانات ستتخذ طابع الالتزام الدولى فإن على مجلس الأمن والدولتين العملاقتين ضمان أمن كل من العرب وإسرائيل معا على السواء و بصورة متوازنة . وإذا كانت هذه الضمانات ستتخذ شكل إجراءات محلية على الأرض وعلى امتداد الحدود العربية الإسرائيلية فإن التصور السوفيتى يتمسك بمبدأ التكافؤ كما يقول تقرير اللجنة المركزية لمنظمة العمل الشيوعى اللبنانى . فكل منطقة منزوعة السلاح . من هنا يجب أن تقابلها و بالمدى نفسه منزوعة السلاح من هناك . وكل وجود لقوات دولية على هذا الجانب من الحدود يجب أن يقابله وجود مماثل على الجانب الآخر.

وآخر نقاط التطور السوفيتى كما جاء فى التقرير هى المسألة الإجرائية المتعلقة باشتراط حضور الفلسطينين كطرف مستقل كامل الحقوق فى مؤتمر جنيف أو أى مفاوضات أخرى الأزمة . وهو حضور ينطوى مسبقا على تكريس حق الفلسطينين فى تقرير مصير أرضهم المحتلة وتقرير مصيرهم كشعب عليها . وتكريس شرعية مطلبهم فى إقامة دولتهم المستقلة فوق أى جزء من فلسطين تتم استعادته وهو طبعا مايتعارض تماما مع الموقف الأمريكى ومعه الموقف الإسرائيلى .

ويقول التقرير إن مشروع التسوية السوفيتى صحيح أنه لايطابق فى النهاية مع المشروع الوطنى الفلسطينى والقومى العربى تجاه القضية الفلسطينية وهو الذى لايرى من حل تاريخى أخير للتناقض العربى الصهيونية سوى تحرير كامل للأرض الفلسطينية وإقامة الدولة الديمقراطية العلمانية فوقها .

وصحيح أيضا أن مشروع التسوية السوفيتى كمشروع مرحلى لحل أزمة الشرق الأوسط يختلف فى بعض اتجاهاته عن البرنامج الوطنى المرحلى لمنظمة

التحرير الذى يشكل العمود الفقرى للبرنامج المرحلى العام لحركة التحرر الوطنى العربية تجاه الصراع العربى الصهيونى فى هذه المرحلة .

وإذا كان ذلك كله صحيحا فالصحيح أيضا أن التناقض الرئيسى يبقى مع المشروع الأمريكى بينما الخلاف مع المشروع السوفيتى سوف لاينتج عنه أكثر من نوع من التعارض المحدود بين الموقف العربى والموقف السوفيتى . فهو ينطلق من الالتزام بأهم مطالب الحركة الوطنية وهو إذ ينتهى إلى القول بتجميد التناقض العربى الصهيونى مرحليا يبقى فى يد الشعوب العربية العوامل التى تتيح لها إمكان تجديد المواجهة .

ويصل التقرير إلى أن المعضلة الحقيقية التى تواجه حركة التحرير الوطنى العربية انطلاقا من مشروع التسوية السوفيتى ليست معضلة التعارض .. المحدود القائم بين برنامجها حيال قضية فلسطين والصراع العربى الصهيونى فى أفقه التاريخى والمرحلى وبين بعض بنود المشروع السوفيتى ، بل المعضلة الحقيقية تكمن فى أن مشروع التسوية السوفيتى لاتتوافر له الآن القوى اللازمه لجعله مشروعا راهنا وقابلا للتنفيذ بالفعل فى إطار ميزان القوى الحالى بالمنطقة .

ويبدو لذلك المشروع السوفيتى أنه اقرب إلى صيغة المشروع المبدئى الذى يعكس حرص الاتحاد السوفيتى على ترجيح المصالح الوطنية والقومية للشعوب العربية منه إلى صيغة المشروع الفعلى الذى يملك حظا راهنا من النجاح فى مرحلة انحسار الوجود السوفيتى فى المنطقة والتقارب فى مقابلها مع الولايات المتحدة .

إن العلاقة بين العملاقين فى ظل الوفاق الدولى ليست علاقة أخلاقية تنهض على الإنسجام والاتفاق والخطط المشتركة دائما ولاهى علاقة يحكمها منطق الصفقة المقررة النتائج سلفا ، بل هى فى الأساس علاقة صراع يحاول كل من الطرفين تعديل موازينها لصالحه على الدوام . وفى ظلها نشبت معارك وحروب محلية فى أكثر من منطقة من العالم . وفى هذه المعارك يحاول كل معسكر إصابة المعسكر الآخر

بالهزيمة وتحقيق أكبر امن الانتصارات ليتاح له التأثير فى التوازن الدولى وفى مضمون سياسة الوفاق. وبالتالى فالحاق الهزيمة بالولايات المتحدة فى جنوب شرق آسيا لم يكن أمرا ضد سياسة الوفاق، كما أن إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط ليس مجافيا فى حد ذاته لسياسة الوفاق.. فنتائج سياسة الوفاق الدولى بالنسبة لأى منطقة فى العالم تقررها قبل كل شيء حركة الصراع الداخلى وموازينها فى هذه المنطقة فلايكفى استعداد كل من العملاقين لتقديم الدعم إلى القوى الحليفة له منطقة الصراع حتى يترتب على ذلك تلقائيا توازن معين بينهما فى هذه المنطقة يراعى فيه الوزن الفعلى لكل منها، بل إن استعداد القوى الداخلية لتلقى الدعم وتوظيفه وقابليتها للإستفادة منه وضغطها من أجل زيادته هو العنصر المقرر أخيرا لوزن هذا العملاق أو ذاك فى الصراع القائم فى هذه المنطقة أو تلك.

وباختصار فإن الاتحاد السوفيتى لن يشكل مانعا للخطة الأمريكية فى المنطقة العربية إلا بقدر ماتسمح له موازين حركة الصراع الداخلى فى المنطقة بان يلقى بثقله ويمارس تأثيراته.

وهكذا كانت خريطة المنطقة مع بداية المذبحة هى تقارب أمريكى عربى وقدرة كبيرة على العمل والتأثير وإعادة ترتيب الأوضاع وإنحسار للوجود السوفيتى وعدم قدرة على التأثير الفعال فى مجرى الأحداث.

وكانت حملات الاعلام مركزة على أن أحد النقاط الباقية مفتوحة مع الاتحاد السوفيتى هى العلاقات الفلسطينية السوفيتية، وهو بدوره ماجعل منظمة التحرير عبئا آخر كان لابد أن تحاسب عليه من تيار التقارب الأمريكى فهى ليست فقط تقف عقبة فى سبيل عقد مؤتمر جنيف والوصول إلى التسوية بل ومازالت تترك القنوات بينها وبين الاتحاد السوفيتى مفتوحة على عكس التوجه العام للمنطقة. وبالتالى فهى متهمة بأنها تسير فى خط الاتحاد السوفيتى أى ضد التيار كما جاء فى مقال جورج بول الذى سبق الإشارة إليه.

وإنصافا فإن علاقة المقاومة بالاتحاد السوفيتي علاقة استراتيجية لايمكن مطالبتها بالتخلي عنها مقابل أوهام يعرضها عليها الآخرون وخاصة بعد أن أصبح للمنظمة تمثيل رسمي في الاتحاد السوفيتي منذ يونيو سنة ١٩٧٤ .

هوامش الفصل الرابع

(١) Quandt, International at Affairs. Oxferd Puly 1977. p 10

(٢) صدر في ١٤ يونيو ١٩٧٤ ونشر بالصحف المصرية في اليوم التالي .

(٣) Washington Post. 25 june 1977

(٤) Time. 23 May 1977

(٥) Shehan. F. The Arabs. Jstaelis and Kissinger. NEW Yark 1976. p 18

(٦) Kampf. H. Israel's Security Midstweam. New York july 1977

(٧) Pall.g. How to save Israel. Foreign Affairs: April 1977

(٨) Shehan. E. Step. by. Step Paicy. Foreign Palicy. March 1977

(٩) شيهان صـ ٤٠ المرجع السابق .

(١٠) تقريرا لإستراتيجية الأمريكية نشر في ١٤ حلقة بجريدة السياسة الكويتية ابتداء من ١٧ أغسطس سنة ١٩٧٧ .

(١١) فزوجة المستشار بالسفارة الأمريكية بالقاهرة حاليا على سبيل المثال تقوم بدارسة عينة من ١٠٠ أسرة في حي بولاق لتوضيح الفوارق بين المسلمين والمسيحيين !!

(١٢) مجلة شئون فلسطينية . بيروت العدد ٥١ . نوفمبر ١٩٧٥ .

(١٣) سلمى حداد ـ الإستقطاب الدولي والصراع في المنطقة شئون فلسطينية رقم ٥٥ في مارس ١٩٧٦ .

(١٤) Quandt. Souiet Policy in Octobre War. International Affairs. Oxfaid. Puly 1977.

(١٥) شيهان المرجع السابق . صـ٢٢ .

(١٦) تقرير اللجنة المركزية لمنظمة العمل الشيوعي بلبنان . ابريل ١٩٧٧ . صـ٣٣-٣٨ .

الفصل الخامس

الرحلة مع الموت

كانت إشارة البداية لسباق اللبنانيين مع الموت هى إطلاق الرصاص على النائب السابق معروف سعد فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٥ والذى استشهد فى ٦ مارس متأثرا بجراحة وقد يبدو غريبا لغير اللبنانى أن يكون اغتيال شخص بداية مذبحة تستمر ١٩ شهرا و يسقط فيها مايزيد عن الخمسين ألف قتيل ولكن الذين يعرفون لبنان جيدا بكل تركيباته وعقده يعرفون رد الفعل على أى حادث بل ويمكنهم قياسه بالتقريب . ولعل العرب لايعرفون أو اختفت من ذاكرتهم أن مأساة سنة ١٩٥٨ والتى انتهت بدخول الأسطول السادس بجوار كميل شمعون بدأت باغتيال الصحفى نسيب المتنى .

والمهم أن عناصر الحادثتين واحدة .. اغتيال شخص له دور .. وجود كميل شمعون .. العمل على رفع شعار الطائفيه . وقد ذكر ريمون إده زعيم حزب الكتلة

الوطنية فى رسالة له ردا على كميل شمعون جاء فيها « كان يجب عليكم أن تذكروا بين ماذكرتم أن اغتيال معروف سعد النائب السابق فى ٢٦ فبراير فيما كان على رأس مظاهرة صيادى الأسماك للاحتجاج على شركة « بروتيين » التى كنت ترأسها وهو الإغتيال الذى أطلق مصادمات سنة ١٩٧٥ والذى يذكر باغتيال الصحفى نسيب المتنى الذى كان إشارة اندلاع أحداث سنة ١٩٥٨ فيما كنتم أنتم رئيسا للجمهورية » (١) والواقع أن الحادث يجسد كل عناصر الدراما .

فقد تشكلت شركة « بروتيين » للصيد من رأسماليين لبنانيين ومن رأسمال عربى من إحدى دول الخليج العربى وقروض من إيران الشاه ، وتعاون تكنولوجى من شركات أجنبية وعلى وجه خاص بلجيكية . وقد اختار أصحاب رأس المال كميل شمعون رئيسا للشركة ومن خلاله حصلت الشركة على امتياز باحتكار الصيد على شواطىء لبنان وذلك من حكومة صائب سلام ممثل إحدى دول البترول العربية الكبرى فى الحكم اللبنانى وكان وقتها حليف كميل شمعون . وواضح أنها تحالفات لاعلاقة لها بدين أوطائفة . وقد شعر الصيادون فى لبنان بخطر هذه الشركة عليهم فقامت مظاهراتهم على طول الساحل . وكان معروف سعد يقود مظاهرة صيادى صيدا . وذكر بلاغ رسمى للناطق العسكرى أن المظاهرة غير مرخص لها وقامت بقطع طريق صيدا- بيروت . وقد توجهت قوة من الجيش بناء على تكليف رسمى- بأمر رشيد الصلح رئيس الوزراء بناء على طلب رئيس الأركان- وحدث صدام أصيب فيه معروف سعد وأحد الجنود . وظهر مسلحون بعضهم مزود بقذائف آر. بى . جى ملثمين بكوفيات مزركشة على سطوح المنازل وأطلقوا النار على القوة .

وقد قامت المظاهرات فى كل لبنان احتجاجا على الاعتداء على معروف سعد واجتمع مجلس الوزراء بعد يومين وقرر وقف محافظ الجنوب هنرى لحود وبحث

مسألة إلغاء ترخيص شركة الصيد . وقد نسف مقر الشركة فى بيروت فى نفس اليوم . وفى اليوم الرابع اتصل رئيس الأركان برئيس الوزراء فى منتصف الليل وطلب منه الموافقة على سحب الجيش من صيدا وإحلال قوات الأمن مكانه لأنه لايستطيع الصمود فى مواجهة الجماهير. والمنطق غريب فإذا كان الجيش لايستطيع بمدرعاته فهل تستطيع قوات الأمن ببنادقها ، ولماذا نزل الجيش أصلا بدون دراسة لقدرته على التأثير. وقال المتحدث باسم القوات المسلحة إن معروف سعد قتل برصاصة لا تستعملها القوات اللبنانية . وقد كلف أحد رجال النيابة بالتحقيق واستخرجت الرصاصة من جسد معروف سعد وطلب المحقق السفر إلى عاصمة أوربية لعمل التحليل عليها وذلك لعدم الثقة فى معامل الجيش . وقد أثبت التحليل العلمى فى باريس أن الرصاصة لسلاح يستعمله رجال الجيش اللبنانى وبالتحريات أمكن الوصول إلى اسم الجندى القاتل وضابط المخابرات الذى أعطاه الأمر ولكن الجيش رفض تسليم الجندى لمحاكمته . وفى نفس الوقت قامت مظاهرة فى صور من طلبة المدارس العسكرية بملابس مدنية وهى تهتف « لانريد فلسطينين ولانريد مسلمين » . وفى بيروت قامت أحزاب الكتائب والأحرار والكتلة ، أى أحزاب الموارنة بتنظيم مظاهرة طلابية لتأييد الجيش . ومظاهرة أخرى سارت فى زحلة من الطلبة أيضا لتأييد الجيش . مظاهرات فى طرابلس وصيدا والبقاع وبيروت تهاجم الجيش . وريمون إده يقول « إن هناك يدا تحرك جميع الفئات كى تنقسم على بعضها » وكمال جنبلاط يذيع بيانا (٢) باسم الأحزاب والقوى الوطنية يحدد فيه أهداف اغتيال معروف سعد وهى إرهاب الحركة الشعبية . وإرهاب الحركة الوطنية التى تقف مع المقاومة . التحضير لفتنة طائفية . جر المقاومة إلى صراع داخلى لبنانى . والبطريرك خريش بطريرك الموارنة أعلن بيانا ذكر فيه أن الكادحون يشعرون بوطأة الأحداث اقتصاديا ويطالب الشعب بالوقوف معا ، ورفض النعرات الطائفية . والرابطة المارونية تصدر بيانا فى نفس

اليوم تدعو فيه إلى تجنب الخوض فى المسائل التى تثير النعرات الطائفية وفى ٧ ابريل أصدر مجلس الوزراء قرارا بسحب مرسوم امتياز شركة بروتيين والبحث فى إنشاء « تعاونية » للصيادين .

هذه هى أحداث صيدا . وقد ذكرت كثيرا من تفاصيلها لأنها كما قلت تجسد كل دراما المأساة فى سباق اللبنانين مع الموت فهى تجمع بين الرأسمالية اللبنانية مع الرأسمالية العربية مع النفوذ الأوربى مع إيران الشاه ثم هى أشركت الجيش فى دور يعد له وانقسم اللبنانيين بين مؤيد ومعارض له . وقد بلغت الأزمة إلى درجة تحليل رصاصة فى باريس لعدم الثقة فى أجهزة الدولة . ثم يرفض الجيش تسليم قاتل إلى العدالة و يتراجع مجلس الوزراء عن امتياز احتكارى منحه من قبل . وكان واضحا من أهمية حادث الاغتيال وسط الحادث الأكبر وهو الصراع الطبقى أنه قد جرت قبله بأيام فى صور محاولة اغتيال شقيق النائب اليمينى كاظم الخليل ولكن المحاولة فشلت . وكان المقصود قتل واحد من اليمين وآخر من اليسار . ومعروف سعد يرتبط بجنبلاط . والذى يستدعى الاهتمام أن محافظ صيدا وضابطا فى مخابراتها هما من أنصار كميل شمعون رئيس شركة الصيد الاحتكارية .

وإذا كانت أحداث صيدا قد عبرت عن الوجه اللبنانى للصراع بمعنى أنها عبرت عن إحدى ظواهر الصراع الوطنى والطبقى فى لبنان فإن حادث عين الرمانة فى ١٣ ابريل هو الذى أريد به تغيير وجه الأحداث وطرح الصدام المارونى الفلسطينى على السطح . وإخفاء الصراع اللبنانى الطبقى فى القاع . واستكمال عناصر سباق الموت . فى هذا اليوم هاجمت جماعة من الكتائب سيارة « أتوبيس » تقل عددا من سكان مخيم تل الزعتر بعد انتهاء احتفالهم بذكرى مذبحة ديرياسين الذى ذبحت فيها عصابات بيجين الصهيونية الفلسطينين . ولم يكن هناك أى سبب للحادث . فما أن أقتربت السيارة مثل غيرها من مئات السيارات التى مرت قرب

احتفال دينى كتائبى حتى هوجم بالرصاص . وقتل فيه ٢٦ وجرح ٢٩ آخرين وقد أعلنت الأحزاب والقوى الوطنية أن الكتائب قامت بالحادث ضمن مخطط استعمارى صهيونى . و بيير الجميل زعيم الكتائب أعلن أن الحادث وقع من عناصر مجهولة . ووزير الإعلام ـ محمود عمار ـ فسر الحادث بانه خلاف بين لبنانى ينتمى إلى منظمة فدائية وبعض أبناء المنطقة . وتوتر الموقف أدى إلى الحادث . وقيادة المقاومة اعتبرت الحادث عملا مدبرا بعلم قيادة الكتائب لخلق الفتنة وضرب الإخوة الفلسطينين واللبنانيين (٣) . وحاولت الكتائب أن تسرب معلومات صحفية بأن حادث عين الرمانة بتدبير من حزب كميل شمعون والأردن . و بالرجوع إلى الأطراف جميعها وضح لى عدم الاهتمام بتحديد مسئولية الحادث بعد أن تحولت المسألة إلى مذابح بلا حدود اشتركت فيها كل الأطراف ولم يعد مهما من أطلق إشارة البداية لسباق الموت . وقد وصل الاستهتار إلى حد أن حزب الكتائب سلم اثنين لاعلاقة لهما بالحادث لإرضاء السلطة . وبمجرد تقديمهم اعترافا بدور الكتائب فى الحادث وفى ١٨ يوليو اعترف سعيد نعيم الأسمر (٤) بتفاصيل حادث عين الرمانة وأن الذين قاموا به من مسلحى حزب الكتائب بقيادة جوزيف أبو عاصى وبناء على تكليف من الحزب . وكانت صحيفة حزب الكتائب « العمل » قد نشرت فى إفتتاحيتها فى ٢مارس رد على أحداث صيدا وأن مسلسل الإرهاب يجب أن ينتهى بشكل أو آخر. كيف ؟ نخشى ألا يكون من سبيل لوقفه إلا بارهاب مماثل . مبدئيا ، الأمر مطلوب من الدولة .. من أجهزة الأمن .. ولكن لسوء الحظ دولتنا قاصرة على ذلك .. فاذا تعذر توحيد السلطة والمسئوليات ينتاب الناس شعور بالحاجة إلى إرهاب آخر مماثل بوصفة السبيل الأخير لوقف التدهور للتحرر من عقدة الخوف .. « آخر الدواء الكى » كما يقال .. ! (٥)

واستكمالا للأدوار فإن سليمان فرنجية رئيس الجمهورية دخل المستشفى لإجراء عملية جراحية « المرارة » قبل حادث عين الرمانة بيوم . وقد سمعت من أحد

رؤساء وزارات لبنان أن سلوك فرنجية مثل قادة العصابات الذى يثبت وجوده فى مكان آخر ساعة ارتكاب الجريمة . وقيل إن قيادة الجيش اللبنانى وعدت فرنجية أنه خلال فترة وجوده بالمستشفى وهى أسبوعان سوف يتم تصفية الوجود الفلسطينى واليسار اللبنانى . وعلى ذلك تحدد موعد دخول فرنجية المستشفى قبل بداية العملية بيوم .

وقد انضمت جماعة الرهبان إلى أطراف الصراع وخرجت عن إطارها الدينى للعمل السياسى وبالتالى فهى منذ هذه اللحظة سوف تعالج مواقفها فى هذه الدراسة كإحدى القوى السياسية فى جبهة لبنان . أما الكتيبة فوقفها هو موقف البطريرك خريش . فقد اجتمع رؤساء الرهبانيات المارونية فى ٢٧ أبريل وأصدروا بيانا يقول « أى وجه للصواب والانصاف ومنطق الحق فى الحملة العشواء المنفلته الغوغائية الحاقدة التى تشنها عناصر مسئولة وغير مسئولة من الداخل والخارج على حزب الكتائب . فالمؤتمر يستنكرها بشدة و يصرح أنه يؤيد هذا الحزب ويسنده بقوة([6]) .

وقد لاحظت على إجابات قيادة الجبهة اللبنانية (شمعون- الجميل- فرنجية- قسيس) أنه لم يكن ممكنا احتواء ردود فعل الحادث بينما القيادات السياسية الإسلامية وقيادة الحركة الوطنية أكدت فى الإجابات أن الحادث كان يمكن النجاح فى عملية احتوائه لولا إصرار الذين قاموا به على التصعيد . فالواقع أن تحرك الجامعة العربية بوصول الأمين العام فى اليوم التالى مباشرة للحادث مع أدوار عربية أخرى تجمعت فى العمل على إعادة الحياة الطبيعية بعد أربعة أيام ولكن الحوادث عادت فى نفس يوم تنفيذ وقف إطلاق النار وأعلنت الحكومة أن طرفا ثالثا قام بخرق وقف إطلاق النار وأعلن الأمين العام للجامعة العربية أن طرفا ثالثا هو المسئول . وذكر كل من البطريرك خريش بطريرك الموارنة والإمام موسى

الصدر إمام الشيعة أن هناك أيدى خفية تعرقل عودة الحياة الطبيعية إلى لبنان، بينما بيير الجميل وحده الذى أعلن أن الاتفاق نفذ بنسبة ٩٠٪ والعشرة الباقية تقع على عاتق السلطة. وكميل شمعون يدعو إلى عدم زج القضية الفلسطينية فى الصراعات السياسية الداخلية حرصا على الانتصارات التى حققتها فى المحافل الدولية. والغريب أن أحدا لم يشأ تحديد هذا الطرف الثالث. ووسط نشاط سياسى مكثف من كل الأطراف اللبنانية والعربية ظهرت على أرض المعركة ظاهرتان. عمليات خطف واسعة وعمليات نسف واعتداء على الكنائس والمساجد وحرق بعضها.

وفى يوم ٦ مايو اجتمع فرنجية بالشيخ بيير الجميل الذى نقل إليه ملاحظات حزب الكتائب عن الحكومة القائمة وأن مطلب الكتائب هو تغيير الحكومة. ووعد فرنجية ألا تستمر الحكومة طويلا. وفى اليوم التالى عقد مجلس الوزراء اجتماعا برياسة فرنجية. وقبيل الاجتماع قال سليمان فرنجية لرئيس الوزراء إن الوزير مجيد أرسلان يريد الاستقالة وأنه قبلها والمعروف أن مجيد أرسلان هو رجل فرنجية الأول وكان رئيس الجمهورية قد ضغط قبل ذلك بيومين على الوزيرين الاشتراكيين لعدم الاستقالة. والتغير تم فى موقف فرنجية بعد اجتماعه ببيير الجميل، وبمجرد استقالة رجل فرنجية استقال وزيرا حزب الكتائب. والذى يؤكد أن التغير كان مفاجأة هو ماجرى داخل مقر رياسة الوزارة. ونقلا عن أكثر من مصدر كان فى الجلسة أن وزيرى حزب كميل شمعون عرفا بقرار الاستقالات وهم داخل القاعة فاتصلا تليفونيا بكميل شمعون الذى قال لهما: «أنا لايهمنى موقف وزيرى الكتائب. المهم عندى هو فرنجية». وأمرهم بالتنسيق معه، وبعد دقائق من حديثهم مع فرنجية قدما استقالتهما وهكذا أضيفت إلى الأحداث أزمة وزارية أو بمعنى أدق أصبحت لبنان بدون وزارة وسط هذه الأحداث الخطيرة. وحين وضح دور فرنجية توجه رشيد الصلح رئيس الوزراء إلى مجلس النواب فى منتصف شهر

مايو وأعلن بيانا باستقالة حكومته ذكر فيه أن حزب الكتائب يتحمل مسئولية مجزرة عين الرمانة ومضاعفاتها . وأن الكتائب قامت بالعمل والتحضير لهذه الأحداث تجاه الفلسطنيين . وأن الكتائب تريد توسيع الصدام وتوريط الجيش اللبناني فيه ثم اتهم الكتائب بتصعيد الوضع حين أقترب من التهدئة عبر استقالة الوزراء وذلك لقطع الطريق على أى محاولة لبحث وإقرار مشروع قانون تنظيم الجيش ومشروع قانون التجنس . وحدد رشيد الصلح خمسة أسس لأى معالجة جذرية لأوضاع لبنان : تحقيق اصلاح سياسي ديمقراطي يحقق توزيعاً للاختصاصات والمسئوليات . الالتزام بمقتضيات المعركة العربية فى مواجهة العدو الصهيونى وإقامة علاقات راسخة مع المقاومة على أساس التنسيق الكامل . تعديل قانون الجيش وإخضاعه للسلطة السياسية . إقرار قانون التجنس . معالجة الوضع المالى والاقتصادى والاجتماعى والسير نحو العدالة الاجتماعية بخطى سريعة . وكانت جلسة مجلس النواب مذاعة بالتليفزيون وشاهد شعب لبنان أبن بير الجميل عضو المجلس يجرى وراء رئيس الوزراء و يعتدى عليه وردت الكتائب فى بيان نفت علاقتها بالحادث وإن كانت قد إعترفت بأنها سلمت اثنين من عناصرها لاعلاقة لهما بالحادث للتهدئة .

وهكذا فتحت الأبواب على مصراعيها للسباق الرهيب مع الموت . ولابد من تسجيل عدد من الملاحظات على حادث عين الرمانة باعتباره كان إشارة البداية الثانية بعد حادث صيدا .

فقد دخلت الكتائب الميدان وكانت قبل ذلك تقف بعيدة عن مثل هذه الأعمال المكشوفة وتحاول التصرف كحزب لبنانى كبير وتترك مثل هذه الأعمال لحزب الأحرار حزب كميل شمعون ، ولكنها هذه المرة دخلت بكل ثقلها وراء حزب الأحرار بعد صيدا لتقود هى مجرى الأحداث .

كما وضح من إشارة البداية للسباق مع الموت أن رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ليس بعيدا عن تحريك الأحداث والأشتراك فى عمليات تصعيدها وهو بحكم موقعه كان ينتظر منه أن يكون رئيس لكل اللبنانيين وليس لفريق ضد آخر.

وتأكد منذ اللحظة الأولى أن البطريرك خريش بطريرك الموارنة يقف ضد هذه المأساة وأن هناك تيارا يقف ضده يتزعمه رئيس الرهبانيات شربل قسيس والذى كان موجودا فى إسرائيل فى الفترة من ٥ حتى ١٣ ابريل أى أنه عاد بعد إشارة البداية بساعات . وقد وضح موقف البطريرك فى بياناته الصريحة واجتماعاته مع مفتى لبنان ثم دعوته لاجتماع مطارنة الطوائف اللبنانية فى ٢٦ أبريل والذى انتهى بدعوة للتعاطف الأخوى بين اللبنانيين من جانب و بين اللبنانيين والفلسطينيين من جانب آخر. ولكن الأحداث أوضحت أن الرجل بكل ما لمنصبه من جلال لم يستطع الوقوف أمام رئيس الرهبانيات .

وكانت ردود فعل الدول العربية بشكل عام هى الاكتفاء بإدانة حزب الكتائب دون عمل إيجابى غير ماقامت به الجامعة العربية . وكأن مثل هذه المذبحة التى كان يعرف بها مقدما كثير من الرؤساء والملوك العرب قبل بدايتها باشهر لا تستحق غير الإدانة ، وقد التقيت بشخصيات لبنانية أتيح لها أن تجتمع بأكثر من رئيس عربى وملك عربى وسمعت منه تحذيرا بالخطر فى لبنان قبل إطلاق إشارة البداية للاحداث بأشهر. وفى الوقت الذى كان تحرك العرب فى مواجهة المذبحة بالبيانات كانت دول أوربية ترسل بالسلاح بكميات هائلة إلى الموارنة لدرجة أن رشيد كرامى رئيس وزراء لبنان السابق صرح فى أول أبريل أن السلاح يأتى بصورة رسمية عن طريق الموانى اللبنانية و يوزع بواسطة جهات رسمية . وفى ٢٤ من نفس الشهر كشف كمال جنبلاط عن صفقة أسلحة بلجيكية جديدة وصلت

الكتائب . وأن « مؤسسة وطنية » قامت بتسهيل حصول الكتائب على الأسلحة . وبالرجوع إلى المصادر اللبنانية قالت إن المؤسسة الوطنية التى أشار اليها كمال جنبلاط كانت هى الجيش اللبنانى . كما تمت صفقة سلاح أمريكية عن طريق تاجر لبنانى - سركيس سوفاناليان - وأن السفارة الأمريكية دخلت وسيطا لإتمام الصفقة وبلغت قيمتها ١٦٠ ألف دولار .

وحقيقة أن اشارتى البداية قد سبقها إعداد وتجهيز . والغرابة فى مأساة لبنان أن كثيرا من ترتيبات المذبحة قد جرت علنا وفى وضح النهار . وبدت وكأنها قدر لا خلاص منه أو حدث لا يريد أحد أن يمنعه .

فى ٢٤ يناير سنة ١٩٧٥ بعث بير الجميل برسالة إلى الرئيس سليمان فرنجية نشرتها فى اليوم التالى كل صحف لبنان وأهم مافيها أن بيير الجميل قال : « لكل شىء فى الحياة حدود . وللإنسان خصوصا قدرة معينة على الاحتمال فتى استنفذها انفجر بهذا الشكل . ولعل مأساة الجنوب - جنوب لبنان - قد أوصلتنا إلى حدود هذه القدرة .. إن الوضع لم يعد من الممكن السكوت عليه . فالدولة دولتان والجيش جيشان والسلطة سلطتان » . وبعد أيام أربعة اجتمع بيير الجميل وكميل شمعون مع سليمان فرنجية لإعلان وحدة موقف قيادات الموارنة تأييدا لبيير الجميل والواضح فى هذه الرسالة أن زعيم الكتائب يعلن على العالم العربى وعلى الشعب اللبنانى أن الأمر لم يعد ممكنا السكوت عليه . وبالتالى فهى كلمات ليس لها من معنى إلا أن العد التنازلى لبداية السباق اللبنانى مع الموت قد بدأ . ومع ذلك فإن الجميع نظر للأمر وكأنه مجرد لعبة على السلطة فى لبنان حتى بعد أن توجه بيير الجميل إلى القصر الجمهورى وقدم رسالته الثانية فى ٢٠ فبراير والتى سماها وثيقة عن الوضع الاجتماعى فى لبنان . وأهم مافيها نداء باجراء استفتاء شعبى حول كل القضايا يحسم الجدل ويضع حدا للفوضى . وجوهر الاقتراح وهو الاستفتاء على مسئولية لبنان عن حدوده أى على وجود المقاومة فى الجنوب .

وكان واضحا أن بيير الجميل باسم الكتائب يقول للجميع فى لبنان وفى العالم العربى إن الكتائب ، سوف تتحرك ثم إن قيادات الموارنة توافقه على تحركه وبقيت عملية شحن الجماهير وتعبئتها ضد المقاومة الفلسطينية وهى ماتقوم بها دعوى الرغبة فى استفتاء الشعب .

وكانت الأزمة الاقتصادية فى لبنان قد بلغت ذروتها ولخصتها مجلة فرنسية(٧) فى أن حركة تمركز اقتصادى قد وصلت إلى درجة خلق احتكارات فى عدة قطاعات مثل التبغ والسكر ومنتجات الألبان وخلقت أيضا كارتلات تتقاسم السوق وتمارس سياسة إخفاء السلع لدرجة الندرة وذلك لفرض السعر الذى تريده وكان هذا هو العامل وراء زيادة معدل التضخم من ١٤ ٪ سنة ١٩٧٢ إلى ٢٥ ٪ سنة ١٩٧٣ ثم ١٨ ٪ ١٩٧٤ . وارتبط ذلك بظاهرتين الأولى هى التوسع فى افتتاح الشركات الاجنبية فروعها وابتلاع المشروعات اللبنانية . والظاهرة الأخرى هى : تدمير القطاع الزراعى وتزايد معدلات البطالة إلى درجة امتدت إلى خريجى الجامعات . هذا إلى جانب تزايد مصاعب الحياة لدرجة أن نصف عائلات لبنان حسب دراسات وزارة الإسكان وهى حوالى ١٧٨ الف عائلة تعيش فى مسكن من غرفة أو غرفتين دون تسهيلات وأن متوسط عدد افراد العائلة هو ستة .

وقد نتج عن الوضع الاقتصادى حركة شعبية واسعة شملت تقريبا كل قطاعات الشعب اللبنانى وعلى وجه خاص الطبقة الوسطى التى يعتمد عليها حزب الكتائب لدرجة أن أصبح معدل الإضراب فى لبنان يصل إلى اضراب على الأقل كل يومين أى حوالى ١٨٠ إضرابا فى العام . وهو موقف يفرض التغيير فى البنية الأساسية للمجتمع فى صالح تيار الحركة الوطنية .

وقد لخص ريمون اده الصورة الاقتصادية فى كلمات موجزة وذلك خلال الجلسة الثانية لهيئة الحوار الوطنى بأن قال إن الجماعات الفقيرة والمحرومة احتلت بيوت

الغير لأنهم تركوا دون رعاية من الدولة .

كانت ظاهرة احتلال الفقراء لأجمل شقق بيروت المغلقة فى الروشة قد مسألة عادية . فآلاف الشقق مغلقة وآلاف الناس بلا مسكن .

وقد خرجت فى وسط ذلك كله ظاهرة الإمام الصدر والتى سبق تقديم عرض لها . والمهم أن إجماع المحرومين قد ساعد فى تهيئة المناخ وإعداد المسرح سواء بالارادة أو بالبحث من دور بين الزعماء على حد وصف كميل شمعون لدوره . وساعد الإمام الصدر على دوره مايطلق عليه بحزام الفقر حول العاصمة وهو حزام لبنانى وليس فلسطينى كما يتصور البعض خطأ . والمعروف أن الإمام الصدر إمام المحرومين الذى قضى عمره فى إيران عاد منها إلى لبنان سنة ١٩٦٩ وهى بداية الصدام مع الموارنة والفلسطينين وتربع فور عودته على قمة الشيعة بسرعة مذهلة - ! - كما أن كامل الأسعد رئيس مجلس النواب - عن الشيعة - كان قد أصدر بيانا فى ٢٢ فبراير سنة ٧٥ باسم حزبه « الديمقراطى الاشتراكى » يطالب فيه بتجميد العمل الفدائى فى لبنان طالما استمرت جهود السلام . والمعروف أن الأسعد - الشيعى - قطب فى تحالف محور فرنجية - سلام . وعلاقته بإحدى دول البترول العربية الكبرى فى لعبة السلطة لبنان معروفة للجميع . وفى نفس الوقت قامت الكتائب بصدامات محلية مع المقاومة فى أكثر من موقع من باب الإعداد النفسى ونظمت يوما لنصرة الجيش ثم ادعت أن هناك محاولة لخطف ابن بيير الجميل (أمين) .

فإذا أضيف إلى ذلك أن الأحداث الضخمة والإعداد الهائل كان يتم فى ظل حكومة رشيد الصلح التى كان يحكمها توازنات بالغة الحساسية والدقة مع ضعف رشيد الصلح نفسه داخل موازين القوى العامة فى السلطة (٨) . كما أن العامل الآخر الذى ساعد على تهيئة الظروف هو تردد الزعامات التقليدية - الإسلامية - فى التصدى للكتائب وتغليبهم الاعتبارات الذاتية للإطاحة بحكومة الصلح على أى

هدف آخر. ووصل الأمر إلى حد استخدام مذكرة الجميل نفسها للتشهير بشخص رشيد الصلح .

وهكذا كان المسرح معدا والأطراف كلها مستعدة انتظارا لإشارة البداية التى انطلقت من صيدا ثم عين الرمانة . وبعدها بدأت الحرب وسباق لبنان المحموم مع الموت والذى امتص ١٩ شهرا من عمر لبنان بل والعرب ودفع ثمنه من أمل العرب فى غد أكثر إشراقا وفى مستقبل أكثر تقدما وفى استقلال أكثر قوة وأعمق جذورا ، وخرجنا من السباق والوجوه البيضاء « المليحه » أقرب إلى القرود الممسوخة والهامات المرفوعة بالإعزاز انحنت خجلا وخزيا . صدقونى أن هذه ليست كلمات إنشائية خالية من المعنى بل هى محاولة لتصوير الواقع دون رتوش . وهذا الواقع كان من الصعب إيجاد الصيغة المناسبة لعرضه فى صفحات كتاب لأنه يحتاج إلى مجلدات . وأى محاولة استعراض للخطوط العامة سوف تفقده الحياة ليصبح مثل الحقيقة مخلوق مشوه كريه . ووجدت أن الأسلم الالتجاء الى أسلوبين أن اقدم دراسة لشكل وطبيعة الحرب الأهلية من حيث الأسلوب والمنهج ثم دراسة لها من حيث التطور السياسى والاجتماعى- أى أن ضرورة ضخامة الأحداث فرضت الأسلوب المركب لتصوير الواقع على الورق .

فقد مرت الحرب الأهلية من حيث الأسلوب بمرحلتين بدأت بمرحلة حرب المدينة وانتهت بحرب الجبل وإن بقيت حرب المدينة مستمرة وإن كان الطابع الحاسم فى المرحلة الثانية هو حرب الجبل . وقد ظهر بوضوح أثر ثورة النشر التى كانت بيروت تتزعمها فى العالم العربى حيث مئات الكتب تتسابق على إصدارها دور النشر ، ويكفى نظره على قائمة مطبوعات أى دار نشر لتجد عشرات الكتب عن شكل الحرب وطبيعتها فى المدينة .. فى الجبل .. فى الغابة . فاستراتيجية الصراع موجودة فى الشارع وتعرضها الصحف والمجلات . وبالتالى كان التطبيق عن دراية

وليس عفويا . وكان لابد من هذه السطور توضيحا للحقيقة لأن البعض فى العالم العربى تصور أن المسألة مجرد نوع من الفوضى وإطلاق النار .

وبدأت الحرب فى المدينة بعمليات خطف عشوائية ثم ارتبط الخطف برصاص القناصة الذين تبعثروا على أسطح البنايات العالية التى تتحكم فى مداخل الطرق ثم أقيمت المتاريس فى كل مكان من أكياس الرمل والأسلاك الشائكة . وقد يبدو هذا العمل نوعا من الهمجية أو فوضى القتال ولكنه فى الواقع من أهم مراحل حروب المدن وعلى وجه خاص الحروب الأهلية . فالخطف العشوائى هو أفضل السبل لإثارة الخوف بأن يصبح كل فرد مهما كانت سلبيته أو بعده عن المشاركة فى الأحداث عرضة للخطف . ثم إن انتشار الخطف يخلق الشك بين الناس فلم يعد أحد يستطيع الثقة فى غيره ، إلا فى دائرة العائلة التى تتسع لتشمل الحى ثم الطائفة . وهكذا يرتبط أمن الإنسان بالعائلة والحى والطائفة . وتنغلق الدائرة عليها بالمتاريس وحزام القنص . فالقنص هو أسلوب اغلاق الطرق والمناطق . والقناص ليس مجرد محترف قاتل بالأجر ولكنه جزء من استراتيجية حرب المدن بتحويل الأحياء إلى جبهات قتال . وما إن يتحقق ذلك حتى تجرى عملية تطهير الحى من العناصر المعادية سواء كانت من الطائفة الأخرى أو من نفس الطائفة ولكنها ترفض الحرب كأسلوب للتعبير عن الخلاف فى الرأى أو حتى المصلحة . فالتطهير يشمل كل رافض لمنهج القتل . وبمجرد أن يتم التطهير يوضع نظام لحكم المنطقة بقوة السلاح باعتباره لغة الحرب الوحيدة .

والواقع كشف أن الكتائب كانت أكثر الفرقاء دقة فى التنظيم والتنفيذ بحكم تنظيم الحزب الفاشى وحجم السلاح والشباب المدربين على حمل السلاح والذى تم إعداده من قبل . كما أن الحركة الوطنية اللبنانية لم تكن فى حاجة إلى هذا الأسلوب النازى . فهى بحكم طبيعتها بعيدة عن الانغلاق ووضح ذلك فى بيروت

الغربية التى كانت تحت سيطرة الحركة الوطنية حيث لم يتعرض التجمع المسيحى الأرثوذكسى فى حى السريان أو المزرعة للخطر باستثناء بعض الحوادث الفردية التى أمكن السيطرة عليها بينما وصل الأمر فى مواقع جبهة لبنان (الجميل ـ شمعون ـ فرنجية) إلى حد تصفية الموارنة المعارضين جسديا او تهجيرهم من بيوتهم إن كانوا ينتمون إلى عائلات لها اسم وتاريخ . وقد سمعت عشرات القصص والتقيت بشباب مارونى لايستطيع دخول بيروت الشرقية خوفا من انتقام الكتائب . وما إن تم التقسيم الجغرافى حتى بدأت حرب « الأحياء » وخلالها ظهرت أكثر عناصر لبنان تعلما وأكثرهم مالا والذين يملكون السلطان وأكثرهم أناقة فى صورة بالغة التخلف والهمجية . وانتشرت جرائم لاتخطر على ذهن البشر فى بلد كان موارنته يدعون أنهم اكثر أبناء المنطقة حضارة وتقدما . فإذا بالقتل الجماعى على الهوية يصبح أسلوبا للحرب ، فرق من المسلحين تدخل لمواقع العمل وطبقا لبيانات تحقيق الشخصية تجمع الخصوم فى الحجرات وتطلق عليهم النيران وسط توسلات زملائهم الذين أنقذتهم هويتهم بحكم الانتماء إلى هوية القاتل . اغتصاب فتيات بعنق زجاجات أو بأطراف علب الصفيح للأغذية المحفوظة . تقطيع أجزاء من الأجساد ووضعها فى أماكن أخرى من الجسد . جمع الجثث فى بنيان جبلى والرقص إلى جوارها تعبيرا عن الفخر بضخامة عدد ضحايا الراقصين . قائد السيارة الذى يطلق الرصاص لإفساح الطريق لسيارته باعتبار أن الرصاص له أسهل من الضغط على « كلاكس » السيارة . الوقوف فى الطرقات وتجريد المارين من ملابسهم ليصبحوا عرايا وعن طريق « عملية الطهارة » يمكن تمييز هوية الشخص وبالتالى قتله . وليس معنى ذلك أن هذه الحوادث كانت وقفا على الانعزاليين ولكنها طبعا شملت الجميع إلا أن حجم وبشاعة ما ارتكبه جانب الانعزاليين لايمكن أن يقارن بغيره بأى حال والسجلات موجودة فى شهادات مسجلة للكثيرين يمكن الرجوع إليها . وطبقا للواقع التاريخى فإن اليمين عادة وعبر التاريخ هو أكثر شراسة من أى

حركة وطنية لأن الحركات الوطنية ليست فى حاجة إلى العنف للتعبير عن نفسها إلا فى حالة الدفاع عن النفس والحركات الوطنية نادرا ما تلجأ إلى أسلوب الاغتيال إلا إذا تسللت إلى صفوفها عناصر نازية الطبع بينما الاغتيال هو طابع الأحزاب اليمينية وأسلوبها .

ويكفى حادث مايعرف فى لبنان « بالسبت الأسود » وهو يوم السبت ٦ ديسمبر ١٩٧٥ حين عثر على جثث أربعة قتلى فى الفنار قيل إنهم من مرافقى بيير الجميل زعيم الكتائب فقامت ميلشيا الحزب بإطلاق مقاتليها باتجاه ساحة الشهداء وباب إدريس قلب بيروت . وخطف العشرات وقتل معظمهم فورا والآخر أسر ثم قطع على أبواب مقار الحزب . وقام المقاتلون من الكتائب عند حاجز المدفأ وأخذوا يطلقون النار على جموع عمال المرفأ و يلقون بجثثهم فى البحر ووصل عدد الضحايا فى هذا اليوم ١١٠ قتيل غير ٣٠٠ مخطوف ، أما الجثث التى ألقيت فى البحر فلا أحد يعرف لها عددا . ولنا أن نتصور هذه الهستيريا التى تقودها الكتائب ونظره الاستعلاء إلى الآخرين فأربعة من مرافقى بير الجميل يساوون فى عرف الكتائب التى وجدت المال والسلاح من العرب اكثر من ٥٠٠ إنسان على الأقل . وكان بينهم على الأقل ٣٠ عاملا مصريا وقد ظهر بعد ذلك أن الكتائب كانت قد خطفت عددا من المصريين وقامت بتشغيلهم بالسخرة وتحت التعذيب وضرب السياط ولم يستطيع أحد التدخل لإنقاذهم أملا فى عدم تصفيتهم جسديا .

وقد يتصور البعض أن الحرب بما عرف عن بشاعتها هى بهذا الشكل ولكن الواقع أن سجل الحروب الأهلية يخلو من مثل هذا الجنون والانحطاط البشرى وخاصة أنها ليست حوادث فردية بل جرائم جماعية . وقد حاول البعض تفسير هذه الظاهرة بالتحليل النفسى بأن « هذا الرعب والهلع من العرق (المسلم ، الفلسطينى ، اليسارى) القادم لضرب الغلبة المارونية- يقود إلى هيستيريا خوف

جماعية تؤدى بدورها إلى عدوانية من أجل تأكيد الذات . فهى تعبير عن خلجات الحشرجة فى الجسم الفاشى الذى يتعرض للانقراض و يعيد إلى الذاكرة الاضطهاد العثمانى (٩) . وهو تفسير لايقنع ، خاصة وأن أى حديث عن اضطهاد عثمانى يمكن أن يتحدث عنه العرب مسلمين ومسيحيين أرثوذكس أكثر مما يتحدث عنه الموارنة الذين كانوا فى حماية فرنسا . ولا كان خطر التيار الوطنى المعاصر يمثل خطر الإبادة للموارنة . فاليسار العربى فى لبنان لم يكن يملك غير الكلمة مكتوبة أو منطوقة للتعبير عن نفسه والكلمة لا تبيد .

وقد أخذت حرب مرحلة الأحياء طابع القصف العشوائى حيث شهدت مدن لبنان تبادل قصف بأسلحة لم يسبق أن استخدمت فى أى حرب أهلية داخل المدن مثل الصواريخ والهاون والمدفعية الثقيلة وهو حسب نفس الدراسة السابقة » يشير إلى واقع يترسخ يوميا . فإغلاق المناطق يقود إلى محاولة كل منطقة تدمير عدوها فالإصرار على القصف العشوائى من قبل الأطراف المقاتلة وتعميمه الانعزالى يقود إلى التقسيم . وتعميم الكراهية والخوف إلى درجة مرتفعة جدا . أى وضع حدود نفسية بعد الحدود الفعلية . فالقصف العشوائى رعب دائم : وتعبير عن تعميم رفض الآخرين . و إيصال التقسيم الفعلى والنهائى « وهو أيضا ليس التفسير الحقيق ولعل السبب الذى تقدمه هذه الدراسة هو الأقرب إلى التصديق بأن هذا القصف تعبير عن العجز عن الحسم الفعلى حيث يقود إلى حسم وهمى باعتبار أن القصف هو حسم وهمى وانتصار وهمى . فقصف تجمع سكانى يخلق قناعة بقتل عدد كبير من الفريق المعادى لكن الفريق الآخر يستطيع بالقصف أيضا قتل الطرف الأول . فالعجز لايرى سوى خسائر الخصم و ينسى خسائره فهى انتصارات وهمية أو هى على حد تعبير البعض « حرب الجبناء » (١٠) .

وفى المرحلة الثانية من الحرب أصبح الطابع الغالب عليها أنها حرب جبال وإن

كانت لم تفقد استمرار حرب المدينة . وخلال هذه المرحلة دارت معارك حقيقية . وكان أهم ماظهرت فى هذه المرحلة أن مواقع قوات الانعزاليين تساقطت بسرعة بعضها بعد مقاومة وبعضها الآخر كانت القوات المشتركة ـ الفلسطينية اللبنانية ـ تجد الطرق مفتوحة بدون مقاومة . والمعارك الحقيقية التى أعطت الحرب شراستها وحددت معالم مسارها فكانت فى الأساس بين القوات السورية فى جانب الانعزاليين والقوات المشتركة فى الجانب الآخر . وطبقا للمفاهيم العسكرية شهدت هذه المرحلة معارك حقيقية . فإذا كتب تاريخ الحروب فى المنطقة فسوف تكون علامة على طريق النضال الوطنى وإذا كان سلوك القوات المشتركة هو سلوك « المحارب » بكل ماله من قيم وأخلاقيات بدت بوضوح حين كان النصر معها فإن القوات الانعزالية حاولت تعويض هزائمها بإبادة مخيم تل الزعتر تحت حماية القوات السورية . وقبله أبادت مخيم « خبيه » وهو المخيم المعروف بأغلبيته المسيحية وذلك بعد ملحمة صمود اذهلت جميع الأطراف . وهى موضوع سوف نعود إليه مرة أخرى على أى الأحوال .

نعود بعد ذلك إلى النظر إلى أحداث الحرب من منظور آخر غير منهجية الحرب وأسلوبها إلى منظور سياسى واجتماعى . وهى أيضا قد مرت بمراحل أربع .

فى المرحلة الأولى التى بدأت بحادث عين الرمانة ، وخلالها كان طابع القتال هو الخطف والقتل على الهوية والقصف العشوائى . كانت محاولة جادة من الكتائب وحليفها حزب الأحرار (الجنيل ـ شمعون) فى حصر الصراع بين الفلسطينيين من جانب والموارنة بادعاء الحديث باسم كل لبنان على الجانب الآخر . و برفع راية الطائفية ليبدو الصراع « اسلامى ـ مسيحى » مع أن الموارنة ليسوا كل المسيحيين فى لبنان . ورغم كل محاولات الكتائب والأحرار فإن الجهود فشلت فى إخفاء الصراع الاجتماعى باعتباره أحد المحاور الأساسية للصراع .

وقد كان أكثر مالفت الأنظار أن أول المواقع التى تعرضت للنهب والحريق فى بيروت كانت أغنى محلات بيروت والتى كان من المستحيل على أغلبية الشعب اللبنانى التعامل معها . فشهدت بيروت عمليات نسف وحريق فى عدد من المواقع كانت كلها تؤكد حقيقة الصراع الطبقى فى الحرب اللبنانية ثم بدأت عملية النهب وفى بدايتها كانت عمليات لها منطق . فهى محاولة الجماهير للحصول على مخزون من الأغذية والملابس ثم تحولت بعد ذلك إلى نهب بلا حساب . وحتى هذه الحقيقة كان وراءها طابع لبنيان الاقتصادى اللبنانى وهو الاقتصاد الوسيط حيث المكاسب غير المشروعة هى الأساس بدون إنتاج . وكانت عمليات النهب هى مجرد مشاركة جماهيرية فى هذه الثروات . فهى فى إطار قيم ومفاهيم المجتمع اللبنانى تصبح مسألة عادية إلى ان دخلت فيها عصابات حاولت الاستفادة من الفوضى . وجاء خبراء فى السرقة من العالم كله لنهب المال . وكانت أكبر العمليات التى جندت لها العصابات المنظمة فى العالم هى سرقة البنك البريطانى فى بيروت حيث خزائن استحال فتحها دون خبراء تم استدعاؤهم لهذا الأمر . وكان أول من بدأ عمليات النهب فى الجانب الانعزالى هم الكتائب وفى جانب الحركة الوطنية كانت الصاعقة ـ السورية ـ على وجه خاص .

وبينما كان ذلك يجرى فى الشارع كان العمل السياسى مكثفا فى القمة . فقد أقنعت الكتائب رئيس الجمهورية بنسف الحكومة وبينما كانت محاولات تشكيل حكومة جديدة تجرى إذا بلقاء بيير الجميل وشمعون وفرنجية يسفر عن مفاجاة هى الأولى فى تاريخ لبنان وهى تشكيل حكومة عسكرية . وتم ذلك فى إطار تصعيد لعمليات الكتائب العسكرية بتركيز هجومها على مخيم تل الزعتر والداكوانه وطالبت بتصفية المخيم ونقله إلى مكان آخر حتى تصبح بيروت الشرقية خالصة تحت قيادتها . وفى هذا المناخ شكلت الحكومة العسكرية برياسة العميد أول متقاعد نور الدين الرفاعى . وكان أهم شخصياتها ، بل والرئيس الفعلى لها هو

العميد الركن موسى كنعان مساعد رئيس الأركان والذى تولى منصب وزير الإعلام . وهو الضابط الذى يطلق عليه فى لبنان « الضابط الأمريكى فى الجيش اللبنانى » ولم يؤيد الوزارة العسكرية فى كل لبنان سوى كميل شمعون وبير الجميل بل إن شمعون وجه الدعوة لدعم الحكومة العسكرى ومساعدتها إلا أن معارضة قيادات الحركة الوطنية كانت حاسمة إلى جانب معارضة القيادات الإسلامية التقليدية وهى التى عقدت اجتماعات فى مقر مفتى لبنان وانتهت بتوجيه نداء إلى رئيس الحكومة العسكرية للاستقالة حفظا لجيش لبنان من الانقسام ودفاعا عن المقاومة والتقاليد الديمقراطية فى لبنان . ولم يقف اجتماع الحركة الوطنية والقيادات الإسلامية عند حد رفض الحكومة العسكرية بل انتقل الى اختيار رئيس للحكومة وهو رشيد كرامى . وبعد ثلاثة أيام فقط من تشكيل الحكومة العسكرية اضطرت فى اليوم الرابع إلى الاستقالة واضطر فرنجية إلى تكليف رشيد كرامى بتشكيل الحكومة . وكانت أول مشاكلها هى مواجهة الإجماع على عدم اشتراك الكتائب فى الحكم . وانتهت المشكلة باقتراح كرامى باستبعاد الكتائب وعدم دخول كمال جنبلاط . وهكذا انتهت هذه الجولة بهزيمة الكتائب وعدم تحقيق أى من أهدافها فلا هى استطاعت إخفاء حقيقة الصراع الاقتصادى والاجتماعى ولا هى جعلت الصراع طائفيا . وكان موقف منظمة التحرير مركزا فى عدم السماح للكتائب بتصعيد الأزمة والعمل بسرعة على تهدئة الموقف وفى نفس الوقت محاولة عزل الكتائب ، وذلك بنشاط واسع بين كل فئات المجتمع اللبنانى لوضع موقف الكتائب وأمام الجميع بوضوح . وكان من بين العوامل التى ساعدت على هزيمة الكتائب فى هذه الجولة هى بروز تيار مسيحى معارض يقوده فى الجانب الدينى بطريرك الأرثوذكس الياس الرابع والمطران حداد وفى الجانب السياسى ريمون إده وهنرى فرعون . وهكذا خرجت القوى الوطنية أكثر تلاحما مع الثورة الفلسطينية واستطاعت أن تحقق نصرا محددا بفرض شخص

رئيس الحكومة وإن كان جنبلاط قد استبعد من حكومته فهو تعبير عن حجم الخطوات التى أمكن تحقيقها فى مواجهة التراجع الكتائبى . كما أن جنبلاط كان زعيم الحركة الوطنية بلا منازع . وقام ببلورة موقفها فى ٢٤ يونيو فى خطة من ١٤ نقطة وصفها بأنها قادرة على تحقيق المصالحة بين الأطراف المتنازعة . كما خرج ياسر عرفات ببيان فى اليوم التالى يؤكد بوضوح موقف الثورة الفلسطينية من أنها ليست فئة فى الصراع اللبنانى . وهى لا تريد أن تكون فئة أو طائفة فى الأزمة لأن استقرار لبنان هو استقرار للثورة . وحدد العلاقات اللبنانية الفلسطينية على أساس إحترام الثورة لسيادة لبنان ، وإقرار لبنان بحق الثورة فى التواجد على أرضه ضمن الاتفاقات .

وأمام إدراك الجميل وشمعون لاستحالة تحقيق كسب فى مثل هذا المناخ أعلن كل منهما تأييده لبيان عرفات الذى استقبل بترحيب من كل أطراف المجتمع اللبنانى ووجدتها الكتائب فرصة لمحاولة الخروج من العزلة وفى نفس الوقت أملا فى كسر التحالف بين الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية . فأعلن بيير الجميل أن بيان عرفات عاقل و يصلح أن يكون ميثاقا . وأعلن جوزيف شادر منظر حزب الكتائب أنه بيان ممتاز ورصين . واتجهت حملة الإعلام الكتائبية إلى أن المشكلة فى الأساس ليست مع الثورة الفلسطينية ولكنها مع اليسار الدولى . وكانت الكتائب تحاول تحييد قيادة الثورة الفلسطينية وفى نفس الوقت كانت تعيد تنظيم مواقعها وتدريب كوادرها واستيراد المزيد من السلاح واستدعاء عدد من المدربين المرتزقة . وكان كل تكتيك الكتائب هو كسب الوقت إذ كانت قيادتها تراهن على احتمالات صدام منتظر بين مصر ومنظمة التحرير مع قرب توقيع اتفاقية سيناء . وانتظارا لهذا اليوم استمرت المناوشات والصدامات وخلالها نجحت الكتائب فى إدخال قوى جديدة فى الحرب إلى جانبها مع الأحرار وهى قوى تجمع زحله وجيش زغرته الذى يقوده طونى فرنجية ابن سليمان فرنجية . وكانت النتيجة أن رقعة

الاشتباكات قد اتسعت لتغطي نحو نصف مساحة لبنان و بدأت معالم تقسيم فعلى تتم بشكل واضح وهى ما أطلق عليها « قبرصة » لبنان . إذ بدأت نتيجة عمليات التطهير للمواقع التى يتم السيطرة عليها بدأت هجرة متبادلة . تيار إسلامى يتجه إلى مواقع الغلبة فيها للمسلمين وتيار مسيحى يتجه إلى مواقع الغلبة فيها للمسيحيين وإن كانت قد بقيت مناطق أخرى بعيدة عن احتمالات الصدام والتعايش فيها لايوجد الحظر وما أن وقع الحدث الذى كانت تنتظره جبهة لبنان وهو الخلاف المصرى الفلسطينى بمجرد توقيع اتفاقية سيناء فى أول سبتمبر حتى بدأت من جديد تصعيد عملياتها ومحاولة شد الثورة الفلسطينية إلى دائرة الصراع ، وفى نفس الوقت طرح شعارات التقسيم أو قبرصة لبنان كما كان الكل يطلق عليها . وقد ظهر أثر ذلك كله فى هيئة الحوار التى عقدت أول إجتماعاتها فى ٢٥ سبتمبر ولكن الكتائب بعد أيام وبالتحديد فى آخر سبتمبر نسفت المحاولة الجادة للخروج من الأزمة بالقيام بمذبحة جديدة فى عين الرمانة أيضا . وكأن عين الرمانة هى دائما نقطة الإنطلاق للكتائب لكل مرحلة جديدة فى إستمرار إشعال الحرب إذ بدأت المرحلة الثانية بإمتداد القتال فى الشمال وفى البقاع وكان هدف الجبهة الانعزالية هو(٩١) استنزاف قوى الثورة الفلسطينية ، خاصة وأنها الدعامة الأساسية للحركة الوطنية فى لبنان وفى نفس الوقت محاولة إثارة الفرقة بين التنظيمات الفلسطينية بطرح شعارات الفدائى المنضبط والفدائى غير المنضبط . وقد قال لى أحد رؤساء وزارات لبنان . إن حصرا قد تم لحوادث الفلسطينيين فى لبنان وحوداث اللبنانيين فى خلال أشهر ستة فوجد أن حوادث اللبنانيين أضعاف ماارتكبه الفلسطينييون . فهى ظاهرة طبيعية فى كل مجتمع والفدائيون ليسوا ملائكة فهم منا » كما كان أمل الجبهة الانعزالية هو استغلال طبيعة الاختلاف بين قيادة الحركة الوطنية والقيادات التقليدية الإسلامية وفى نفس الوقت تصعيد عمليات قصف مواقع القوى الوطنية فى الأحياء المكتظة بالسكان أملا فى إثارتهم ضد العناصر المسلحة وإلى جانب ذلك

كله تصعيد أعمال العنف الإجرامى من حرق إلى قتل ونهب وخاصة فى الحى التجارى ببيروت .

وعمدت الكتائب فى مواجهة ذلك كله على تحريك عقدة الخوف عند المسيحيين . وهى المهمة التى تولت جماعة الكلسيك تعميقها بكراسات لاتحمل التوقيع لتكون بصيغة منشورات الكل يعرف مصدرها ولكن لأأحد يتحدث عنها . وكذلك العمل على احتواء وتطويق القوى المسيحية التى ترفض منهج القاتلين وذلك ا ١٠ بإسكاتهم بالإرهاب أو قبول الحياد أو الخروج من مواقعهم .

وإنصافا لأغلبية الشعب اللبنانى فلابد من ذكر عدد من الحقائق عن هذه المرحلة :

١ـ أن المسيحيين بشكل عام كانوا غير مؤيدين لضرب مناطق المسلمين والعكس صحيح . وقد كشف كمال جنبلاط هذه الحقيقة فى الجلسة الرابعة لهيئة الحوار الوطنى فقال إن أهل الاشرفية والدكوانه لاير يدون مقاتلة المسلمين ، ولكن البعض يجلب مسلحين لمقاتلة المسلمين من احيائهم (١٢) .

٢ـ أن حوادث المذابح تكشف عن حقيقة أن الجوهر ليس الدين . ولكنه سياسة فقد ذكر ريمون اده فى الجلسة الثانية للجنة الإصلاح السياسى التابعة لهيئة الحوار أن الكتائب قامت بقتل فلسطينى مسيحى مارونى . وقدم الاسماء والوقائع ، وبعد ذلك قادت الكتائب بأكثر من عملية ذبح ضد المسيحيين والفلسطينيين و بينهم عدد من الموارنة .

وقد عبر عن هذه الحقيقة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فى اجتماعه مع سليمان فرنجية رئيس الجمهورية فقال « إننا فوجئنا بهذا التعصب الموجود فى هذا البلد . فليس عندنا فى فلسطين مسيحى ومسلم . ونحن لسنا مع المسلمين ضد المسيحيين ولا مع المسيحيين ضد المسلمين (١٣) .

٣ـ أن كلمات البطريرك خريش بطريرك الموارنة جاسمة فهو يقول « أنا بطرك . أنا لست رئيس حزب أو ميليشيا » (١٤) ، وهو مايعني باختصار أن دور شربل قسيس بجماعته هو دور بعيد عن دور الكنيسة ولا تتحمل هي مسئولياته .

٤ـ أن لبنان غير متدين . وقد زرت لبنان أكثر من مرة فلم أرى مسيحي يذهب إلى كنيسة ولا مسلماً يذهب إلى جامع . فهو شعب يعيش الحياة و يتذوق متع الدنيا والدين بالنسبة له مجرد اسم . و يكفي أن اقول إن مسألة زواج المسيحية من المسلم فى لبنان مسألة عادية للغاية وأيضا مسألة زواج المسلمة من المسيحي حتى رغم رأى الشرع هى مسألة عادية . و يكفي أن كثيرا من القيادات الإسلامية فى لبنان تزوجت بناتهم من مسيحيين دون أن تقوم الدنيا أو تقع كارثة ، بل ولا حتى كلمة اعتراض . فالزواج يتم فى قبرص ثم يسجل فى لبنان والقانون يعترف به فى لبنان طبعا .

وهذه الحقائق تعرفها الكتائب جيدا ولذلك جندت كل إمكانياتها حتى يبدو العكس ، وفعلا كان الطابع المميز لهذه المرحلة من الحرب هو طغيان اللون الطائفى على كل أشكال الصراع الأخرى دون أن تختفى صور الصراع الأخرى وزغم أن القوى الانعزالية كانت تصر على إبقاء الطابع الفلسطيني اللبنانى مستمرا إلا أن جوهر سلوكها كان يعكس حقيقة الأزمة اللبنانية فقيام قوات الجبهة بإبادة مخيم خبية ثم نسف منطقة المسلخ والكرنتينا كان تعبيرا حقيقيا عن صراع الأغنياء والفقراء فهذه المناطق هي من أملاك رهبانيات شربل قسيس . وقد ارتفعت قيمتها بحكم حركة العمران حتى أصبح ثمن المتر من الأرض خمسين ضعفا فى خلال عشرة أعوام فقط .

فالمسألة فى الأساس اقتصادية قبل أن تكون أى شيء آخر . وقد ردت القوات

المشتركة اللبنانية ـ الفلسطينية بدخول قلاع حزب الأحرار فى الدامور والسعديات وحوصر كميل شمعون وتم إنقاذه بطائرة هيلكوبتر سمحت لها القوات المشتركة بأخذه وكانت حياته ملك إرادة الحركة الوطنية .

وهكذا رغم كل ما فعلته الجبهة اللبنانية بقيادة الكتائب فإنها لم تستطع أن تحقق انتصارا سواء على الساحة العسكرية أو فى المجال السياسى . فى المجال العسكرى رغم المساعدات والمرتزقة والسلاح فإنها لم تستطع إجراء تغيير فى توازن القوى لصالحها . فقد ظهر أن الوزن القتالى لقوى الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية أكبر من تقديرات خبراء الكتائب الأجانب وفى المجال السياسى أيضا رغم أن الكتائب حشدت الشارع المارونى بوجه خاص والمسيحى بوجه عام فى المعركة إلا أن قرب انتخابات رئاسة الجمهورية جعلت كثير من القيادات تتصرف وفق حساباتها لخوض انتخابات الرئاسة . كما أن دور بطريرك الكنيسة الكاثوليكية وبطريرك الكنيسة الأرثوذكسية أفقد الكتائب كثير من القدرة على فرض ارادتها على الجميع . حتى الموقف العربى المتناقض الذى كان أمل الانعزاليين فى الاستفادة منه كبيرا ظهر أن حجم التناقضات وتشعبها مع عدم وجود خط سياسى واحد مما يجعل الاعتماد على ذلك والاستفادة منه أمرا محدودا وغير مضمون .

وهكذا انتهت المرحلة الثانية من القتال بهزيمة مخططات جبهة لبنان مرة أخرى . ولم تستطع أن تفعل شيئا سوى القتل والتدمير . وهو يحسب فى النهاية عليها وليس لها باعتبار أن دعامتها فى الأساس هى الطبقة التى خربت مصالحها ودمرت شركاتها .

وبدأت المرحلة الثالثة مع بداية العام الجديد ـ ١٩٧٦ ـ وهى المرحلة التى عرفت بحرب الثكنات حيث كانت مظاهر الانحلال والتفكك قد امتدت إلى كل أجهزة الدولة حتى وصلت إلى الجيش . وكانت كل آمال جبهة لبنان قد انعقدت

على إنزال الجيش اللبناني لحسم الصراع لصالحها أو على الأقل لمنع هزيمتها واستخدمت فى ذلك التهديد بالتقسيم أو التدويل ، خاصة وأن محاولات الإصلاح السياسى أفرزت مشروعا عرف «بالوثيقة الدستورية» فى الوقت الذى كانت قد تبلورت فيه ظاهرة أحمد الخطيب على رأس جيش لبنان العربى وأصبحت جاذبة لعناصر كثيرة من جيش لبنان . وكانت النتيجة أن أخذت ثكنات الجيش تسقط الواحدة وراء الأخرى بانضمام ضباطها وجنودها إلى جيش لبنان العربى . وبعد أن كانت ظاهرة أحمد الخطيب تعالج على أنها عصيان لضابط مع عدد من الجنود أصبحت خطا سياسيا له دور وتأثير على مجرى الأحداث وأصبحت لبنان بدون جيش رسمى حقيقى .. وتوج ذلك كله بسلسلة من انقلابات بدأت بانقلاب العميد عزيز الاحدب فى ١١ مارس . وضاع أمل جبهة لبنان فى أن ينقذ مصيرها عن طريق أى قوة داخل إطار القوى اللبنانية . واستمرت ظاهرة انكسار قوات الجبهة وكانت قوات حزب الأحرار قد انهارت مواقعها . وفرت قوات حراس الأرز وتبعثرت ولم يبق سوى مواقع الكتائب التى أصبحت تواجه احتمال نفس المصير وخاصة بعد هزائمها فى بيروت بسقوط أكبر مراكز الجبهة اللبنانية وهى فندقا هيلتون والهوليداى . ولم يبق سوى مقر قيادة الكتائب .

وأصبحت لغة الجبهة اللبنانية هى قبول الإصلاح السياسى وتعديل صيغة الحكم فى لبنان وبدأت تناقش إمكانية تطبيق الوثيقة الدستورية لولا التناقضات العربية التى لعبت دورا خطيرا فى هذا الوقت باعتبار أن سوريا كانت صاحبة الدور الأول فى الوصول إلى صيغة هذه الوثيقة . وهو دور لم يكن مقبولا فى عواصم عربية أن يعطى الفضل فيه إلى سوريا . وفعلا سقطت الوثيقة بدورها فى بئر الصراع والتناقضات .

ومع شهر إبريل بدأت المرحلة الرابعة والأخيرة حيث انقلب توازن القوى

وخط الصراع بدون منطق . إذ الجانب المنتصر سياسيا وعسكريا فقد معظم مالديه من مكاسب والجانب الذى انكسرت قواه على الساحة أصبح صوته أعلى وقدرته على المساومة أكبر . وكانت القوة التى غيرت الموقف هى دخول الجيش السورى تحت دعوى منع الانقسام وإن كان فى مسيرته والخط الذى اخترقه والمعارك التى خاضها أكد حقيقة دوره فى أنه دخل لدعم قوى جبهة لبنان والقضاء على كل ما كسبته القوات المشتركة (الفلسطينية اللبنانية) على الساحة حتى تعود قاعدة لاغالب ولا مغلوب وإن كانت حقيقة مافعلته القوات السورية هو أن جعلت القوات المشتركة « مغلوبة » مع أنها لم تهزم فى المعارك مع الجبهة . ودخلت القوات المشتركة فى معارك بالجبل سوف تبقى فى سجل المعارك فى المنطقة ملحمة صراع وصمود . وذروتها معركة بحمدون التى أوقفت الغزو السورى للبنان أمام القوات المشتركة . وفى ظل الزحف السورى انتعشت قوى الجبهة وقامت بعمليات كانت فى الأساس تهدف إلى تغطية هزيمتها لتبدو وكأنها قوة مازالت لها فاعلية . وهكذا حوصر مخيم تل الزعتر تحت مظلة سورية من ٢٢ يونيو حتى ١٢ أغسطس أى ٥٢ يوما رغم نفاذ الذخيرة والتموين والادوية والماء وصد مايزيد عن ٧٢ هجوما بالمدرعات والمدفعية وسقطت على أركانها مايزيد عن عشرة آلاف قذيفة .

وقد لخصت معارك بل ملحمة تل الزعتر كل أهداف الحرب اللبنانية من جانبها الاقتصادى حيث تعود الأرض إلى ملكية رهبانيات شربل قسيس إلى جانب بروز الهدف من الصدام مع المقاومة الفلسطينية . والأهم من ذلك كله أن انكشفت أدوار القوى الداخلية واتضحت المواقف العربية وتشابكت الخطوط وتناقضت المواقف . فالذين يرفعون راية النضال العربى و يدعمون الحركة الوطنية أصبحوا دعامة الموارنة وفى خندق واحد معهم ومع إسرائيل والولايات المتحدة وسواء كان خطأ فى الحساب أو أدراك للدور ووفاء بالتزامات وعد بها فالنتيجة واحدة أن الخندق جمع الأطراف الحقيقية معا . والدول التى كانت مع الكتائب أصبحت

تصرخ بأعلى صوت دفاعا عن الحركة الوطنية واتهاما للكتائب بالعمالة والتآمر. وأصبحت صورة مأساة عربية لكل مدلولات تعبير « المأساة » .

وكان فى نظر كثير من العواصم عدم ترك الانفراد السورى وحده فى الميدان ولابد من تحديد دوره أو تحجيمه هو دافع البحث عن نهاية وانتهت الأمور بضرورة الالتقاء وإنهاء الحرب التى طالت ١٩ شهرا .

وقد انتهت الاتصالات العربية بعقد مؤتمر القمة السداسى فى الرياض فى ١٦ اكتوبر من السعودية ومصر وسوريا والكويت ولبنان ومنظمة التحرير ليعلن انتهاء الحرب وتشكيل قوات ردع عربية أغلبيتها قوات سورية دون أن يتعرض المؤتمر لصلب قضية لبنان التى بقيت معلقة على فوهات مدرعات قوات الردع العربية ، وكأن حربا لم تقع وكأن آلاف الشهداء لم يسقطوا ضحايا المذبحة و باختصار كأن شيئا لم يكن .

هذه هى رحلة لبنان مع سباق الموت . وهى ليست التفاصيل الكاملة للرحلة ولكنها مجرد لمحات لمنحنيات السباق أملا فى إنعاش الذاكرة وتسجيل قدر من الحقائق بما يسمح لمعالجة القضايا الأساسية التى دار الصراع حولها وتحديد مواقف كل الأطراف منها .

هوامش الفصل الخامس

(١) صحف لبنان فى ٢٩/ ٨/ ١٩٧٧ .

(٢) فى ٨ مارس .

(٣) نص الرسالة فى الكتاب الأبيض اللبنانى . ١٩٧٦ . ص٩

(٤) يوميات الحرب اللبنانية ج ١ . منظمة التحرير. ص١٠٣

(٥) فى القضية اللبنانية . منشورات دار العمل ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٦) الواقع اللبنانى وموقف الرهبان. منشورات الأمانة العامة لمؤتمر الرؤساء العامين للرهبانيات اللبنانية. ص ١٠

(٧) كلود دو بار الصدامات الطائفية والصراعات الطبقية . مجلة النقد الجديد . عدد ٩٢ مارس سنة ٧٦ . ونشرت ترجمة مجلة الطريق اللبنانية فى العدد رقم ١ .

(٨) نواف عبد الله . حول الأزمة اللبنانية . شئون فلسطينية عدد ٥٦ .

(٩) إلياس خورى - التعبير فى الحرب الأهلية . شئون فلسطينية عدد ٦١ ص ٨٤ .

(١٠) إلياس خورى - المرجع السابق ص ٨٤ .

(١١) نواف عبد الله . حول الأزمة اللبنانية . شئون فلسطينية عدد ٥٧ .

(١٢) محاضر هيئة الحوار الوطنى . الجلسة الرابعة فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٥ .

(١٣) محضر الإجتماع فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٧٥ ص ٢ .

(١٤) مجلة الصياد فى ١٧ مارس ١٩٧٧ .

الفصل السادس

حوار الطرشان

دارت حرب لبنان طوال أشهرها التسعة عشر حول محور أساسي هو تصفية الوجود الفلسطيني على أرض المارونة «لبنان». وكانت المذابح تجرى طوال الوقت تحت شعارات متعددة. تنوعت ابتداء من التقسيم إلى الإصلاح السياسي. وتغيرت من محاولة استخدام الجيش لحساب طائفة إلى محاولة توجيه الأحداث من خلال كرسي الرئاسة وعلى وجه التحديد معركة انتخابات الرئيس للسنوات الست القادمة. وباعتبارها قضايا سوف تستمر إلى سنوات بعد توقف العمليات العسكرية فانه من الضرورى محاولة تحديد مواقف كل طرف منها.

— ١ —

أثيرت قضية التقسيم بصور متعددة دون تحديد لسماتها الأساسيه. وإن أبرز

مايجب تسجيله أنها بقيت طوال الوقت محصورة فى إطار الجبهة اللبنانية وحدها بينما كانت الحركة الوطنية تحارب ضد التقسيم .

وكان أكثر ما يلفت النظر أن الذين رفعوا شعار التقسيم لم يكن بينهم واحد يدافع عنه علنا . فخلال مقابلاتى مع قيادات الجبهة لم أسمع واحدا منهم يقول بصراحة نعم للتقسيم . وكان الجميع يحاولون الالتفاف حول الشعار والاعتماد على الأمر الواقع . وكان كميل شمعون أكثرهم صراحة فقد جاء فى إجاباته أن التقسيم مستحيل لأسباب اقتصادية . فالشركات وخاصة الكبرى التى تمسك خيوط الاقتصاد اللبنانى شركات مشتركة بين المسلمين والمسيحيين على حد تعبيره أو موارنة الطرفين على حد تعبير قيادات الحركة الوطنية والتقسيم يعنى إفلاس بعضها وانهيار بعض آخر فالمسألة ليست قطعة جبن يمكن تقطيعها بل اقتصاد تمت عملية بنائه على مدى ثلاثين عاما . وكان الانطباع الذى خرجت به من مناقشة قيادات الجبهة هو أن قضية التقسيم أقرب أن تكون سلاح ضغط منها هدف باستثناء شخص واحد هو شربل قسيس رئيس الرهبانيات الذى يدعو إلى فكرة الاستقلال الذاتى أو الاتحاد الفيدرالى . و بشير الجميل المطامع فى وراثة لبنان المارونى .

والأهم من كل التصريحات سواء كانت صريحة أو متخفية وراء غموض الكلمات هو أن الجبهة كانت تعمل فى الواقع وفق خطة عملية للتقسيم حيث كانت فى كل مراحل الحرب تحاول أن يكون لها منطقة متكاملة تسيطر عليها رسميا وليس فيها جيوب ، وأصبحت جونية عاصمة الدولة التى لم تعلن رسميا ولها بنية سياسية وادارية . فرئيسها كميل شمعون وقائد جيشها بشير الجميل ولها مدير مخابرات ومدير أمن إلى جانب كل مناصب الإدارة الأخرى وعلى قمتها مجلس رياسة أو مجلس وزراء من أقطاب الجبهة شمعون - بيير الجميل - سليمان فرنجية - شربل قسيس . . وهى دولة فى منطقة مسيحية يديرها و يرأسها الموارنة . وتم عمل

مطار خاص بها للاستغناء عن مطار بيروت إلا إذا كان لتهريب الحشيش بأمان..!

ويمكن أن تتضح منطلقات هذه الدولة فى مذكرة الجبهة اللبنانية التى أرسلت إلى كثير من الشخصيات السياسية فى دول الغرب ونشرت اخيرا فى الكتاب الشهرى للكتائب « العمل » وجاء فيها أن ماكان يراد بلبنان هو قطعة عن تراثه التاريخى المتواصل بصورة تعسفية أى قطع لبنان المارونى عن جذوره فى الحروب الصليبية. كما كان يراد قطع لبنان المقيم عن لبنان ماوراء البحار أى أن يفقد الموارنة دعوى الأغلبية العددية إذ أن معظم المهاجرين من الموارنة وقد اندمجوا فى مجتمعاتهم الجديدة وحصلوا على جنسياتهم وقيادة الجبهة لا تريد منهم العودة أو حتى المال هى فقط تريدهم عددا وإلا أصبح الأرثوذكس أكبر منهم والسنة أكبر والشيعة أكبر الكل عددا. و يضيف كتاب الكتائب الشهرى إلى ذلك أنه أريد قطع اللبنانيين- الموارنة طبعا- عن جذورهم فى التراث الغربى المتراكم الكثيف الذى تفاعلوا معه عبر التاريخ والذى أعطوه الكثير وأخذوا منه الكثير وأخطر كلمات هذه الرسالة ماانتهت إليه وهو أنه من البديهى إذ نفذت هذه الأهداف الثلاثة أو واحد منها « تكون قد دكت كل أو بعض مايميز لبنان فيتساوى آنذاك والعالم المحيط به. و يبطل النفع من وجوده، فيبطل الخير المرتجى لذاته وللعالم ».

وواضح مدى الاستعلاء وعدم الانتماء الذى يشعر به قادة الجبهة حلفاء عدد من الحكومات العربية فهم يخافون أن يتحدر بهم الأمر إلى درجة التساوى مع العرب ثم إنه إذا تحقق يبطل فى نظرهم النفع من وجود لبنان المارونى.. فهل حاول أحد من الذين ساندوا الجبهة من العرب أن يعرف ماهو هذا النفع للغرب فالرسالة موجهة إلى قيادات العالم الغربى أساسا عن وجود لبنان المارونى....!

والمهم أن الدولة التى تكونت عمليا هى ليست عربية اعتمادا على خطأ يشع

وهو تصور أن العروبة هي الإسلام. وأن لهذه الدولة دورا محددا فى المنطقة تحققه لحساب العالم الطامع فى السيطرة على هذه المنطقة.

والمسألة لست سياسية ودور للموارنة مطروح بل نظرة إلى المحيط العربى لاتختلف كثيرا عن نظرة الحملة الصليبية رغم مرور مئات السنين. وقد عملت جماعة شربل قسيس على تعميق التقسيم فى نفوس المسيحيين بشكل خطير. فى كراسات جماعة الكسليك والتى قال لى عميد الكلية الفنون وهو راهب لقد فضلنا إصدار الكراسات دون توقيع أو شعار الرهبان وفى الكراسة أو المنشور الأول تحذر المسيحى وتثير خوفه من العرب المسلمين لأنه «فى دار الإسلام هو كافر وعدو الله. له أن يعيش شرط أن يعيش ذليلا. فإذا ساد الإسلام فسوف يكون حال الموارنة من أهل الذمة أى ليس لهم أن يأتوا الكنيسة مجتمعين بل عليهم أن يتسللوا لو اذا أى مستترين. كما أن المسلم لايبدأهم بالسلام عملا بالحديث النبوى القائل لا تبدأ واليهود والنصارى بالسلام. واذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه. ذلك لأن عقد الذمة اقتضى أن يكونوا تحت الذلة والقهر.. وإذا كانت - والكلام مازال لجماعة شربل قسيس - فى وحدة التاريخ. فتاريخ العرب هو تاريخ المسلمين، أى تاريخ قهر النصارى وتحويلهم إلى ذمة أذلاء. وإن كانت فى وحدة التراث فالتراث إسلامى حتى مطلع النهضة وليس للنصارى فيه إلا اليسير اليسير. وإن كانت فى وحدة اللغة فقد حرم على النصارى فى الماضى تعلمها ومازال حتى اليوم ينكر عليهم حق تعليمها فى المدارس الابتدائية».

هل بينكم من يصدق أن بيننا يعيش أناس هذه أفكارهم وهذه دعاياتهم ومع ذلك فحسب كلام شربل قسيس أنه وجد الدعم والمساعدة المالية والسلاح من العرب لمواجهة المسلمين الذين أصبحوا إما شيوعيين أو تحت سيطرة الشيوعيين..!

الأبعد من ذلك هو الادعاء أنه للموارنة قومية خاصة بهم وتختلف عن القومية

العربية طبعا بل وتتناقض معها و بالتالى فهى أيديولوجية التعبير عن الذات فى عملية تفتيت لبنان أو تقيسمه وفى دراسة قامت بها جماعة الكسليك تقول المحاضرة الأولى منها أن دعوتنا لقومية لبنانية ترجع لأن « هناك إقليما تفرد منذ القديم بخصائص جعلت منه وطنا مميزا وشعبا له ذاتيته الخاصة .. فالأمر الأكبر هو هذه المنطقة ـ لبنان ـ هى من أقدم مواطن البشر . وأن التقاليد الفينيقية القديمة ترجع أصل مدننا الساحلية كجبيل و بيروت وصيداء وصور إلى الآلهة . إن موقع لبنان الجغرافى على مفترق طرق بين الشرق والغرب يربط بين قارات ـ ! ـ حيث تنصهر الحضارات وتتلاقى المعتقدات جعله مميزا عن سائر البلدان وأسهم كثيرا فى تكوين دوره التاريخى الخاص الذى طبع الحضارة المتوسطة والانسانية بطابعه الشخصى .. ! »(١)

لقد اتصف هذا الشعب منذ القدم بالصمود فى وجه كل فاتح ـ و بتمتعه بالاستقلال الجزئى أو الكامل خلال العصور . فهو واثق من مصيره « نزاع دوما إلى إثبات شخصيته » .

أما المحاضرة الثانية فى الدراسة الرهبانية فيلسوف القومية اللبنانية « المارونية » كمال يوسف الحاج و يقول « إن هناك برهانا على أن القومية اللبنانية هى وحدها الموجودة فى لبنان فعلا وقانونا . وسواها غير موجود فى لبنان لا بالفعل ولا بالقانون . وإلى هنا والكلام إقرار بحقيقة يراها الفيلسوف . أما البرهان عليها فهو « مما لا شك فيه أن حقيقة الشىء ، مطلق الشىء موجودة فى هو ية هذا الشىء . والهو ية جوهر مضمون وشكل ضامن هى جوهر يحتوى الشىء عليه فى الداخل ، وهى شكل يحتوى الشىء عليه فى الخارج . الجوهر باطن ، الشكل ظاهر . بالشكل يدرك الشىء حواس الإنسان ليصبح معرفة ، إذ العارف هو الإنسان ، الذى لا يستطيع أن يعرف الشىء ، إذا كان هذا الشىء لا يدرك بشكله الخارجى حواس الانسان .

لامعرفة من قبلنا للمضمون فى الداخل بدون الضامن فى الخارج لذا لاباطن فى الداخل بدون ظاهر فى الخارج ... أى لاجوهر فى الداخل بدون شكل فى الخارج . تلك هى الجدلية التى تعنى أيضا أنه لاشكل لجوهر بدون اسم يعبر عن هذا الجوهر « هذا هو برهان القومية » ... فهل فهم أحد شيئا مع أننى لم ألعب فى الألفاظ ولاغيرت من مواقع الكلمات فهى سطور عربية اللغة تعبر أن للبنان المارونى قومية خاصة !

وبحثا عن المجهول وجدت فى المحاضرة الخامسة تفسيرا للقومية وذاتية لبنان ونصها هى الأخرى حرفيا « خزائن العلم فى العالم كنوزها فى لبنان . متاحف العلم فى العالم . كنوزها من لبنان . متاحف الحضارات ، أرشق قصصها من لبنان . لغات الأمم أجمل حروفها من لبنان . نبرات الحق نحتت إبرته أحداق من لبنان . قواس العدالة زرعت خشبة أيد من لبنان طيلسانات المحاماه نسجتها للعالم أنوال من لبنان ، غرائب الدنيا السبع أسطورتها الكبرى فى لبنان . شجرة الخلود انتقت لسكناها البر مدى قمة من لبنان . طفل الألوهة تعمد فى ماء من لبنان وعندما ضجر من الهيكل الذى جعلوه مغارة ، استراح على أرض لبنان .. أترى آدم هل هجر الجنة إلا كرمى لك يالبنان ؟ « .. برجاء الا يسخر أحد منى فهذه هى حرفية ماسجلته سطور الكتاب . وقد حذرنى أحد المراسلين الأجانب فى لبنان أنه حين أشار تلميحا إلى فكر هؤلاء القوم لم يصدقه أحد ولكننى قلت سوف أجرب حظى ومعه سوف أعود بنسخ من هذه الكتب التى يكاد يصعب الآن الحصول عليها وجندت هذه المدرسة شخصية مارونية هى الأب يوسف ضو لعمل تاريخ للموارنة نشره فى ثلاثة مجلدات ، لعلها تجد يوما مؤرخا جادا يقرأ صفحاتها الغريبة والتى جعلت عمر بن الخطاب يعقد حلفا مع الموارنة قبل أن يوجد الموارنة ـ لكنها هكذا فى رأيهم قصص التاريخ تروى حسب هواهم . والكل كان يسمعها من لبنان على أنها صفحات من كتب ضاحكة إلى أن فوجىء الكل ، فإن ما لايصدق يراد به أن

يتحول إلى واقع . وهنا لابد أن أروى قصة سمعتها من شابة لبنانية مارونية . كانت تتحدث عن مأساة عمرها قالت « كنت وأنا طفلة تدعونى الراهبات مع زميلاتى الأطفال فى المدرسة إلى دعاء فى لحظات الخطر هو استدعاء للإله على غير الموارنة بل كانوا يقولون لنا لاتخافوا . فإن جاء مكروه فسوف يذهب إلى غيركم لأنكم شعب الله . وكدت لاأصدقها لولا أننى أعدت القصة على مسامع كثير من المثقفين من الموارنة فأكدوا لى أنهم كانوا يتعلمون وهم صغار نفس الأفكار »

وهكذا يتضح أن الموارنة كانوا يسعون إلى تقسيم فعلى قبل أن يرفع أحدهم علنا شعار التقسيم الرسمى . أو هم على الأقل يخلقون مجتمعا شبه مغلق عما حوله بقيود نفسية واجتماعية وهى قريبة الشبه بفكرة الجيتو» الصهيونية .

وقد خرجت من المناقشات العديدة مع كل الأطراف إلى أن فكرة إعلان مارونية أو مسيحية فى لبنان هى مسألة للمساومة وليست للتطبيق . وقد نجحت الفكرة فى الضغط فعلا على عواصم عربية للتحرك فى اتجاه الموارنة . وتم ذلك عن طريق تسريب المعلومات عن مشروعات تدرسها قيادة الجبهة ومثال ذلك مانشرته صحيفة المحرر اللبنانية(٣) عن وجود تقرير خطير أعد فى إجتماع قيادة الجبهة (شمعون- الجميل- فرنجية- قسيس) ويهدف إلى :

** نقل القضية اللبنانية إلى الأمم المتحدة بهدف تدويلها .
** إعلان الدولة المسيحية بعد قبول عرض القضية على مجلس الأمن .
** التحرك السياسى عربيا ودوليا لكسب تأييد عربى ودولى وإثارة الفرقة بين الدول العربية حول إنشاء الدولة وبالتالى جعل اليد العليا للموقف الدولى .
** العمل على الوصول إلى هدنة بوقف القتال لأشهر ثلاثة يتم خلالها التحرك السياسى .

وقد حاولت جبهة لبنان تجنيد بعض الحكومات الصديقة لهم لدعم فكرة التدويل وتدخل الأمم المتحدة فأجرت اتصالات مكثفة بالحكومتين الفرنسية والأمريكية لحملها على التأييد طرح القضية على مجلس الأمن. كما حاولت الجبهة الاستعانة ببعض الشخصيات السياسية ولكنها لم تجد استجابة من أحد باستثناء عضو بمجلس الشيوخ الأمريكي جورج ماكجفرن ـ الذى طلب من الحكومة الأمريكية إرسال قوة أمريكية دولية إلى لبنان تعمل تحت راية الأمم المتحدة إذا فشلت قوات الأمن العربية فى وقف القتال (٥) وقد وصل الأمر إلى حد أن بيير الجميل وجه نداء إلى الجامعة العربية لتعلن عجزها عن حل الأزمة والإسهام فى تدويلها وفى الوقت الذى كان رئيس حزب الكتائب كثير الحديث عن التدويل(٦) كان سليمان فرنجية يبلغ القائم بالأعمال الفرنسى والسفير البابوى إن الجبهة تسعى لتدويل الأزمة و يطلب من الدولتين دعم هذا الموقف(٧). وكان شربل قسيس يقوم بجولة أوربية قدم خلالها تقريرجماعة الكسليك إلى البابا برجاء تدخله لتدويل الأزمة.

وانتهت هذه الاتصالات جميعا بالفشل «تقريبا لأسباب كثيرة. والمهم أنها لم تجد الاستجابة الكاملة بل وتأكدت قيادة الجبهة أن التدويل الذى كان الخطوة الأولى نحو التقسيم بإعلان فكرة اللامركزية أو ان تكون لبنان اتحاد فيدرالى. وكان واضحا أن الأمر غير محدد فى أذهانهم تماما باستثناء المشروع المتكامل الذى أعده حزب شمعون ـ الأحرار ـ والذى يدعو إلى إنشاء ولايتين فى لبنان حيث تعود لبنان المارونية إلى ماقبل الاستقلال مع بعض التعديل و يترك للحكومة الوطنية مراكز طفيلية. وشعار الجبهة كان. مالنا فهو لنا وما هولكم فهو لنا ولكم..!. وهو ماأوضحته مجلة الحوادث وقد حاول الكل إنكار وجود مشروع الولايتين إلى أن عثرت على إحدى نسخه وهى فى ملاحق الكتاب. (٨)

وكان من الممكن النظر إلى فكرة اللامركزية على أنها إحدى اقتراحات الإصلاح الإدارى لولا أنها طرحت على أساس طائفى مما يجعلها نوعا من التقسيم أو خطوة على طريق التقسيم ثم إنها خرجت فى مناخ عام يدعو إلى الشك و يدفع إلى الرفض. ولذلك كانت ردود الفعل مختلفة فالقيادات التقليدية الإسلامية كانت ترى أن فكرة اللامركزية الإدارية فكرة مقبولة ولكن بعضهم قال إن الخوف أن تتحول إلى خطوة نحو التقسيم ولذلك فهى مرفوضة من هذا المنطق. ولابد من ملاحظة أنه بينما كان حزب الأحرار يتحدث عن الولايتين كانت قيادات الجبهة الأخرى تسمى ذلك بنظام « الكانتونات » السويسرى ومن أكبر أوائل الدعاة لها الرئيس السابق شارل حلو. وهى الفكرة التى تجد استجابة من عدد من الدول فى المنطقة أو خارجها. وإذا كانت الفكرة ترتبط عادة فى الأذهان بالنظام السويسرى فإن جبهة لبنان لا تقبل النظام السويسرى ولكنها تأخذ من ملامح نظامه مايناسب دعوتها للتقسيم، وأقصد على وجه خاص نظام التمثيل النسبى فى الانتخابات الذى ترفضه الجبهة تماما بينما هو من أعمدة نظام الكانتونات فى سويسرا. كما أن هناك خلطا إما نتيجة الجهل أو التعمد بين نظام اللامركزية وبين نظام الكانتونات فنجد مثلا كلمة لبيير الجميل يقول عن اللامركزية هى أن يكون لبنان عدة دويلات طائفية يجمعها نظام اتحادى و يكون لكل منها بنيتها التحتية بحيث يكون أجهزتها الإدارية والتربوية و يضيف إلى ذلك والأمنية و وسائل اتصالها بالعالم أى الأمن والخارجية كما تحدد شروط التجنس وتملك الأجانب. وتتمتع كل منها أيضا بحق التفاعل مع الثقافات التى تختارها بالإضافة إلى المنهاج التعليمى المشترك (٩). وواضح أنه يتحدث فى مارس ١٩٧٧ عن دولة مارونية مستقلة أى عن تقسيم. فهو يختلف تماما من اللامركزية الإدارية التى تهدف لزيادة فاعلية الدولة فى تقديم الخدمات للمواطنين بل وتزيد عن نظام الكانتون أو الولاية السويسرى. حيث لها سلطة الأمن والخارجية والتجنس والعلاقات الثقافية. !

وكانت دعوات الجبهة للتقسيم سواء كانت تحت شعار التدو يل أو الكانتونات أو اللامركز ية مرفوضة بشكل قاطع من الحركة الوطنية ومن القيادات الدينية المسيحية باعتبار أن شربل قسيس رئيس الرهبانيات قد دخل دائرة القيادات السياسية بعضو يته فى الجبهة . فقد أعلن البطر يرك خر يش بطر يرك الموارنة أكثر من مرة بشكل قاطع و واضح معارضته للتقسيم وذلك فى تصريحات منشورة وفى أحاديثه مع القيادات اللبنانية ومبعوثى الدول العر بية والأجنبية الذين قاموا بدور فى الأزمة اللبنانية . ونفس الموقف أخذه البطر يرك مكسيموس حكيم بطر يرك الروم الكاثوليك وأعلن بوضوح أنه ضد التقسيم . وأن مثل هذا الرأى له آثار سلبية على المنطقة .

ولم يختلف موقف البطر يرك إلياس الرابع بطر يرك الروم الأرثوذكس عن ذلك بل وأكد على ضرورة أن يبقى لبنان موحدا وعر بيا . وأن يتم عزل الذين يعملون من أجل التقسيم وقد أشرت إلى هذه القيادات على وجه خاص لتوضيح أن القيادات الدينية المسيحية ضد الذين يعطون أنفسهم حق الحديث عن المسيحيين فالمسألة ليست دينية وإلا كان لرجال الدين فيها رأى آخر . والواضح أن الجبهة لا تتحدث باسم المسيحية الدين ولكنها تتحدث باسم مصالح اقتصادية وسياسية تستغل اسم الدين . فان أضيف إلى رأى قيادات الكنيسة رأى قيادات المسلمين وفى مقدمتهم مفتى لبنان الشيخ خالد لظهر أن الأغلبية ضد التقسيم تحت أى أسم أو شعار ولايقف مع جبهة لبنان سوى إسرائيل والولايات المتحدة باعتبار أن التقسيم يمثل نوعا من حزام الأمن حول إسرائيل و بالتالى يعتبر خطوة نحو حل عقبات التسو ية إلى جانب أن وجود دول على أساس دينى يلغى كل مبررات الرفض لأساس الوجود الصهيونى على أرض فلسطين .

وإذا كانت فكرة التقسيم قد رفضت فإن الأمر المطروح هو الإصلاح بكل أبعاده فى إطار الدولة الموحدة وتحديد مواقف الأطراف منه .

- ٢ -

المؤكد أنه إذا كان التقسيم شعارا عملت من أجله جبهة لبنان فإن مطلب الإصلاح كان شعار الحركة الوطنية . ومعالجة الإصلاح أمر بالغ الصعوبة للامتداد التاريخي الطويل لمحاولات تغيير النظام اللبناني الذى لا يريد القائمون عليه إجراء أي تعديل فيه لمواجهة تغيرات العصر ، وهو ما أدى إلى أكثر من صدام . وخوفا من الضياع على صفحات التاريخ فإن الأمر يحتاج إلى نظرة إلى الواقع الحالى واقتراحات تغييره .

وكانت أول اقتراحات محدد هى النقاط الخمسة التى قدمها رشيد الصلح فى بيان استقالته أمام مجلس النواب وتدور حول تحقيق إصلاح سياسى ديمقراطى يؤمن توزيعا للصلاحيات ثم الالتزام بمقتضيات المعركة العربية فى مواجهة العدو الصهيونى وإقامة علاقات راسخة مع المقاومة على أساس التنسيق الكامل . تعديل قانون الجيش وإخضاعه للسلطة السياسية . إقرار قانون التجنس . معالجة الوضع المالى والاقتصادى والاجتماعى والسير نحو العدالة الاجتماعية بخطى أسرع . وبحكم أن رشيد الصلح كان يعتبر فى لعبة السياسة اللبنانية رجل جنبلاط فقد اعتبرت هذه النقاط مطالب الحركة الوطنية إلى أن أعلن كمال جنبلاط خطة من ١٤ نقطة (١٠) تفصل هذه المبادىء العامة وهى :

- لبنان بلد عربى شعبا ودولة ومصيرا اقليميا .
- لبنان الموحد بأرضه وكيانه السياسى ورفضه كل سعى للتقسيم والتجزئة الطائفية .
- التمسك بمبدأ المشاركة الشعبية الشاملة للفئات المحرومة والغاء الامتيازات على جميع المستويات .

- ضرورة تعديل النظام السياسى بما يتناسب مع تحديث المؤسسات وتأمين المشاركة دون تمييز طائفى أو دينى .
- الالتزام المبدئى ، والعملى بحرية الاعتقاد والفكر والمنهج الديمقراطى السلمى بعيدا عن الإرهاب ولغة العنف والميلشيات .
- رفض فكرة الأوطان المختارة والشعوب المختارة .
- رفض النظام العسكرى لتأليف الأحزاب ورفض الإرهاب المسلح .
- الالتزام المبدئى والعملى بعدم حماية الاحتكارات الاقتصادية وبعدم الدفاع عن مظاهر الرأسمالية الحرة .
- العزوف عن المخاطبة الطائفية .
- الامتناع عن أرهاب جمهور المسيحيين الوطنيين والمسلمين .
- الالتزام بشعور المساواة والأخوة والإنسانية بالنسبة للعرب والأغراب فى لبنان .
- الالتزام بحكم القانون أى على رئيس الكتائب ومكتبه السياسى إعلان الاستعداد للرضوخ للتحقيق العدلى .
- اعتبار وضع الثورة الفلسطينية منبثقا من واجب الضيافة العربية اللبنانية وتكريسا باعتراف الدول العربية بالثورة على مثال الحكومات الشرعية فى المنفى .

وبرغم أن البرنامج الذى أعلنته الحركة الوطنية هو مجرد مبادىء عامة لا تمس بالتغيير جوهر النظام اللبنانى إلا أنها كانت مرفوضة من أطراف الجبهة وبرغم إقرار أى دراسة محايدة مثل التى قامت بها بعثات دولية مختلفة بأن نظام لبنان متخلف يحتاج إلى تغيير فإن كراسات جماعة الكسليك خرجت فى كتابها الثامن (١١) تقول «إن النظام اللبنانى من أذكى وأفضل الأنظمة المعروفة فى العالم اليوم» وبرغم التواضع فى جعل النظام اللبنانى واحد من أذكى الأنظمة إلا أنها جعلته أفضلها ،

ليس فى العالم العربى أو العالم الثالث مثلا بل فى العالم كله و بالتحديد اليوم وليس الأمس . وأرادت جماعة الكسليك توضيح عظمة النظام اللبنانى فذكرت أن الوزارة فى حاجة إلى ثقة رئيس الجمهورية قبل -! - ثقة المجلس النيابى لتمارس صلاحيتها . ثقة رئيس الجمهورية ضرورة لحكم الوزارة كثقة المجلس النيابى ثم عادت وكررت « وهو نظام عصرى من أذكى وأفضل الأنظمة السياسية فى العالم اليوم » . وقد حاولت البحث عن نظام فى العالم يساوى بين إرادة فرد حتى لو كان الرئيس و بين إرادة السلطة التشريعية فلم أجد فى حد علمى ولعل ذلك ما جعل لبنان فريد عصره . . . !

وفى سبتمبر سنة ٧٥ عقد مؤتمر جمع بين رؤساء أحزاب الموارنة والكتل النيابية لهم مع رؤساء الرهبانيات واستقر رأيهم على توحيد موقفهم فى جبهة واحدة والمهم هو إعلان إيمانهم الراسخ « أن الصيغة اللبنانية هى تجربة حضارية فريدة ومن الظلم أن يقضى عليها الجهل والطيش والتعصب » .

وقد نجحت الوساطة السورية مع غيرها من الجهود فى التوصل إلى تشكيل هيئة وطنية من عشرين شخصية لعمل حوار حول الخلافات على تعديل وتطوير النظام وسميت بهيئة الحوار الوطنى . وبدأت اجتماعاتها فى ٢٥ سبتمبر . و بالرجوع إلى المحاضر الرسمية للاجتماعات نجد أن بيير الجميل أعلن فى الجلسة الأولى بشكل قاطع « نحن فى الكتائب ضد البحث فى تعديل الدستور . وإذا كان هناك إصرار على ذلك أسمح لنفسى بعدم حضور الاجتماعات .. وملاحظتى الأساسية أن المسلم اللبنانى متمسك بالصيغة اللبنانية الحالية ، أما الأفكار الأخرى فهى مستوردة -! - إما من بعض الأنظمة العربية أو موحى بها بمؤامرات إسرائيلية . . ! فأصبحت اسرائيل فى نظر الكتائب هى التى تقف مع الحركة الوطنية لتحديث نظام لبنان .

وكان تعليق عبد الله اليافى رئيس وزراء لبنان السابق « أن النظام الحالى هو دينى وهذا لايجوز أن يستمر مع الزمن وأن الصلاحيات التى يتمتع بها رئيس الدولة لايتمتع بها أى رئيس فى العالم ، وهو غير مسئول وقد يكون التطوير بتعديل الدستور أو بتفسيره فهذا غير مهم » واحتدت المناقشة بين اليافى والجميل ، وكان رشيد كرامى رئيس الوزراء أكثر تحديدا فقال » إنه منذ سنة ١٩٤٣ لم يخلق لبنان الوطن والمشاركة السياسية لم تكن إلا فى القمة . والدولة لم تعمل شيئا للمواطنين باستثناء الضمان الجماعى ، ولذلك لم يتحقق التعايش الصحيح الوطنى بين المواطنين لأن كلا منهم لايصل إلى حقه إلا بإنتماء حزبى أو عشيرى أو طائفى أو إقليمى . وانطلاقا من هذا الاعتبار يجب أن يتركز بحثنا حتى يصبح لبنان للجميع » ، وانتهت الجلسة الأولى بلا اتفاق إلا الإجتماع مع وزير خارجية سوريا لتوجيه الشكر له . ومع بداية الجلسة الثانية أبلغت الهيئة بأن عناصر كتائبية قامت بخرق اتفاق وقف إطلاق النار الذى تم التوصل اليه قبل اجتماع الهيئة . وكان واضحا فى الجلسة الثانية أن الكتائب لا تريد الحديث إلا فى مسألة الأمن . والأمن من وجهة نظرها هو الوجود الفلسطينى فى لبنان . ووسط آراء متناقضة طرح ريمون اده سؤال حول ماإذا كانت هناك خطة أمريكية لمصلحة إسرائيل . فنحن نريد أن نعرف ذلك . وإنى أتساءل ماذا يفعل وزير الخارجية فى نيو يورك وهل هو يستعلم عن ذلك ؟ « المهم أن نعرف مصير بلادنا . وهل هناك من يسعى إلى تقسيم بلادنا بدون علمنا » . ولم يرد أحد على التساؤل طبعا . . ؟

وحاول صائب سلام رئيس الوزراء السابق تجميع الخيوط فى مناقشة أشبه ماتكون « بحوار الطرشان » حتى إن أحدا لايسمع إلا نفسه فقال إن المهم أن لاتدور فى حلقة مفرغة ومن الضرورى أن نصل إلى قاسم مشترك وفيما يتعلق بمسألة الأمن التى تطرحها الكتائب فإنه عندما « ضبطت الحكومة أمرها انضبط الأمن وكذلك

المقاومة . ولم تحدث خلال سنتين وأشهر أية حادثة أمن معها . وكما نقول عن المقاومة إنها غير منضبطة نكون بالواقع نخفى حقيقة أساسية وهى أننا نحن كلبنانين لسنا منضبطين . وكسلطة غير موجهة . ونرجو أن نضبط أنفسنا حتى تنضبط المقاومة » . وهكذا ضاعت الجلسة الثانية دون أن تمس صلب المشكلة اللبنانية ونجحت الكتائب فى تحريف مهمة الهيئة إلى بحث مسألة الوجود الفلسطينى والأمن . وفى الجلسة الرابعة أثار ريمون اده سؤالا موجها إلى كميل شمعون وزير الداخلية « لماذا لا تنفذ التعليمات ولماذا لا تطلق قوى الأمن النار على أى مسلح أو أى حاجز أو أى مطلق نار أو أى خاطف ؟ هل هناك تآمر من الضباط أو إهمال ؟ لقد رأيت حواجز توقف الناس على مرأى من قوات الأمن » . وكان رد كميل شمعون أن قوات الأمن بشر وأنهم بدأوا يفقدون معنوياتهم . وهكذا ضاعت الجلسات التسع التى عقدتها الهيئة بالحديث عن الأمن . وهو نفس المنهج الذى سارت عليه الكتائب فى اللجنة الفرعية لهيئة الحوار وهى لجنة الإصلاح السياسى ، وإن كانت اللجنة أكثر حظا فى المناقشات الموضوعية . فقد طرحت القضية بوضوح وتعرض الكل لعملية توصيف الأمة من طائفية لابد أن تلغى إلى « مافيا » حسب تعبيرهم تتحكم فى مرافق الدولة يجب التصدى لها ، ولكن المناقشات لم تستطع الوصول إلى أكثر من التوصيف والنقد دون تجاوز ذلك إلى وضع توصيات . وحين استطاعت اللجنة فى آخر جلساتها وهى الجلسة السادسة أن تصل إلى توصيات بإلغاء الطائفية الإدارية أى الوظيفة وإلغاء الطائفية السياسية كان ذلك فى غياب حزب الكتائب الذى أعلن بعد ذلك رفضه للتوصيه ومعارضة حزب ريمون أده أى معارضة الموازنة باختصار . وبالتالى تكون اللجنة عمليا لم تستطع أن تصل إلى شىء .

وقد استطاعت أطراف الجبهة نقل الحوار إلى مواقعهم حيث الأغلبية العددية لهم . فقد قام كميل شمعون بنقل الحوار إلى مجلس النواب منتهزا فرصة اجتماع

المجلس لتجديد رياسة كامل الأسعد له . فطالب المجلس أن يواصل اجتماعاته و يتولى بنفسه بحث الموضوعات التى تتناقلها الألسن وتتبناها لجان وهيئات غير مسئولة . فالمجلس هو وحده الذى يعدل الدستور وهو الذى يؤمن بالإصلاح . و بالتالى لايكون لكافة الآراء التى تتخذ هنا وهناك أى مفعول إلا إذا اقترنت بموافقته . كما قام سليمان فرنجية بنقل الحوار إلى مجلس الوزراء . (١٢) .

وقد ارتبط إنهاء هيئة الحوار بتصعيد فى العمليات الحربية ومحاولة التأكيد على الطابع اللبنانى . الفلسطينى للصراع وفى نفس الوقت تركيز حملة الإعلام على اتهام الحركة الوطنية بالخضوع لليسار الدولى الملحد . وقام كمال جنبلاط بإرسال خطاب إلى فرنجية فى ١٨ ديسمبر ذكر له فيه أن مسألة اليسار الدولى بدعة فى حد ذاتها لايزال يتحدث عنها بعض المتخلفين فى حقل السياسة الدولية لأن اليسار الدولى انتهى منذ زمن بعيد بعد حل الكومنفورم . و بعده بعشرة أيام نفى جورج حاوى أن يكون حزبه ـ الحزب الشيوعى اللبنانى ـ قد طرح إطلاقا مسألة تسلم السلطة حاليا أو مستقبلا والأمر على عكس ذلك فإننا نطالب بالإصلاح وفقا لبرنامج الحركة الوطنية وهو برنامج ليس اشتراكيا ولاشيوعيا بل هو برنامج إصلاحى ديمقراطى فى إطار النظام الرأسمالى (١٣) .

وواضح أن الحوار دخل إلى طريق مسدود بين الأطراف المختلفة . وقد سارعت قيادات جبهة لبنان إلى تعديل فى موقفها بعد أن انكشفت أمام جميع الأطراف وفى الشارع اللبنانى على وجه خاص أنها هى القوة التى تقف ضد الإصلاح . وهو ماقد يعرضها لأزمات مع قواعدها الجماهيرية خاصة وأن الحوار أوضح أن مواقف الحركة الوطنية تكاد تطابق مواقف القيادات الإسلامية التقليدية أى أن الجبهة بعنادها أصبحت عامل توحيد للقوى التى تقف فى مواجهتها . وأمام هذا المأزق طرحت فكرة تبدو وكأنها تزايد على الحركة الوطنية ولكنها فى الواقع فكرة دفاع عن

المواقع ومحاولة تفتيت الجبهة التى تكاد تنضج بين الحركة الوطنية والقيادات التقليدية الإسلامية . فقد طرحت فكرة العلمانية باعتبارها بديل الطائفية . وقد يبدو الأمر منطقيا وهو ماكنت ألمسه من بعيد . وذهبت إلى كل الأطراف وكان أكثر مالفت نظرى هو ما أوضحه لى الأباتى شربل قسيس من أن المسألة هى قانون الأحوال الشخصية و بالشرح والتوضيح ظهر أن فلاسفة جماعة الكسليك وضعوا أمام الجبهة دراسة حول الزواج فى الإسلام ومنها يتضح أن زواج المسلمة بغير المسلم محرم دينيا ومن هنا جاءت ثغرة العمل بأن من يريد إلغاء الطائفية عليه بقبول العلمنة والعلمنة هى قانون موحد للأحوال الشخصية أى للطلاق والزواج و بالتحديد لزواج المسلمة من غير المسلم وكأن مشكلة لبنان هى مسألة زواج من غير مسلم . وهكذا تركز الحديث فى العلمنة على قانون الأحوال الشخصية (١٤) . وحاولت من المناقشات أن أفهم لماذا الإصرار على قانون الأحوال الشخصية فقال لى شربل قسيس إنها مسألة العدد . فماذا يظن المسلمون أنفسهم .. هل رجالهم أكثر فحولة من رجالنا . إن لدينا رجالا فى الجبل يمكن للواحد منهم أن ينجب عشرة وعشرين ولكن المسألة يجب أن تخضع لضوابط . وكان موقف الجبهة عامل استنفاز للقيادات الإسلامية ولكنه أيضا حقق جزءا من اهدافه بعودة تمايز موقف القيادات التقليدية عن قيادات الحركة الوطنية : كما لعبت سوريا دورا فى محاولة تفتيت موقف القيادات فى الحركة الوطنية مع تزايد تقارب قيادات الجبهة معها . و باتفاق سورى ماروفى فى الأساس على العناصر التى أستقطبها الدور السورى من الحركة الوطنية طرحت فكرة الإصلاح . ومن خلال لقاء سليمان فرنجية مع حافظ الأسد تم التوصل إلى اتفاق أعلنه فرنجية فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٦ وهوماعرف « بالوثيقة الدستورية » (١٥) وجاء فيها :

●● التأكيد على العرف القائم بتوزيع الرئاسات الثلاث (رئاسة مارونية ـ رئاسة الوزارة سنية ، ورياسة مجلس النواب شيعية .

●● توزيع المقاعد النيابية بالتساوى بين المسلمين والمسيحيين ونسبيا ضمن كل طائفة وتعديل قانون الانتخاب فى ضوء ذلك بما يضمن تمثيلا أفضل للمواطنين .

●● انتخاب رئيس الوزراء من قبل المجلس النيابى بالأغلبية النسبية و يتم وضع قائمة أسماء الوزراء بالاتفاق مع رئيس الجمهورية .

●● اعتماد أكثرية الثلثين فى مجلس النواب لإقرار القضايا المصيرية وأكثرية ٥٥٪ لانتخاب رئيس الجمهورية .

●● وضع نص يجعل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مسئولين باعتبار أن النظام اللبنانى يخلو من تحديد مسئولية هؤلاء وإنشاء المجلس الأعلى لمحاكمة الرؤساء والوزراء .

●● تعزيز اللامركزية فى العمل الإدارى .

●● إزالة الطائفية واعتماد مبدأ الكفاية مع المحافظة على مبدأ المساواة فى وظائف الفئة الأولى .

●● العمل على تحقيق عدالة اجتماعية شاملة من خلال الإصلاح المالى والاقتصادى والاجتماعى .

●● تعزيز التعليم العام بما يؤدى إلى تعميم التعليم المجانى والزاميته وتطوير البرامج التربوية بما يرسخ الوحدة الوطنية .

●● وضع سياسة دفاعية وتعزيز الجيش .

●● تكريس حرية مسئولة للصحافة تضمن انسجامها مع سياسة المجتمع وتحقيق الوحدة الوطنية وتوطيد علاقات لبنان العربية والدولية .

●● تعديل قانون الجنسية .

وقد اثارت الوثيقة ردود فعل متباينة إلى حد بعيد بل ومتناقضة حتى للطرف الواحد .

فقد صرح بيير الجميل لصحيفة النهار في اليوم التالي مباشرة أن المبادئ التي أذيعت لن تقدم أو تؤخر وأنها كرست الطائفية بعد ما كنا نسعى لمحاربتها . واتمنى ألا يمس الدستور لأننا في الكتائب طالبنا بعدم ذكر ذلك في الدستور « . إلا أن المكتب السياسي برئاسة بيير الجميل أصدر بعد ذلك بيوم واحد أيضا بيانا ذكر فيه أنه تلقى رسالة فرنجية بالإيجابيه وان العبرة ليست بالنصوص وإنما بالنيات . وان العناوين التي وردت في الرسالة - الوثيقة - تصلح أساسا للتفاهم الوطني » . والمؤكد أن التناقض بين الموقفين خلال ٢٤ ساعة يعود إلى دراسة الموقف وترك رفض الوثيقة لعناصر أخرى غير الكتائب طالما أن الحزب تأكد من أنها سترفض وبالتالي يبدو لأول مرة وكأنه الموافق الوحيد بعد أن أعلن رئيسه في البداية الموقف الحقيقي للحزب خاصة وأن الذين يعرفون الحزب يعرفون أن - المكتب السياسي في النهاية هو بيير الجميل .

وقد نشرت جماعة الكسليك تعليقا على الوثيقة في إحدى كراساتها (١٦) بأن « في الرسالة أجزاء هي في منآى عن كل نقد أو جدل وثمة أجزاء أخرى تثير التحفظ وشيئا من القلق وهي .. كيف سيكون مثلا قانون الجنسية الجديد ، ثم أي مصير سيكتب لدولة تتخذ الوحدانية لها شكلا في حين ستكون سلطتها التنفذية برأسين وسلطتها التشريعية ترتدى ظاهر المجلس الكونفدرالي .. وقد تحول لبنان في رسالة الرئيس من لبنان ذي الوجه العربي إلى لبنان العربي .وهو ما يرضي الإسلام اللبناني . إن الرسالة إذ تؤكد عروبة لبنان تضع على المحك رفض المسيحيين وجود مصالح عربية تسمو على مصالح الدولة اللبنانية ، كما يضع على المحك رفض الإسلام اللبناني اعتبار لبنان غاية بذاته وكيانا نهائيا .. إن إرادة الرئيس حتى ولو حظيت بموافقة أسياد دمشق أو جاءت بوحي من منهم كما يتراءى لن تكفي لتبديل هوية المسيحيين اللبنانيين الوطنية » . وتنتهي الكراسة الرهبانية إلى أن الرسالة غير مقبولة

بكاملها كوثيقة وأنها تستحق الرفض الصارم الذى سبقنا إلى إعلانه حراسه الأرز بشجاعة .

وأعلن ريمون اده زعيم حزب الكتلة « أن رسالة الجمهورية تشكل تزويرا للتاريخ لأنها لا تأتى عن ذكر الأسباب الحقيقية التى من أجلها تقاتل اللبنانيون أو بعض اللبنانيين طوال عشرة أشهر » .

وهكذا تكون قيادات الموارنة قد رفضت عمليا الوثيقة وهى خطأ سميت دستورية لأنها مجرد اقتراح ليست له أى صفة دستورية . وإعلانها من الرئيس لايعطيها هذه الصفة .

وكان رأى القيادات التقليدية ـ الإسلامية ـ لايختلف كثيرا فقد أعلن عبد الله اليافى أن النقاط الإيجابية دون طموحنا وإبراز السلبيات تكريس الطائفية وإضعاف صبغة عروبة لبنان ، وصائب سلام قال إن الرسالة فيها تناقضات كثيرة .. وهى تكريس لطائفية الرئاسات . أما مفتى لبنان ـ الشيخ حسن خالد ـ فقد أعلن قبوله للرسالة وقال إنها « تسوية مرحلية » أوقفت القتال . كما رحب الإمام الصدر بالرسالة وأيدها .

أما الحركة الوطنية فقد أعلن المرابطون ـ حركة الناصريين المستقلين ـ إن الرسالة جاءت بمنطق طائفى مرفوض وزادت فيها سلبياتها على إيجابياتها . وأعلن الحزب التقدمى الاشتراكى ـ حزب جنبلاط ـ أنه يرى الاستمرار على الاتفاق الضمنى غير المكتوب بأن ينتخب مسيحى رئيسا للجمهورية و يوافق على التوزيع النصفى للمقاعد النيابية و يضيف إلى الوثيقة اقتراح إنشاء محكمة دستورية عليا للنظر فى دستورية القوانين .

وهكذا ضاعت رسالة فرنجية ـ الأسد أو الوثيقة الدستورية كما يسميها البعض

وسط ردود الفعل المتناقضة إلى أن وقع انقلاب عزيز الاحدب ليكون شهادة الوفاة لها . و يعود بالموقف إلى بدايته . وهو ماينقلنا إلى القضية الثالثة وهى قضية الجيش .

٣

كانت صورة الأحداث من موقع القيادة العسكرية تختلف عنها من أى موقع آخر . فى التقرير السرى للعميد الركن موسى كنعان المعاون العلمانى لرئيس الأركان فى ١٢ نوفبر سنة ١٩٧٥ عن إمكانية التدخل لوضع حد للاقتتال الداخلى يقول التقرير بالنص الحرفى فى صفحته الثامنة : « إن الوضع الحالى فى البلاد فريد من نوعه ، فلا هو اعتداء خارجى ولاهو اعتداء داخلى بالمعنى المتعارف عليه »..

« موجز خصائص الاقتتال الحالى »

« يتخذ الصراع الحالى طابع الحرب الأهلية و يكاد يقسم البلاد إلى شقين »

« و يصعب معه تمييز العدو من الصديق »

« .. ضعف الدولة وشلل مؤسساتها (باستثناء الجيش) » .

« .. القوة العسكرية الكبيرة للفئتين المتصارعتين » .

« .. بقعة انعدام الأمان تتمدد وتتقلص بصورة دائمة » .

« ..أى عمل عسكرى أو حادث فى أى منطقة له انعكاس فورى على باقى المناطق » .

« .. عدم قدرة الدولة على اتخاذ موقف محدد وواضح تجاه أى من الفريقين ، أى عدم وضوح الموقف السياسى » .

« .. انعكاس الأحداث على نفوس العسكريين الذين هم فى النهاية من نفس طيفة هذا الشعب » .

و ينتقل التقرير إلى امكانيات الجيش ليقرر « بأن القوى المجمعة لن تكون قادرة على حسم الموقف العسكرى فى العاصمة لأن قتال الشوارع يبتلع العديد إذا لم يحظ بمساندة القسم الأكبر من الأهلين» . « والأهم هو أن القوى المتبقية فى المناطق لن تكون قادرة على القيام بأى دور سوى حماية ثكناتها ، و بالتالى فإن كل شىء عداها سيقع تحت رحمة المسلحين وستدمر المنشآت وتعطل الحياة العامة وتبقى القرى والمدن تحت رحمة الفريق الغالب فى المنطقة ، وستكثر أعمال القتل والنهب والتدمير وتقطع المواصلات بين المناطق » .

و ينتهى التقرير إلى تحديد شروط النجاح فى حال التدخل الكامل للجيش وهى :

« .. إجماع الرأى بين السلطات السياسية على قرار التدخل » .

« .. إيجاد مناخ سياسى ملائم فى البلاد للتدخل ، أى أن لايرتدى التدخل صفة مناصرة فريق على فريق » .

« .. القيام بعمل إعلامى لمحاربة حملات التشكيك والتجريح بالجيش »

« .. ضمان حياد المقاومة الفلسطينية » .

« .. جمع نفوس العسكريين حول فكرة يطيب للجميع (على اختلاف الرتب) القتال والاستشهاد من أجلها . فالمعركة تربح أولاً وآخرا فى النفوس وقبل بدئها » .

وهكذا يبدو من تقرير مساعد رئيس الأركان استحالة استخدام الجيش كوحدة متماسكة . و بالتالى فإن استخدامه سوف يجعله جيش فريق وليس جيش الدولة . وهو تماما ماحدث نتيجة عبث قيادة الدولة دون أن تسمع رأى حتى قيادتها العسكرية . وقد ترك انحياز الجيش أثره على العسكريين وخاصة استخدام الطيران ضد طرابلس إلى أن خرج الملازم أول أحمد الخطيب فى ٢١ يناير سنة

١٩٧٦ ليعلن تمرده مع عدد من العسكريين على قيادته التى انحازت إلى الانعزاليين. و يعلن تشكيل جيش لبنان العربى بعد ذلك بثلاثة أيام. وقد عوملت حركة أحمد الخطيب بقدر غريب من الاستهتار فى البداية وخاصة أن عدد العسكريين الذين كانوا معه كان محدودا للغاية ، حتى رغم إعلان بعض الضباط الانضمام إليه مثل قائد ثكنة بعلبك وجنوده. وكان مفتاح الموقف فى نظر القيادة المارونية هو الرواتب وأن منعها عن المتمردين سوف يجعل الجند ينفضون عن أحمد الخطيب والذى سوف يجد نفسه إما مضطرا للتسليم والمحاكمة أو الفرار خارج لبنان. وكانت هذه النظرة بالغة الغباء حيث قامت على تصور أن الموارنة هم وحدهم السلطة وأنهم القوة الوحيدة وهو مالم يكن صحيحا على الإطلاق.

فقد وجدت القوات المشتركة «الحركة الوطنية- الفلسطينية» فى حركة أحمد الخطيب ظاهرة بالغة الأهمية.

فهى تنفى أن جيش لبنان يقف بكامله وراء الموارنة بل إنه منقسم على نفسه كما أن انقسام الجيش يمنع دوره المنتظر لضرب المقاومة مثلما فعل جيش الأردن. والمؤكد أن فى جيش الأردن كانت عناصر كثيرة تتعاطف مع موقف الثورة الفلسطينية ولكنها لعدم الخبرة وعدم تصور حجم الضربة انتظرت إلى أن صدرت أوامر العمليات ولحظتها يصبح الانضباط والالتزام بالأوامر هو أساس العسكرية وليست المواقف السياسية. وهو ما كان يجب تجنبه فى لبنان.

محاولة اقناع قيادات الموارنة أن المعركة مع الحركة الوطنية ليست بهذا القدر من البساطة والسهولة.

وقررت القوات المشتركة تقديم الدعم المالى لأحمد الخطيب لصرف رواتب جنوده. ونتيجة صمود قوات جيش لبنان العربى وقدرتها على دفع الرواتب بدأت قوات كثيرة تلحق بها. وحاولت الكتائب الادعاء أن ليبيا هى التى دفعت لأحمد

الخطيب الأموال ولكن المقابلات التي قمت بها والتحقيقات التي تابعتها أكدت لي أن التمويل كان من داخل لبنان . والمصلحة القومية تفرض عدم كشف التفاصيل.

وأمام تعاظم دور جيش لبنان العربي تم الاتفاق على تغيير قياده الجيش وفعلا عين العماد حنا سعيد قائدا للجيش وأعطيت مهلة للعسكر بين المتمردين للعودة إلى الجيش دون عقوبة ولكن عناد سليمان فرنجية زاد المشكلة تعقيدا . إذ رفض فرنجية العفو عن العسكر بين الذين تركوا الجيش إلى درجة أنه قال « تقطع يدى ولا أوقع مثل هذا المرسوم » . كل الذين فروا من الجيش والتحقوا بحركة احمد الخطيب يجب أن يحاكموا ، وتصدر ضدهم أقسى العقوبات ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه التمرد والفرار من الجيش (١٧) بينما كان رأى قائد الجيش أن إعادة وحدة الجيش أهم من أى قانون أو كرامة فرد .

وقد اعتبر سليمان فرنجية أن قرار قيادة الجيش بدعوة المتمردين للالتحاق بالجيش دون محاكمة هو تمرد من القيادة على إرادته ونسى أن الصلابة تختلف عن التصلب . فقد ترتب على موقف سليمان فرنجية ماعرف بحرب الثكنات . فأعلنت ثكنة صربا العسكرية التمرد وقام جنودها بمهاجمة القاعدة البحرية وسرية جونيه ومحطة كهرباء كميل شمعون واستولوا على الأسلحة . وبدأت الثكنات تتوالى وأغلبها أعلن انضمامه إلى جيش لبنان العربي ، حتى لقد انضمت ٦ ثكنات لجيش لبنان العربي في يوم واحد - ١٠ مارس - وانهار تقريبا جيش لبنان . فمن بين ٢١ ثكنة سقطت ١٧ ثكنة في أيدي الحركة الوطنية . وأصبح الجيش ثلاثة اتجاهات . قوة انضمت للحركة الوطنية وأخرى انضمت إلى الانعزاليين وقوة ثالثة حاولت الحفاظ على بقايا الجيش . أمام زيادة عدد انهيار الثكنات تقدم ٢٥٠ ضابطا بمذكرة أطلقوا عليها « وثيقة شرف » في ١٠ مارس إلى العماد حنا سعيد قائد الجيش وطالبوه بمحاكمة جميع العناصر الذين خرجوا على قوانين الجيش وأنظمته وتقاليده من دون تمييز أو استثناء .

وكان رد قائد الجيش ([١٨]) هو عبارة عن نداء إلى العسكريين يؤكد فيه موقفه السابق من ضرورة العفو عن العسكريين الفارين وأن الجيش يفتح ذراعيه لأبنائه العائدين وقال إن قيادة الجيش تؤكد للجميع :

١- ان جيش المستقبل جيش سيكون جيش جميع اللبنانيين ، لافضل لعسكرى على آخر إلا بمقدار مايقدمه من تفان وتضحية .

٢- أن جيش المستقبل هو جيش للدفاع عن كرامة الوطن والذود عن حدوده ضد العدو الجاثم على الحدود .

٣- أن جيش المستقبل سيكون الجيش الذى يتحسس واجبه تجاه لبنان العربى الذى حددته « الوثيقة الدستورية » التى أعلنها رئيس الجمهورية .

وكان العماد حنا سعيد قد قدم للحكومة تقريرا وهو ماعرف بالتقرير « ١٥/ ١ع/س » ([١٩]) يقول فى مقدمته « إن القيادة ترى لزاما عليها وحالة الجيش والبلاد قد آلت إلى ماهى عليه أن ترسم صورة حقيقية للواقع المرير الذى يعانيه الجيش بصفتها المؤتمنة والمسئولة عن مقدراته » .. غنى عن القول أن الأحداث المؤلمة ومارافقها قد أدت إلى انشقاق فى نفوس الشعب ، ولكن الجيش صمد مايقارب العشرة أشهر قبل أن تصل إليه العدوى . و يصل من ذلك إلى « أنه بات من الصعب ضمان تنفيذ الأوامر التى تصدر عن هذه القيادة و بات العسكريون يقومون بما يمليه عليهم سواء الخوف أو التحريض ، أكان هذا التحريض داخليا أو خارجيا . مستغلا لديهم حوافز شتى : طائفية ، إغرائية ، إرهابية . وإزاء هذا الوضع المتدهور تلفت القيادة نظر المسئولين إلى الخطر الداهم الذى يهدد الجيش بالانهيار» . وانتهى التقرير إلى الالحاح فى إيجاد حل لقضية الضباط والعسكريين الفارين ولكن الدولة كانت بلا عقل ولاسلطة والكل لاينتظر إلا من زاويته . وقائد الجيش يصرخ بلا مجيب . فحتى لو وافق على محاكمة الفارين فكيف ينفذ ذلك عسكريا .

وقد أصدر قائد سلاح الطيران ـ العقيد چورج غريب ـ بدوره بيانا نصه :

« أن الحالة التى وصلت إليها البلاد هى نتيجة أخطاء متراكمة من قبل كثرة من السياسيين آثرت مصالحها الخاصة على الصالح العام » .

« وأن ظواهر التفكك فى الدولة أدت إلى محاولات تفكيك لحمة الجيش الذى يسعى الخيرون دوما إلى إبقائه فوق الحزازات »

« وعلى ضوء ذلك نطالب بما يلى : »

١ـ على المسئولين السياسيين والسلطة المختصة إصدار عفو عام عن العسكريين باستثناء الذين قاموا بجرائم قتل .

٢ـ الإسراع باتخاذ الحلول الجذرية الملائمة لإنقاذ الجيش والوطن والترفع عن الحزازات الشخصية .

٣ـ اعتماد التوازن مقرونا بالكفاءات الخلقية لإنماء وإحياء ملاكات الجيش وتجديدها ، وكذلك ملاكات المؤسسات المختلفة فى الدولة .

٤ـ الإسراع بتشكيل حكومة متوازنة متجردة تنقذ الوضع بأسرع ما يمكن وسلاح الجو اللبنانى إذ يطالب بهذا يعلن أنه لا يشكل فريقا مع أحد بل فريقه الوحيد هو لحمة الجيش والمواطنين ووحدة الوطن الواحد . و يدعو كافة الأسلحة والملاكات العسكرية إلى رص الصفوف والتضامن .

وفى نفس اليوم ـ ١٠ مارس ـ عقد قائد الجيش ورئيس الأركان وقادة المناطق والمفتش العام ومعاونو رئيس الأركان ورئيس الشعبة الثانية « المخابرات » وتبين أمامهم أن معظم ثكنات الجيش سوف تنهار خلال ساعات وطالبوا باتخاذ أى حل سياسى من شأنه مهما كلف ـ على حد وصف تقريرهم ـ أن يبقى أسلم مما ينتظر مصير الجيش والبلاد » (٢٠) وفى المساء اجتمع مجلس الوزراء مع هيئة الأركان لسماع رأيها بالتفصيل .

وكانت غرابة الموقف فى أن سليمان فرنجية بدلا من أن يتحرك لإنقاذ الموقف قرر عزل كل قيادة الجيش . وأصبح الرأى السائد لدى كل الأطراف هو ضرورة عزل فرنجية الذى يمثل عقبة حقيقية فى سبيل إنقاذ لبنان . وسادت القناعة العامة بضرورة قيام انقلاب عسكرى لعزل رئيس الجمهورية وإنقاذ جيش لبنان ، ووسط استعدادات كل الأطراف للقيام بالانقلاب إذا بالعميد أول عزيز الأحدب يقوم بانقلابه التليفزيونى مساء يوم ١١ مارس ويطالب فى بلاغه الأول باستقالة رئيس الجمهورية . ونشرت مجلة الحوادث (٢١) أن الأحدب عرض الرئاسة على ريمون اده الذى اعتذر .

ووضح إن قيادة الجيش اللبنانى ليست ضد الانقلاب وإن كانت قد لزمت الصمت أما كمال جنبلاط فقد أعلن بوضوح أنه ضد أى انقلاب عسكرى . وكان رد سليمان فرنجية أن دفع أحد ضباطه وهو العقيد أنطون بركات بإعلان انقلاب آخر ليعلن دعمه لرئيس الجمهورية .

وكان السؤال المطروح فى لبنان وخارج لبنان .. هو من وراء انقلاب الأحدب ؟ عزيز الأحدب يقول لقد بقيت ٦ أشهر أسمع أن هناك مشروع انقلاب ، ولكن أحدا لم يأخذ المبادرة فجئت أنا وأخذتها . والانقلاب جاء عفويا نابعا من إرادة لبنانية وإذا شاءت المصادفة أن يكون على رأس الانقلاب ضابط مسلم . فذلك لتحقيق لحمة الجيش .

فؤاد لحود ـ حزب شمعون ـ يقول فى كتابه مأساة جيش لبنان : إنه مؤكدا لم يكن هناك فريق أو دولة أو منظمة وراء عزيز الأحدب . ويستدل على ذلك بأنه حين رآه فور إذاعة بيانه لم يكن حوله سوى جنود منطقة بيروت التى هو قائدها ثم إنه استدان رواتب جنوده إلى أن صرفت لهم وأعاد ما استدانه .

والمؤكد أنه كان هناك أكثر من مشروع انقلاب :

فالعميد موسى كنعان مساعد رئيس الأركان كان يعد انقلابا وهو الرجل القوى فى الجيش وكان وزير الإعلام فى الوزارة العسكرية ورئيسها الحقيق وله علاقات وثيقة بعدد من الدول أبرزها الولايات المتحدة . وكما أنه على اتصال بأحد أجنحة المقاومة الفلسطينية وعلى وجه خاص فتح .

الضباط الدروز فى الجيش كانوا يفكرون فى تنظيم مظاهرة عسكرية لإقالة فرنجية بشرط أن تتحرك برضا قائد الجيش حنا سعيد ودون الاستيلاء على الحكم .

قيادة جيش لبنان عرضت على سوريا أثناء وجود عبد الحليم خدام فى بيروت يوم انقلاب الأحدب القيام بانقلاب . خاصة وأن رأى عبد الحليم خدام كان أن فرنجية عدو نفسه .

القائم بالأعمال الأمريكى زار مقر وزارة الدفاع يوم ١٠ مارس والحديث عن الانقلابات فى قمته .

المقاومة الفلسطينية كانت ترى أنه إذا كان انقلاب سوف يقع فى لبنان فلابد أن يكون فى اتجاه مؤيد لها أو على الأقل ليس من القوى المعادية .

وفى هذا المناخ وقع انقلاب عزيز الأحدب الذى توجه بسيارة مدنية ومعه عدد من السيارات إلى مبنى التليفزيون ليذيع بيانه وكان يقود له الطريق أبو الحسن (٢٢) أحد مرافق ياسر عرفات وهو ما أثار شبهة أن تكون المقاومة هى التى دبرت الانقلاب .

وماحدث هو أن قيادات المقاومة فوجئت بانقلاب عزيز الأحدب إلى درجة أن أحد قيادتها اتصل أمام القيادات الأخرى ـ وكانوا فى جلسة عمل ـ بالعميد موسى كنعان وسأله إن كان عزيز الأحدب هو الرجل الذى اتفقت الآراء حوله . ولو كانت المقاومة هى التى دبرت الانقلاب لما كانت فى حاجة إلى الاستغراب أو

السؤال خاصة وأنني راجعت القصة على كل القيادات التي كانت في الحجرة وهي تمثل معظم تنظيمات المقاومة .

أما قصة أن الانقلاب كان لتخريب المبادرة السورية التي أدت إلى الوثيقة الدستورية فهو أيضا أمر مشكوك فيه . فالوقائع تقول إن عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري وحكمت الشهابي رئيس الأركان غادرا بيروت يوم الانقلاب في الساعة الرابعة والنصف للعودة إلى دمشق ولكن ضباط المطار حجزوهم لأسباب تتعلق بالأمن حتى تمت كل إجراءات تأمين الرحلة في السابعة مساء ، وبينما كان خدام في طريقه إلى حافظ الأسد كان الانقلاب قد وقع ولم يكن تقرير خدام قد قدم بعد ولا اتفاقه مع قيادة الجيش اللبناني قد عرض على الرئيس السوري بعد مما أثار حافظ الأسد وأثار الشبهة في أن الانقلاب ضد المساعي السورية وأن انصار مصر في المقاومة دبروه . وفي نفس الوقت قام عصام الدباسي- ضابط المكتب الثاني أي المخابرات- بتنسيق مع زهير محسن قائد منظمة الصاعقة السورية بالعمل على تسليم مطار البقاع لحركة عزيز الأحدب .

ويبدو أن ماقاله عزيز الأحدب صحيحا بأن انقلابه جاء عفويا . إذ كانت كل القوى تعمل على إعداد انقلاب . وقد تصور كل منها أنه انقلابها فسارعت بالحركة في اتجاهه . ولكنه كان على أي الأحوال مجرد بلاغ عسكري بأن هناك من يريد استقالة رئيس الجمهورية بين صفوف الضباط . وطبعا رفض سليمان فرنجية الاستقالة . وكانت الحجة هي الشرعية وأن السلطة صاحبة ذلك هي مجلس النواب . وفي ١٣ مارس تقدم ٦٦ نائب أي ثلثا مجلس النواب بعريضة تطالب رئيس الجمهورية بالاستقالة وهي النصاب القانوني ورفض سليمان فرنجية وأصبح السؤال المطروح في كل لبنان حول القوة التي يعتمد عليها فرنجية للبقاء رغم أن أحدا ليس معه . وبعد يومين تم اتفاق بين حركة أحمد الخطيب وحركة عزيز الأحدب على توحيد موقفهما تجاه سليمان فرنجية حيث إن الأمر أصبح لابد له من

استخدام القوة وحركة الأحدب لا تملك هذه القوة بينا حركة أحمد الخطيب تملكها . وبدأت قوات جيش لبنان العربى تتحرك نحو القصر الجمهورى فى بعبدا لعزل فرنجية وكانت المفاجأة أن قوات الصاعقة السورية أقامت الحواجز فى طريق جيش لبنان العربى . وكان ذلك بناء على أوامر صريحة من الرئيس حافظ الأسد الذى اعتبر ذلك تخريبا للدور السورى الملتزم بالدفاع عن فرنجية (٢٣) !
وانحصرت المشكلة فى عزل فرنجية واختيار البديل .

إن اختيار رئيس جمهورية للبنان عملية تعبر بصدق عن « الكيان الصناعى » للبنان . فهو منذ الاستقلال يتم من خلال عملية توازن بين النفوذ الاستعمارى ومحصلة السياسة العربية وقت إجراء الاختيار . وليس معنى ذلك أن شخص رئيس الجمهورية فى لبنان يفرض على القوى اللبنانية بل الصحيح أنه يتم من خلال عملية توازن بينها وفق قواعد سيادة مجموعة العائلات التى تحتكر المناصب وقواعد التوزيع الطائفى للعمل السياسى . وباختلاط الخطين تبدو عملية الانتخاب فى ظاهرها لبنانية وفى باطنها تعبير صادق عن المرحلة فى المنطقة العربية .

والصورة على الواقع تعطى هذه السطور تجسيدا ووضوحا . ففى دراسة حول انتخابات الرئاسة فى لبنان (٢٤) إن انتخاب أول رئيس جمهورية فى لبنان - بشارة الخورى - كان القرار الرئيسى فيه بريطانيا - للجنرال سبيرز - لكنه مر عبر صيغة التوازن التى أرسيت بالصراعات السياسية . فالتوازن الداخلى كان محصلة اتجاه مارونى معتدل ومتحالف مع البريطانيين وهو ماعرف بالكتلة الدستورية . فى مواجهة اتجاه متحالف مع الفرنسيين وهو ماعرف بالكتلة الوطنية . والاتجاه الأول وهو الذى انتصر ، يقوم على أساس تحالف مع القوى السنية والتى مثلها رياض الصلح أول رئيس للوزراء مع السلطات العربية التى كانت تحكم العالم العربى وقتها فى ظل سيادة الاستعمار البريطانى للمنطقة . وجاء بعده كميل شمعون وفق نفس قواعد التوازن .

وقد أراد شمعون أن يعيد انتخاب نفسه فى سنة ١٩٥٨ ولكن التوازن فى المنطقة كان قد تغير فقد كانت المنطقة العربية تعيش فى تلك الفترة مرحلة مد قومى عربى يقوده جمال عبد الناصر بعد حرب السويس وخلفه هالة عظيمة من تأميم قناة السويس إلى طرد الاستعمار البريطانى من مصر، حتى معركة شرسة مع فرض الأحلاف على المنطقة وجاءت الوحدة بين مصر وسوريا لتتوج هذه الانتصارات جميعا. وفى مواجهة ذلك الاستعمار البريطانى بعد أن أخذ عصاه على كتفه وبدأ فى الرحيل، ترك الباب مفتوحا للاستعمار الأمريكى ليحل مكانه وبأشكال مختلفة عنه. ومحصلة الصراع بين التيارين .. الحركة القومية بقيادة عبد الناصر والحركة بقيادة الولايات المتحدة أدت إلى إنتخاب فؤاد شهاب باتفاق مصرى- أمريكى من خلال توازنات داخلية. وهو نفس التوازن الذى أدى إلى انتخاب شارل حلو رئيسا للجمهورية خلفا لفؤاد شهاب.

وقد ظل هذا التوازن إلى أن وقعت هزيمة سنة ١٩٦٧ فاختل التوازن لصالح المعسكر الأمريكى. فقد كانت من نتائج الهزيمة تصاعد دور دول الدعم المالى. وفى الساحة اللبنانية يتمثل ذلك فى المحور السعودى الذى كان يمثله صائب سلام- سليمان فرنجية- كامل الأسعد أى السنة مع الموارنة مع الشيعة بنفس الترتيب. ومن خلال بروز القوى العربية الجديدة وما أدت إليه من توازن جديد ثم انتخاب سليمان فرنجية رئيسا للبنان بأغلبية صوت واحد وهو ما لم يسبق حدوثه مع أى رئيس آخر فى لبنان.

وواضح أن عملية الانتخاب كانت عسيرة والسبب أن التوازن الذى ينهار لم يكن قد فقد عناصر قوته تماما كما أن التوازن الجديد لم يكن قد استقر على الساحة نهائيا. -

وجاءت انتخابات الرئاسة الجديدة وسط الحرب الأهلية مما جعل الاختيار صعبا. فالولايات المتحدة لم تعد بعد حرب فيتنام تلعب دورها بنفسها بل أصبحت

تعتمد على قوى إقليمية . و يصبح دورها مجرد الدعم والتشجيع و بالطبع النصح . وهى فى هذه المنطقة لابد أن تكون القوى التمثيلية لها إما عربية وهو الأرجح اسرائيلية وهو الاستثناء فى حالة الحركة داخل موقع عربى لأن الاعتماد على إسرائيل أساسا هو فى القوة الضاربة وليست القوة التوافقية . وكان المحور السعودى هو القوة المسيطرة فى المنطقة . وبحسابات إقليمية توافق خط المحور السعودى مع خط دمشق بعد عدة تقلصات فى الجسد العربى . كما أن فى داخل الساحة اللبنانية كانت هناك مشكلة . فلم يكن ممكنا تحقيق طموح كميل شمعون أو أحد أقطاب الكتائب وإلا كان الأمر انفصاح الواقع العربى تجاه الثورة الفلسطينية وهو ماحرص الجميع أن يبقى من تحت المائدة . كما أنه يبدو وكأن الجبهة الانعزالية قد انتصرت فى الحرب . وهو مالم يحدث بل على العكس كانت مهزومة حتى دخلت إليها القوة العربية لتنقذها . وأصبحت عملية اختيار الاسماء صعبة خاصة وأن الحركة الوطنية لأسباب عاطفية ونتيجة خطأ فى الحساب وقفت وراء ريمون اده وهى تعرف استحالة انتصاره بعد إعلانه صراحة الحرب الإعلامية على الدور الأمريكى فى المنطقة . هذا إلى جانب أنه كان من أبرز القوى بل كان حزبه هو القوة الوحيدة التى عارضت اتفاق لبنان مع المقاومة سنة ١٩٦٩ « اتفاق القاهرة » صراحة بينما وافق عليه الآخرون . وانتهى الصراع إلى منافسة بين الياس سركيس وريمون اده . اذ وقفت سوريا والسعودية والولايات المتحدة والقيادات المارونية وراء سركيس الذى كان مرشحا فى انتخابات الرئاسة السابقة أمام فرنجية وخسر بفارق صوت واحد . . وكانت تعارضه القيادات المارونية التى وقفت هذه المرة معه .

وكان لابد من حسم مسألة اختيار الرئيس الجديد قبل حسم مسألة استمرار سليمان فرنجية . وانتهت الضغوط بكل صورها إلى تعديل المادة ٧٣ من الدستور فى ٢٢ مارس حيث يصبح ممكنا لمجلس النواب انتخاب رئيس الجمهورية قبل ٦ أشهر من نهاية ولاية الرئيس الذى فى السلطة . وكانت سوريا قد تعهدت لكل الأطراف

على ضمان تصديق سليمان فرنجية على التعديل ثم استقالته بعد انتخاب الرئيس الجديد ، ولكن فرنجية احتفظ بقرار مجلس النواب بتعديل المادة ٧٣ مايقرب من شهر دون تصديق و بالتحديد وقع عليه فى ٢٤ ابريل وانتقلت العملية إلى مشكلة تحديد الجلسة ومكانها وسط عنف القتال وتهدم مبنى البرلمان .

وقد تحددت الجلسة أول مرة فى أول مايو ولكن الأحزاب والقوى الوطنية اعترضت على الموعد قبل الانتهاء من المشاورات وكميل شمعون أراد التأجيل عدة أيام فقط حتى ٤ مايو بينما اعتبر ريمون اده الإسراع بعقد الجلسة مؤامرة لاسقاط اده . وأعلن كل من بيير الجميل ورشيد كرامى وجماعة الكسليك تبنى ترشيح إلياس سركيس محافظ البنك المركزى اللبنانى للرئاسة وفى ٢٨ ابريل أعلن الياس سركيس ترشيح نفسه واعدا أن يسير على هدى مبادئ الشهابين المطورة . وأعلن ترحيبه بتأييد سوريا له . وأمام صعوبة عقد الجلسة تأجلت حتى ٨ مايو وخلالها بدأ الحديث عن إمكانية اختيار مرشح ثالث . كنوع من التوفيق حيث يتنازل كل جانب عن مرشحه لصالح مرشح ثالث يجمع الكل عليه . ولكن سوريا رفضت الفكرة كما رفضتها قيادة الجبهة التى اجتمعت فى ٣ مايو (فرنجية ـ شمعون ـ الجميل ـ قسيس) وأعلنت رفض فكرة المرشح الثالث . وأعلن الجميل تأييده لسركيس بينما تحفظ شمعون فى إعلان تأييده لمرشح معين . ووصل دين براون المبعوث الأمريكى إلى بيروت . وقد جرت اتصالات مكثفة بين كل الأطراف كانت محصلتها :

- اتفاق فلسطينى لبنانى (الحركة الوطنية) على منع عقد الجلسة عن طريق المقاتلين والحواجز بحيث يستحيل وصول الأعضاء إلى مقر الجلسة فى منطقة قصر منصور .
- اتفاق سورى ـ فلسطينى على عقد الجلسة . وهو على عكس اتفاق المقاومة مع الحركة الوطنية اللبنانية وذلك مقابل وعود من حافظ الأسد تبخرت بمجرد انتهاء الانتخاب .

وفى مساء ٧ مايو بدأت الصاعقة السورية الأصل الفلسطينية الشكل فى جمع أعضاء البرلمان فى فندق بر بستول برأس بيروت قرب الحمراء وذلك فى السيارات المدرعة . وكانت الأدوار التنفيذية موزعة باتفاق بحيث لايبدو التدخل السورى الأمريكى صريحا بل من خلال عناصر داخلية . وهما الكتائب والصاعقة وكلاهما تقوم بالدفع وتأمين الحماية .

فنظمة الصاعقة طبقا لوثائقها التى عثر عليها حين سقطت المنظمة بعد ذلك تشير إلى أنها كانت تدفع ملايين الليرات لعقد الجلسة كما كان عليها تأمين وصول الأعضاء إلى مقر الجلسة . وقد أكد زهير محسن أمام الكثيرين أنه لم يدفع إلا للذين أحضرتهم الصاعقة إلى مقر الجلسة وأن هناك مصادر أخرى دفعت .

والمعروف أن بيير الجميل اتصل بكميل شمعون الذى بقى فى مقره حتى قبيل عقد الجلسة . وقد وعده بيير الجميل بإرسال شيك بمبلغ ٢ مليون ليرة ولكنه رفض استلام شيكات وطلب أن يكون الدفع نقدا . وفعلا اتصل بيير الجميل بمدير بنك لبنان الفرنسى وهو وزير المالية الحالى فى وزارة الحص وطلب منه سحب ٢ مليون ليرة من حساب صهر بيير الجميل وهو عضو مجلس إدارة البنك . وتوجهت سيارة فولكس فاجن إلى مقر البنك ووضعت المبالغ فى حقائب داخل السيارة التى توجهت فى حماية عسكرية كتائبية إلى مقر شمعون الذى تحرك مع مجموعته البرلمانية فور تسلمه المبلغ .

كامل الأسعد رئيس مجلس النواب حصل على ٣ ملايين ليره من سوريا لعقد الجلسة وحضور مجموعته البرلمانية ويوم الجلسة فاجأ ممثل الصاعقة بأن مسئوليته تنتهى عند نفسه وتحديد موعد الجلسة . وكان معنى ذلك ضرورة دفع مبالغ أخرى إلى أعضاء مجموعته البرلمانية لاستكمال النصاب القانونى وهو ٦٦ عضوا على الأقل .

أما منظمة فتح والتى كانت تتولى مسئولية إغلاق الطرق الموصلة إلى مقر الجلسة قامت بمظاهرة كاذبة بقيام سياراتها بإطلاق الرصاص فى الهواء فى منطقة تبعد عدة كيلومترات عن مقر الجلسة .

وكانت آخر مفاجآت هذا اليوم هى أن إلياس سركيس اشترط لانتخابه ضرورة موافقة المقاومة . وفعلا تم تأمين اتصال تليفونى بينه و بين أبو إياد ـ أحد قيادات فتح ـ الذى كان دقيقا فى اختيار كلماته فهو لم يعلن صراحة الموافقة ولكنه قال إن منظمة فتح لايمكن أن توافق على أن تدخل فى صدام مسلح مع منظمة فلسطينية أخرى و يعنى منظمة الصاعقة . أى أن فتح لن تطلق النار على الصاعقة التى تتولى عقد الجلسة مع الكتائب . وفهم سركيس الرد على أنه يعنى أن فتح كبرى منظمات المقاومة لن تعارض فى انتخابه ، كما لن تعوق عقد جلسة انتخابه .

وهكذا أمكن إحضار ٧٠ عضوا كان يعرف كل منهم أن حياته فى خطر وكان الأعضاء يدخلون إلى المبنى جر يا بمجرد نزولهم من السيارات . وهى مغامرة ولكنها على أى الأحوال كانت مغامرة مدفوعة ومحسو بة فى نفس الوقت . وقد حاولت وحدات مقاتلى الحركة الوطنية قفل الطرق ولكن محاولاتها فشلت بعد تخلى المقاومة لحسابات خاصة بالعمل الفلسطينى . وهو أمر كان لابد للحركة الوطنية أن تتحسب له لأن معركة المقاومة هى فى النهاية تختلف عن معركة المقاومة هى فى النهاية تختلف عن معركة الحركة الوطنية اللبنانية وخاصة فى هذه الجزئية .

وقد اجتمعت الأحزاب والقوى الوطنية فى غياب كمال جنبلاط بعد إعلان نتيجة الانتخابات وأعلنت رفضها لما انتهت إليه جلسة مجلس النواب واعتبرت أنها أسفرت عن تعيين رئيس وليس انتخابه . وتحدث بيانها عن الضغوط السياسية والعسكرية التى فاقت كل حد . وأن القسم الأكبر من النواب جرى إحضارهم بالضغط المسلح ، والرشوة .

وأعلن ريمون اده أنه يتمنى التوفيق للرئيس الجديد فى مهمته وأن يكون انتخابه بداية حل الأزمة .

وقالت إذاعة دمشق إن الارادة اللبنانية هى التى انتصرت . وأن الذين عارضوا عقد الجلسة دلوا بمواقفهم على زيف ادعاءاتهم . وقال زهير محسن رئيس الصاعقة إن كل ماوقع فى يوم الانتخاب يجعله يوما تاريخيا وعظيما . وأنه كان الضربة القاضية الموجهة إلى مخطط التقسيم والفتنة الطائفية التى غطست فيها الفئات والأحزاب التى تسمى زورا « وطنية وتقدمية »

أما النائب البير منصور فقد دعا النواب الذين حضروا جلسة الانتخاب أن يتجرأوا و يقولوا لماذا نزلوا إلى المجلس وانتخبوا إلياس سركيس . وكم قبضوا و بأى أثمان بخسة باعوا إرادة الشعب .

وأصدر المكتب السياسى لحزب الكتائب بيانا اعتبر فيه انعقاد الجلسة دليلا قاطعا على الإرادة الشعبية باعتماد الحل السياسى . وأكد البيان على أهمية استمرار التعاون مع سوريا .

الامام الصدر قال إن انتخاب سركيس فصل جديد فى حياة الوطن . والمواطن . ويمكن أن يكون بداية النهاية .

وأعربت وزارة الخارجية الأمريكية عن اغتباطها لانتخاب الرئيس الجديد . وأكدت استعداد الولايات المتحدة لمساعدة اللبنانيين على التوصل إلى حل سياسى لمشكلاتهم وقال المتحدث الرسمي باسم الخارجية إن سوريا مستمرة فى تأدية دورها البناء فى لبنان . وقال إن دين براون سوف يغادر لبنان قريبا ـ! ـ وفعلا غادر المبعوث الأمريكى بيروت فى ١١ مايو .

وفى ١٦ مايو برزت من جديد مسألة استقالة فرنجية . فقد كان حافظ الأسد قد

وعد المقاومة وعدة أطراف لبنانية أنه يضمن استقالة سليمان فرنجية بعد انتخاب سركيس ولكن فرنجية أصدر بيانا ينفي فيه ماقاله الإمام الصدر عن أن القيادة السورية تضمن استقالة فرنجية وقال البيان إن الأمر يرجع للإرادة اللبنانية وحدها . وقد أعلن كمال جنبلاط ردا على بيان فرنجية أن الرئيس الأسد أكد أنه يضمن استقالة فرنجية ويجعله يستقيل ساعة مايشاء ، أما رشيد كرامي فقد أصدر نداء لسليمان فرنجية بأن يستقبل فورا ليتيح للرئيس الجديد فرصة القيام باتصالاته ونشاطه . وكامل الأسعد يؤكد أن هناك ضمانة باستقالة فرنجية أبلغها حافظ الأسد للوفد الثلاثي صائب سلام ورشيد كرامي وكامل الأسعد .

وكان واضحا من تعدد المصادر واختلافها أن سوريا وعدت فعلا وضمنت استقالة فرنجية إذا انتخب سركيس . و يبدو أن الأمر أمام احتمالين لا ثالث لهما : إما أن سوريا وعدت بما لا تستطيع الوفاء به من أجل أن يتم انتخاب سركيس بأي شكل وإما أنها وعدت بما تعرف أنها لا تريد أن تفعله وهو إجبار فرنجية على الاستقالة وهي التي وعدت قبل ذلك بعام بضمان استمراره . وتكون قد التزمت بوعدها الأول بضمان أستمراره حتى نهاية مدته وأما وعدها للقوى اللبنانية فهو من باب المناورات الانتخابية وليس من نوع الوعود والإلتزامات الواجبة النفاذ ... !

وقد بقي فرنجية فعلا حتى نهاية مدته .. وربما على حد قول البعض حتى ضمن دخول القوات السورية . والذي يتردد في كل مكان بلبنان أن سوريا ضمنت بقاء فرنجية رغم وعدها بضمان استقالته وذلك مقابل أن يطلب فرنجية دخول القوات السورية قبل انتهاء مدته .. ودخلت القوات السورية وانتهت مدة فرنجية الذي ذهب غير مأسوف عليه إلى مقره في إهدن و يوم التقيت به وأمامه على مكتبه مدفع صغير تذكرت أنه أراد به الرمز باختصار إلى مهمته الأساسية خلال عهده .

هوامش الفصل السادس

(١) أبعاد القومية اللبنانية . محاضرات جامعة الروح القدس . الكسليك لبنان ١٩٧٠ .
(٢) بيروت المساء ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٧٥ «مشروع قبرصة لبنان»
(٣) المحرر فى ٥ أبريل ١٩٧٦ .
(٤) فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٧٦ .
(٥) د . محمد المجذوب تدويل الأزمة اللبنانية - شئون فلسطينية عدد ٦٦ ص٤٤
(٦) صحف لبنان فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٧٦ .
(٧) النداء فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٧٦ .
(٨) ملحق رقم (٥)
(٩) كتاب العمل الشهرى . العدد رقم ٢ ص ٢٨
(١٠) أعلنها فى ٢٤ يونيو ١٩٧٥ .
(١١) لبنان فى نظامه السياسى . القضية اللبنانية رقم ٢ . جامعة الكسليك . لبنان ١٩٧٦ .
(١٢) وثيقة حرب لبنان . مركز الأبحاث بدار الصياد . بيروت ١٩٧٥ ص٣٢٨ - ٣٥٦
(١٣) وكالة الأنباء الفرنسية فى ٢٩ ديسمبر ١٩٧٥ .
(١٤) حول العلمانية . محاضرات جامعة الروح القدس . الكسليك . ١٩٦٩ .
(١٥) يوميات الحرب اللبنانية . مركز التخطيط لمنظمة التحرير . ج٢ ص ٨٣ - ٨٤ .
(١٦) نص الوثيقة الدستورية والرد عليها . القضية اللبنانية رقم ١١ . الكسليك ص ١٠ - ١٣
(١٧) مجلة الحوادث فى ١٩ مارس سنة ١٩٧٦ .
(١٨) يوميات الحرب اللبنانية ج٢ ص ١٢٨ .
(١٩) نص التقرير فى ملاحق الكتاب برقم (٦)
(٢٠) صورة التقرير ١٦/ ١ ع/ س فى ملاحق الكتاب برقم ٧
(٢١) الحوادث . ١٩ مارس سنة ١٩٧٦ .

(٢٢) وهو من أغرب الشخصيات فى صفوف المقاومة . فهو شاب «بيتلز» كان حلقة الاتصال مع الكتائب تزوج من چورچينا رزق ملكة جمال العالم ... وعلاقتها بالمخابرات الأمريكية ليست سرا فى لبنان ثم تركها أمام ما أثارته فى صفوف المقاومة وقيل إنه كان عشيقا لها وليس زوجا ولكنه على أى حال اشترى لها شقة بمبلغ ٤٠ ألف ليرة . وهو غير مقاتل ولا منضبط وقد سمعت نقدا مريرا له من قيادات فلسطينية ومع ذلك فهو موجود !

(٢٣) الأهرام فى ١٧ مارس سنة ١٩٧٦ .

(٢٤) خالد جابر، حول إنتخابات الرئاسة فى لبنان . شئون فلسطينية رقم ٥٨ ص ١٠-١٢

الفصل السابع

الرهان على من ؟

كان سباق لبنان المجنون مع الموت مجالا مفتوحا بلا قيود لأصحاب المصالح ـ من القوى الدولية ـ فى إعادة رسم خريطة المنطقة . واشتركت هذه القوى فى إعداد وتدريب « المصارعين » فى سباق الموت واشتركت فى الرهان أيضا على المنتصر .. الخاسر!

وأظن أن الصفحات السابقة من الكتاب أوضحت عملية إعداد المناخ والقوى سواء كانت فى اعتبارات داخلية من وصول الموقف اللبنانى الداخلى إلى نقطة حتمية التغيير، لو كان قد تم فى ظل وجود فلسطينى قوى لكان التغير فى صالح فقراء لبنان وهم غير المحرومين طبعا ـ ! ـ كما أن الموقف فى المنطقة قد وصل إلى نقطة الاقتراب من العمل على تسوية سياسية للصراع مع إسرائيل ، وهو لو بد والوجود الفلسطينى متبلورا فى تنظيم ثورى لما تحقق الهدف الحقيقى من التسوية

بالشروط الأمريكية . كان ذلك كله واضحا من الفصول السابقة . وهو مايفتح الطريق أمامنا لمتابعة الدور الدولي في مأساة لبنان .

وكانت اكبر الحقائق التي فضحتها أحداث لبنان هي أن المنطقة العربية أصبحت مرتبطة بخطط حلف الأطلنطي العسكرية ، وتدخل في دائرة اختصاصه . وقد تبلور ذلك في أن الحلف شكل لجنة خبراء مدنيين وعسكريين عرفت « بلجنة ارتباط » . وكان مقر عملها طوال العام الأول من الحرب في غرفة عمليات وزارة الدفاع اللبنانية . وكانت من أهم واجباتها تسهيل العقبات في صفقات السلاح والتي تمت في باريس و بروكسل و بون وطهران وأكرا إذ أن بعض الأسلحة كان لابد من الحصول على تصريح من الدولة المنتجة وهو مالايمكن أن يتم الا من خلال دولة تقوم بدور الطرف الثالث . وقامت هذه اللجنة باصدار هذه التصريحات .

وكانت الحقيقة الثانية هي أن ألمانيا الغربية دخلت طرفا في الصراع ، على الأرض العربية وسواء كان ذلك بهدف محاربة الشيوعية ونفوذ تتخيله لألمانيا الشرقية أو كان تعبيرا عن دور تريد أن تستعيده في السياسة الدولية منذ هزيمة هتلر . وأصبحت عملاقا أقتصاديا وقزما في السياسة الدولية . وفي اعتقادي أنه ليس المهم السبب ولكن الأهم هو أن ألمانيا الغربية وجدت في الحرب من خلال لجنة بكيانت تضم ممثلين عن كل من الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الأشتراكي . لتقديم المساعدات إلى الموارنة سواء من ألمانيا الغربية أو عن طريقها من دول أخرى (١) .

والملاحظة التي يجب تسجيلها منذ البداية هي صعوبة دراسة هذا الدور الدولي نظرا لتشعبه وتعدد الأدوار، بمعنى أنه يشمل أطراف وساحات عديدة إلى جانب أن بعض الدول كان لها دور مزدوج ، أى تلعب لحسابها كما تلعب لحساب غيرها . ولذلك فإنني سوف أحاول قدر الإمكان فصل الأدوار عن بعضها لمجرد إبراز دور

كل دولة على حدة وإن كان ذلك سيكون على حساب الصورة الشمولية التى سأحاول توضيحها بقدر الإمكان . وقد اخترت عددا من الأطراف هى فى النهاية كانت الدول الرئيسية وهى :

اسرائيـــل

إن اسرائيل كانت فى لبنان طوال الأحداث وقبل الأحداث . وقد سبق عرض عملياتها الانتقامية والتى كانت تهدف إلى تحريك القوى المارونية لضرب الفلسطنيين وسيادة الشعور بالخطر طالما بقيت القوى الفلسطينية على أرض لبنان كما كانت موجودة بعمليات عسكرية داخل بيروت مثل عملية اغتيال أربعة من قيادات المقاومة وعملية إطلاق الصواريخ من شقق فى بيروت على ثلاثة مكاتب فلسطينية هى مكاتب منظمة التحرير ومنظمة فتح ومركز الأبحاث . وطوال العام السابق للأحداث فى لبنان لم يكن يمر اسبوع دون اعتداء اسرائيلى على مواقع المقاومة فى لبنان ودون قيام الكتائب والأحرار وعملاء إسرائيل بحادث اغتيا لأحد الفدائيين على أرض لبنان .

ودور إسرائيل فى لبنان له أصوله التاريخية كما يوضح أنه أبعد من مسأله وجود المقاومة على أرض لبنان .

ففى ٢٩ يوليوسنة ١٩٣٧ قال بن جوريون تعليقا على تقرير لجنة بيل . « بأن أحدى المزايا الأساسية فى الخطة هى أنها تجعل لنا حدودا مشتركة مع لبنان . فلبنان هو الحليف الطبيعى لفلسطين اليهودية . إن وضع المسيحيين يشبه إلى حد كبير وضعنا فى فلسطين . والفارق بيننا هو أنهم لايستطيعون التوسع عن طريق

الهجرة بينما نحن نستطيع . فلبنان محاط مثلنا ببحر إسلامي . وهو مثلنا جزيرة حضارية في صحراء بدائية . ولذلك فلبنان في حاجة إلى دعمنا وصداقتنا بالدرجة نفسها التي نحن في حاجة لدعمه وصداقته . فليس كل سكان لبنان مسيحيين ، وليس كلّ المسيحيين فيه ينتمون إلى طائفة واحدة . الموارنة مع أنهم المسيطرون هم أقلية ، وبدون اليهود كجيران سوف لن يكون لهم مستقبل مستقل .. والدولة اليهودية سوف تجد في لبنان حليفا وفيا منذ اليوم الأول لوجودها ، ولن يكون مستبعدا أننا عبر لبنان سنجد الفرصة لتوسيع عملنا مع جيراننا (٢) . وقد سبق أن أشرت في فصل سابق إلى أن أصوات اليهود في بيروت يحصل عليها حزب الكتائب .

ولسنا في حاجة إلى العودة أبعد من ذلك لأن مطامع إسرائيل في جنوب لبنان حتى نهر الليطاني معروفة منذ تحدث عنها حاييم وايزمان في مؤتمر باريس سنة ١٩٢٠ . كما أنه في مذكرات ساسون رسائل متبادلة بين بن جوريون وموسى شاريت والياهو ساسون ، إن بن جوريون اقترح سنة ١٩٥٤ العمل على إنشاء دولة مارونية مستقلة في لبنان وأن ذلك يخدم مصالح إسرائيل ولكن موسى شاريت عارض الفكرة . أما ساسون فقد أبدى شكوكه في إمكانية تحقيق ذلك (٣) .

إذا كان هذا هو الموقف في الماضي فإن الموقف الحاضر يعبر عنه ما كتبته صحيفة هارتس الإسرائيلية في يناير سنة ١٩٧٥ أي مع بداية تحرك بيير الجميل برسالته إلى رئيس الجمهورية تقول إنه يجب على إسرائيل أن تدرس الطرق الفعالة لدفع نظام الحكم في لبنان إلى العمل على تقليص عمليات « المخربين » من أراضيه . ويوضح تعليق لمرتسوج من إذاعة إسرائيل بعد ذلك بخمسة أيام أن هناك شعورا بأن النشاط العسكري الاسرائيلي في جنوب لبنان لايعمل في صالح إسرائيل . ولذلك كان لابد من البحث عن وسيلة أخرى (٤) .

و يقول إسحاق رابين - وكان رئيسا للوزارة وقتها - إن الحرب اللبنانية قد تركت - ولأول مرة منذ خمسة أعوام - المستعمرات الإسرائيلية على الحدود اللبنانية تحس بالأمان . وأصبح الذين يعبرون الحدود بدلا من الفدائيين هم لبنانيون يطلبون العلاج أو العمل أو بيع محاصيلهم فى إسرائيل (٥) .

و يقول أهارون كوهين فى صحيفة عال همشمار (٦) إن رؤية الأزمة السياسية فى لبنان وكأنها ليست سوى تطلع العناصر الإسلامية المتطرفة إلى محو طابع لبنان الخاص وصهره فى بحر العالم الإسلامى هى نظرة غيبية وسطحية تشوه صورة الواقع . فالأمر لايقف عند حد أن المحاربين من أجل تعديل الدستور ليسوا عناصر إسلامية متطرفة فحسب بل إن قوى التقدم من أبناء الطوائف الأخرى بما فى ذلك المسيحيون والدروز . فنظام لبنان يعتبر عقبة فى سبيل تمثيل المصالح والقوى الاجتماعية المتعلقة . ففى التركيب السياسى القائم نجد أن جماهير الشعب تخضع بالضرورة لسلطان رؤساء الطوائف وخلافا لمصالحهم الفعلية والحقيقية فإن قوة العمال والمثقفين غير موجهة ضد أصحاب المصالح التى تعارض مصالحهم فى جميع الطوائف بل ضد الحلفاء الطبيعيين وإخوة المصير فى الطوائف الأخرى .

ومعنى ذلك باختصار:

- أن إسرائيل ترى فى موقف الموارنة حليف طبيعى منذ البداية .
- أن قيام دولة للموارنة فى لبنان هو اتجاه فى صالح إسرائيل وهى تسعى إلى تحقيقه .
- أن إسرائيل تفهم جيدا سلبيات تجربة الحكم فى لبنان وبالتالى يمكنها التعامل معها .
- أن أستمرار أزمة لبنان يحقق لإسرائيل الراحة والأمان من العمل الفدائى .

— أن ماطرحه بيير الجميل فى يناير سنة ١٩٧٥ على الساحة اللبنانية هو نفس ماتطالب به إسرائيل . وقد تبلور ذلك كله فى حركة إسرائيل طوال الأزمة .

فهى لم تتوقف أبدا عن ضرب بعض القرى فى لبنان أو القيام باستعراض جوى حيث تقوم الطائرات باختراق حاجز الصوت فوق لبنان حتى إن معدل هذه العمليات كان يصل إلى عملية كل ثلاثة أيام . فنجدها مثلا فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٧٥ أى بعد أسبوعين من حادث عين الرمانة قامت طائراتها باختراق المجال الجوى اللبنانى والطيران فوق بيروت والبقاع وصيدا . وفى اليوم التالى قامت بقصف مدفعى لمزارع عيتا الشعب وضواحى يارون ، كما حلقت طائراتها فوق العرقوب والقطاع الأوسط .

وقد أثارت هذه العمليات جدلا فى إسرائيل حتى إن صحف إسرائيل (٧) كتبت حول جدوى هذه العمليات . فقالت معاريف إنه ما كان ينبغى على إسرائيل القيام بهذه العمليات وكان يجب البحث عن وسائل أخرى لأن هناك اعتبارات سياسية مهمة كانت تستدعى الإمتناع عن هذه الأعمال . وتساءلت صحيفة « جورنال دى إسرائيل » إذا كانت هناك ضرورة مطلقة للقيام بهذه العمليات خلال الأزمة فى لبنان . أما « دافار » فقد عبرت عن أسفها لأن مثل هذه الاشتباكات تشغل الجيش اللبنانى عن التحرك ضد « المخربين » الفلسطينيين وقد أجمعت صحف إسرائيل على ضرورة تقديم العون إلى الكتائب باعتبار الكتائب الحليف الطبيعى لأولئك الذين يقفون ضد الفلسطينيين على حد وصف معاريف .

والواقع أن إسرائيل لم تتوقف عن هذه العمليات التى اعتبرت أنها تعبير عن الوجود الإسرائيلى على مجرى الأحداث فى لبنان . وتأكيد

حربى على أن الجيش الإسرائيلى مستعد للتدخل إن كان لإسرائيل مصلحة فى ذلك .

وأهم ماأرادت إسرائيل إبلاغه للدول العربية هوأن تضعها تحت تأثير الخطر من قيام إسرائيل باحتلال جنوب لبنان . وتجعلها تتحرك إما على هذا الأساس أوعلى الأقل تحت ضغط هذا الخطر القائم .

وكانت تعمل على زيادة اشتعال الموقف على جبهة لبنان الداخلية ومنع أى محاولة لوقف المذابح حتى تحقق المأساة اللبنانية أكبر قدر من المكاسب لإسرائيل . وكان أسلوب إسرئيل يعتمد على عدة اتجاهات . أحدها هو إثارة مخاوف الموارنة باستمرار من أى اتفاق قبل أن يسود منطقهم والآخر هوتقديم الدعم لقوات « الانعزاليين » والتنسيق السياسى معهم . والثانى هوفتح الحدود مع الجنوب لفرض السيطرة عليه .

وقد ظهرت عدة حقائق رغم أن إسرائيل كانت تنفى أى دعم أو تنسيق بينها و بين جبهة لبنان .

وكانت أولى الاجتماعات بين قيادات الجبهة وإسرائيل هى زيارة شربل قسيس لإسرائيل فى ٥ أبريل والتى انتهت يوم ١٣ ابريل مساء ، أى بعد ساعات من عملية عين الرمانة والتى كانت إشارة البداية . ثم متابعة الاجتماعات إما فى إسرائيل عن طريق البحر وإما فى ميناء جونيه الذى اعتبرته جبهة لبنان عاصمة لها . وقد أعلن عبدالحليم خدام وزير خارجية سوريا أن كميل شمعون قد اتصل بإسرائيل أربع مرات حتى ١٠ يناير سنة ١٩٧٦ وأن سيمون بيريز وزير دفاع إسرائيل السابق زار جونيه ٣ مرات آخرها كان فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٧٧

واجتمع خلالها بكميل شمعون و بيير الجميل (٨) . وأن أول ز يارة قام بها كانت في مايو سنة ١٩٧٦ حين تحركت ثلاث سفن صاروخية من ميناء حيفا إلى جونيه وكانت إحداها تحمل إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل وسيمون بيريز وزير الدفاع . وقد انضم إليهم سفينتان تحمل الأولى كميل شمعون . وكان وزيرا للداخلية والأخرى تحمل بيير الجميل ، وكان يقود السفينة رجال الضفادع الإسرائيلية وتقول مجلة تايم الأمريكية إن كلا الزعيمين رفضا الالتقاء برابين معا وقد طلب كل منهما حسب رواية المجلة التدخل الإسرائيلي المباشر في الحرب الأهلية (٩) .

وتقول المجلة الأمريكية إن إسرائيل قدمت ماقيمته ٣٥ مليون دولار مساعدة مباشرة لجبهة لبنان ترتفع إلى ١٠٠ مليون بالمساعدات غير المباشرة : ومنها تكاليف فرض الحصار على شواطىء لبنان . وقائمة الأسلحة التي قدمتها إسرائيل للجبهة كما أوردتها المجلة هي ١١٠ دبابة مع ٥ آلاف بندقية آلية غير ١٢ ألف بندقية عادية هذا غير الملابس والمأكولات . وقامت بتدريب ١٥٠٠ من متطوعي الجبهة في معسكرات إسرائيل .

وذكر مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في القدس (١٠) أنه علم أن إسرائيل زودت الموارنة بدبابات ومدفعية . وقال إن ضباط إسرائيل على اتصال تليفوني مباشر مع قوات الجبهة .

وقالت صحيف الهيرالد تريبيون الأمريكية (١١) إن ميناء جونيه أغلق لمدة أسبوع في أول يوليو حيث كان يتم تسليم أسلحة إسرائيلية وصلت على ظهر سفينتين شحن كبيرتين . وقالت الصحيفة إن أسلحة حلف الأطلنطي تسلم للموارنة عن طريق إسرائيل . وأن بعض صفقات السلاح كان يتم توصيلها عن طريق منظمة ايوكا في قبرص . و يقول مراسل الصحيفة في بيروت إن هناك قناعة لدى

الدبلوماسيين الغربيين فى المنطقة أن دور اسرائيل ربما كان تغطية للمساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة ودول اوربا .

وقالت الصحيفة الأمريكية إن مصادر المخابرات الأمريكية أكدت أن المخابرات المركزية الأمريكية قدمت مساعدات إلى جبهة لبنان لعمل مخزون احتياطى من الأسلحة الخفيفة وذلك وفق برنامج الوكالة « المخابرات » لاستخدام الأقليات لوقف أى تقدم شيوعى . وفى نفس الوقت يؤكد الدبلوماسيون أن الحكومة الأمريكية لم تلعب دورا نشيطا وتركت الأمر لجهاز المخابرات .

وقد أكد دين براون المبعوث الأمريكى للبنان أن إسرائيل قدمت المساعدات العسكرية لإسرائيل (١٢) .

وذكرت وكالة الأنباء الفرنسية (١٣) أن ضباط الكتائب فى جنوب لبنان كانوا يتحدثون عن الوضع العسكرى فى الجنوب من إذاعة اسرائيل .

فى برنامج شريط الأسبوع لإذاعة إسرائيل فى ١٦ ابريل سنة ١٩٧٧ ذكر مذيع البرنامج أن قادة جبهة لبنان وجهوا خطاب شكر إلى وزير الدفاع سيمون بيريز على دعمه لقرى الجنوب المسيحية .

تشكلت فى إسرائيل لجنة تدعى « لجنة مساعدة جنوب لبنان » وهى تعمل تحت دعوى تقديم الأغذية والأدوية . وقامت مثلا بنقل ٤٠ طنا من الأسمنت لإقامة تحصينات عسكرية لقوات جبهة لبنان .

كان التنسيق فى جنوب لبنان يتم بين الجنرال أريل شارون قائد الاحتياط الإسرائيلى فى القطاع الجنوبى وسعد حداد قائد قوات الجبهة فى الجنوب .

وذكرت صحيفة « دافار » الإسرائيلية فى ٨ يوليو سنة ١٩٧٦ تصريحا لسيمون بيريز وزير الدفاع قال فيه إنه فى وسع اللبنانيين دخول إسرائيل للولادة والحصول

على المساعدات الطبية وحتى لتسويق منتجاتهم الزراعية . وأضاف أن إسرائيل تقيم علاقات جوار جيدة مع الأردن .

وذكرت نفس الصحيفة الإسرائيلية فى ١٢ يوليو أن بيريز قال فى جلسة مجلس الوزراء أن أكثر من ١٧٠٠ مريض وجريح قد تلقوا حتى الآن مساعدة طبية فى عيادة الجيش الإسرائيلى على حدود لبنان . وقال إنه تنفيذا لقرار الحكومة فى هذا المجال تقدم إسرائيل الملجأ المؤقت أو الدائم للاجئى لبنان . وأن يضم عشرات من اللاجئين دخلوا إسرائيل . كما يقدم الجيش الإسرائيلى المساعدات الغذائية والماء . وذكرت معاريف فى ١٥ يوليو تصريحا لمدير عام وزارة الزراعة قال فيه إن هناك اتصالات تجرى لتسويق المنتجات الزراعية من جنوب لبنان مقابل مواد طبية ومنتجات حيوية . وقالت صحيفة عال همشمار فى ٢ يوليو إن الجيش الإسرائيلى قام بمد خط لماء الشرب إلى ماوراء الحدود قرب قرية رميش اللبنانية(١٤) .

وكان كل ماتريده إسرائيل هو «تعويد» اللبنانيين فى الجنوب «شيعة ومورنة» على التعامل معها فى مجالات مختلفة حتى ترتبط مصالحهم بإسرائيل .

ونظرة على تصريحات قيادات اسرائيل توضح أن سياسة إسرائيل قد مرت بثلاث مراحل . الأولى كانت مرحلة متابعة الموقف فى لبنان بعناية وتقديم العون إلى الموارنة . وعبر عنها الجنرال موردخاى جور(١٥) بأن إسرائيل تشعر بالقلق من أحداث لبنان وحذر من أى تغيير فى الوضع الداخلى . وهو نفس المعنى الذى كان قد أعلنه إسحاق رابين رئيس الوزراء فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٧٥ . وبعده بيومين زاد عليه إيجال آلون وزير خارجية إسرائيل توضيحا بأن إسرائيل لا تنوى التدخل فى لبنان حاليا . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة إنذار وتهديد بأن إسرائيل لن تقبل تدخل خارجى فى لبنان وعلى وجه خاص تدخل سورى . فأعلن إسحاق رابين رئيس الوزراء فى ١٥ اكتوبر سنة ٧٥ أن إسرائيل ترى فى أى محاولة للتدخل فى

لبنان ستخلق وضعا بمثابة اعتداء على أمن اسرائيل . وهدد بالتدخل العسكرى فى لبنان إذا دخلت سوريا . ولم يكن هناك أى حديث أو إشارة إلى تدخل سورى فى ذلك الوقت . وفى ١٥ مارس التالى أعلن شيمون بيريز ير الدفاع أن إسرائيل قد تضطر للتدخل فى لبنان إذا تحرك جيش سوريا لدخول لبنان . وكان الحديث وقتها ينحصر فى المبادرة السورية والمناقشة حول الوثيقة الدستورية . وربما كان المقصود هو الإيحاء لسوريا ببحث إمكانية تدخلها فى لبنان إلا إذا كانت لدى إسرائيل معلومات أخرى تختلف . وهو مؤكد مالم يكن موجودا فى دوائر سوريا .

والمرحلة الثالثة كانت بدايتها فى اعتقادى بتصريح للناطق باسم وزارة خارجية إسرائيل فى ١٥ أبريل ينفى استعداد إسرائيل لقبول تدخل سوريا فى لبنان . وفى ١٢ ابريل قال إيجال آلوان فى الكنيست ، أما فيما يتعلق بلبنان فإن السكوت من ذهب .

وقد دارت مناقشة خلال ذلك أعتقد أنها واحدة من أبرز المناقشات التى كان يجب متابعتها يومها من العرب . والمناقشة دارت حول إمكانية التدخل العسكرى الاسرائيلى فى لبنان . ولما كان من الصعب معرفة مادار فى دوائر صنع القرار الإسرائيلى فإنه على الأقل يمكن متابعة الحوار من خلال مواقف الصحف الإسرائيلية (١٦) .

فقد ذكرت صحيفة معاريف فى ٦ يونيوسنة ١٩٧٦ أن موشى ديان يرى أن على إسرائيل ألا تتدخل بأى شكل فى لبنان . وأن على الجيش الإسرائيلى ألا يعبر الحدود حتى لو احتل السوريون ببيروت ولبنان كله إلا طلب لبنان رسميا التدخل .

وقالت « يديعوت أحرونوت » فى ٨ يوليو إن سياسة الحكومة هى « انتظر ولا تعمل » وأن الهدوء والسكينة يسودان الحدود الإسرائيلية بينما العالم العربى

مفككك . والخلاف بين مصر وسوريا مصدر رضى لإسرائيل وكذلك الخلاف بين سوريا ومنظمة التحرير الذى يؤثر فى سياسة دمشق و يعزز فيها الاتجاهات المعتدلة .

وترى « هآرتس » فى ٩ يوليو أن إسرائيل لو تدخلت لقدمت بذلك المساعدة لياسر عرفات واليسار اللبنانى . فالشرخ بين مصر وسوريا الذى توقعه إسحاق رابين فى ديسمبر سنة ١٩٧٤ حقق نجاحا يفوق أى تقدير على يد عنصر لم يكن رئيس الحكومة يحلم به . وفى ١١ يوليو ذكرت نفس الصحيفة أن الرأى السائد فى إسرائيل هو أنه ليست هناك معطيات كافية لاتخاذ قرار حاسم ونهائى بشأن الموقف فى لبنان . وأن الواضح لإسرائيل أن موقفها من التدخل السورى فى لبنان لاينطبق على أى تدخل عربى عسكرى فى لبنان . فلو تدخلت أطراف عربية أخرى فإن اسرائيل لا تستطيع السكوت . فتدخل سوريا ينتج عنه سقوطها أمام العرب مما يتيح فرصة أكبر لعقد صفقات جديدة للتسوية وتدخل إسرائيل يفسد هذا الأمل و يوجد العالم العربى و يعيد لسوريا مكانتها . ولا ينطوى على ذلك كله إلا تعرض أمن إسرائيل لخطر حقيق .

وهكذا تبلور الموقف فى أن قيادة جبهة لبنان المارونية تريد إسرائيل أن تتدخل عسكريا بينما ترى إسرائيل أن تدخلها فى صالح الثورة الفلسطينية واليسار اللبنانى بل ويعيد وحدة الجبهة العربية التى ترى إسرائيل أن من مصالحها العليا أن تكون مفككة وأن إسرائيل طرحت فكرة تدخل سورى مسلح فى لبنان قبل أن يفكر فيها أحد آخر بطريق طرح المرفوض إسرائيليا ليكون مقبولاً عربيا أو على الأقل يبدو وكأنه مفروض على إسرائيل وفى غير صالحها بينما فى النهاية يلتقى بل يتطابق تماما مع مصالحها . فجبهة لبنان راهنت على تدخل إسرائيلى بينما راهنت إسرائيل على تدخل سورى .

وقبل الانتقال إلى نقطة أخرى حيث يعالج التدخل السورى فى فصل آخر فانه لابد من توضيح أن إسرائيل كانت الدولة الوحيدة فى العالم التى شجعت تقسيم لبنان. كما أنها انفردت بموقف رفض الوثيقة الدستورية التى توصل إليها سليمان فرنجية وحافظ الأسد. وكان اتجاه معظم تعليقات صحف إسرائيل هو التشكيك فى إمكانية تنفيذ الوثيقة واعتبرتها صحيفة دافار ـ ٤ فبراير ـ ستؤدى إلى محو الكيان القومى للطائفة المارونية من خريطة لبنان السياسية وتصورتها معاريف ـ ١٥ فبراير ـ انقلابا فى توزيع القوى السياسية بلبنان مع أنها تبدو مجرد تعديلات تجميلية بعمل تعادل فى نسبة التمثيل النيابى وتلغى حق رئيس الجمهورية فى تعيين رئيس الحكومة. وتقول « هاتسوفيه » ـ ٢٠ فبراير ـ إنها بداية فقدان المسيحين للمواقع التى تؤمن لهم الامتيازات فى جميع مجالات الحكم. واعتبرت « عال همشمار » ـ ٢٠ فبراير ـ أن سوريا هى المنتصر الأساسى فى الأزمة اللبنانية. وأن الوثيقة هى تعبير عن انتصار دمشق.

وباختصار فإن اسرائيل كانت مع التقسيم وضد الإصلاح والتغيير فى البنيان اللبنانى فهى تريده أن يبقى على شكله الخاطىء. وتبقى مسألة أخيرة فى أحداث لبنان وكان لإسرائيل موقف منها هو جيش لبنان العربى. فقد اعتبره سيمون بيريز ـ معاريف ١١ مارس ـ مسألة موضع بحث. وإسرائيل ستحدد موقفها بناء على سلوك جنود هذا الجيش الذى يضم الفارين من جيش لبنان ويحتل مواقع على حدود إسرائيل. وعلقت الصحيفة فى نفس اليوم على الموضوع بأنه يعتبر عملية لها انعكاسات خطرة سواء بالنسبة إلى الوضع الداخلى فى لبنان أو بالنسبة إلى مستقبله والوضع على الحدود مع لبنان. وقالت صحيفة دافار ـ ١١ مارس ـ إن الفراغ الذى نشأ نتيجة ترك الجيش اللبنانى مواقعه فى الجنوب جعلها مراكز للقوى المعادية. وأن أسوأ مافى تمرد هؤلاء الفارين من الجيش اللبنانى هو تمركزهم فى المواقع الأمامية

على حدودنا الشمالية وأن هذا الجيش بدد الآمال التى علقها المسيحيون على وقف القتال والتسوية فإنه أصبح من المتوقع نهاية جيش لبنان بالقيادة المسيحية. والمعروف أن إسرائيل كانت تضع الآمال على جيش لبنان الرسمى بأن يتدخل ـ حسب اقتراح « هآرتس » ١٨/٩/٧٥ ـ و يفرض بمساعدة قوى الأمن والميلشيات النظام فى لبنان . والأهم أن يقضى على الوجود المسلح للمخربين ـ المقاومة ـ الذين هم مصدر كل مصائب لبنان . وهو نفس تعبير بيير الجميل . وهكذا جاء إنشاء جيش لبنان العربى ـ الذى أثار غضب دمشق ـ ضربة لآمال إسرائيل . وقالت «عال همشمار» ـ ١١ مارس ـ إن التمرد فى الجيش اللبنانى هو مظهر للمعارضة المقنعة من جانب العناصر المتطرفة لدور سوريا فى إيجاد حل وسط . وربما ينطوى أيضا على تعبير من الاستياء على تقارب دمشق ـ عمان على حساب منظمة التحرير والمقاومة .

أما موقف إسرائيل تجاه انقلاب عزيز الأحدب فقد كان ـ دافار ١٤ مارس ـ الشك فى وجود اتجاه فعلى نحو حماية حدود لبنان وتوحيد جيشها ـ وترى ـ يديعوت أحرنوت ١٤ مارس ـ أنها حركة لبنانية داخلية مع أنه يبدو أن السوريين سعداء بها .

و يقول المعلق السياسى لصحيفة دافار ـ ١٤ مارس ـ إن ذلك هو على مايبدو الطريق فى المعسكر المارونى للمحافظة على كيان لبنان وحماية مكانتهم فيها . فهم لايؤمنون بسياسة فرنجية ولا شمعون كما أنه خاب أملهم فى احتمال تدخل غربى أو إسرائيلى . وهم يعلمون أن ميزان القوى العسكرى قد تغير فى صالحهم . وهم لايريدون جولة أخرى من الحرب وربما كان انقلاب الأحدب هو الحل الأفضل فى الظروف الحالية فإذا نجح الجيش فى تحقيق الاستقرار والهدوء سينشأ احتمال أن يبقى لبنان قائما بصيغته الخاصة .

ولاأجد ماينهى هذا الجزء سوى مقال لكاتب إسرائيلى فى صحيفة دافار - ١٩ ابريل - بعنوان « اتركوا السوريين يتورطون فى لبنان » . و يبدأ بتوجيه النقد لجنرالات إسرائيل الذين طالبوا بالتدخل فى لبنان . و يقول إنه لو كانت الحكومة وافقت على هذه النصائح لكانت قد ارتكبت خطأ لايغتفر . و يشير إلى أن أكبر فائدة جنتها إسرائيل من عدم التدخل فى لبنان هى توريط سوريا هناك حيث وقعوا هناك فى وضع « مخجل » لايبدو أن بإمكانهم الخروج منه فى وقت قريب . ان سوريا تورطت أكثر مما أرادت وهى لا تعرف كيف الخلاص و بالتالى فهى غير قادرة على فتح جبهة أخرى أو شن حرب على إسرائيل .

وتساءلت هآرتس - ٢ ابريل - وهل كان فى إمكان إسرائيل أن تتدخل فى لبنان دون تنسيق مع الولايات المتحدة . وهو مايفرض علينا الوقوف للانتقال إلى الدور الأمريكى .

الولايات المتحدة

والحقيقة ان الولايات المتحدة كانت فى قائمة الإجابات من أطراف الصراع بلبنان هى الدولة المتهمة رقم واحد . وإن اختلفت اتهامات كل طرف من الأطراف حسب موقعه . فنجد أن ريمون اده زعيم حزب الكتلة الوطنية يتهم المخابرات الأمريكية بأنها هى التى دبرت قيام الحرب الأهلية فى لبنان ، أما شربل قسيس فقد سمعته يقول إن السياسة الأمريكية غبية فإن تعاملت مع وزارة الخارجية فضحكتك المخابرات . وإن تعاملت مع المخابرات فضحكت الأجهزة الأمريكية الأخرى فهى سياسة تسير بأكثر من أداه وكلها لا تلتقى بل تسير فى خطوط متوازية . أما كميل شمعون فإنه يعتقد أن السياسة الأمريكية غبية لأنها ا

تتدخل بقوات الأسطول السادس مثلما فعلت سنة ١٩٥٨ . وهى لا تعرف حليفها من عدوها وتعتقد القيادات الإسلامية أن الولايات المتحدة هى التى خططت للحرب الأهلية اللبنانية بينما يرفض اليسار هذا التفسير. و يعتبره تبسيطا للأمور فنجد أن تقرير اللجنة المركزية لمنظمة العمل الشيوعى يقول « إنه كم هو خاطىء تصور البعض لتلك الخطة كمجرد مؤامرة أعدتها دوائر المخابرات المركزية لينفذها هذا الحاكم العربى أو ذاك بضربة واحدة مفاجئة . فمثل هذا التصور المبسط قاصر كليا عن الاحاطة بجوهر الخطة الأمريكية كعملية تاريخية مناقضة لعملية النهوض الوطنى والقومى فى الوطن العربى وموجهة لتصفية نتائجها . مما يعنى أن استعادة وتوطيد السيطرة الامبريالية وفرض الحل الاستسلامى الإسرائيلى على العالم العربى يتطلب إحداث ردات عميقة اقتصادية اجتماعية سياسية فى المنطقة » .

والرأى السائد لدى اليسار اللبنانى والفلسطينى أن الولايات المتحدة تحركت بعد الأحداث للاستفادة منها

وقد سمعت من شخصية لبنانية أنه لو كان من الممكن الحصول على دليل واحد يؤكد ماسمعه من أن كيسنجر قال فى مجلس الأمن الأمريكى « إذا أردتم السلام فأعطوا لبنان لسوريا » لأمكن تحديد مدى التآمر أو التخطيط وسمعت من شخصية لبنانية عائدة من الولايات المتحدة أنه قيل له فى واشنطن .. « صحيح أن الخطة فى لبنان استغرقت وقتا أطول ولكنها فى النهاية حققت أهدافها » .

والواقع أن الولايات المتحدة تملك عدة مصالح ، واتجاهات تجعلها ليست بعيدة عن مواقع الشبهة والاتهام ..

فنجد أن زيارة نيكسون للمنطقة والتى قيل إنها تهدف إلى إقرار السلام فى الوطن العربى قد ارتبطت نهايتها ببداية سلسلة من الأعتداءات العسكر الإسرائيلية على مخيمات الفلسطينيين فى لبنان ، فهى قد بدأت بمجرد مغا

نيكسون لإسرائيل والمسألة ليست مصادفة لأنها ارتبطت أيضا بظاهرتين :

الأولى : فى فقرة وردت فى البيان المشترك الأمريكى ـ الإسرائيلى تدعو الدول العربية إلى وقف تشجيع « الإرهاب » الفلسطينى ضد إسرائيل . وأنه يجب على كل دولة الامتناع عن تنظيم وتشجيع إنشاء قوات غير نظامية أو عصابات مسلحة أو « فرق مرتزقة » الإغارة على أراضى دولة أخرى . .

الثانية : هى تصريحات رسمية إسرائيلية باستمرار الاعتداءات على مخيمات الفلسطينيين بلبنان .

ومعنى ذلك أن هناك اتفاقا أمريكيا إسرائيليا على تفويض إسرائيل بضرب الفلسطينيين باعتبارهم فى نظر الرئيس الأمريكى الذى استقبل بحفاوة بالغة ـ ! ـ فى أكثر من عاصمة عربية إلى حد رفع شعارات نحن نثق فى نيكسون . مجرد إرهابيين « وعصابات » و « مرتزقة » ولذلك أعلن إسحاق رابين رئيس الوزراء بترجمة ذلك لبنانيا فقال إنه مادام لبنان لايقوم بمسئوليته من منع تسلل الفلسطينيين عبر حدوده فإن إسرائيل تشعر بحرية ضرب قواعد الفدائيين وتجمعاتهم (١٧) .

وهناك أيضا ارتباط الولايات المتحدة بمجموعة من العلاقات الاقتصادية والسياسية مع مراكز وقوى اجتماعية وسياسية متنوعة ومتفاوتة فى لبنان . وفى مقدمتها شخصيات وقوى سياسية مثل كميل شمعون وحزبه بعد أن ورثت الولايات المتحدة المصالح البريطانية والفرنسية فى لبنان ويمثل حزب الكتائب رأس القائمة لهذه القوى بحكم تركيبه الحزب وعقيدته من جانب . وبحكم الشركات الأمريكية التى يتولاها قادة الحزب فى لبنان . كما أن العلاقات الأمريكية بقيادات الجيش اللبنانى ليست سرا على أحد (١٨) . ولابد أن يكون

واضحا أن علاقات أمريكية ليست محصورة فى أسماء مارونية بل هى تشمل قيادات إسلامية من الشيعة والسنة وإن كان أهمها من الشيعة .

ويضاف إلى ذلك دور السفير الأمريكى جورج جودلى خبير الانقلابات . وإن كان وجود جودلى مصادفة فالأمر الذى لايمكن تصوره مصادفة هو وصول تجار السلاح الذى كانوا يخدمون معه فى كاناتجا وفى بيافرا مثل الألمانى ـ الغربى ـ جونتر لينشوسر . كما أنه هو الذى دبر حادث تفتيش حقائب الوفد اللبنانى الذى يرأسه سليمان فرنجية عند وصوله إلى نيويورك . وكان جودلى قد أبدى استياء الولايات المتحدة من قبول لبنان مهمة الحديث باسم الدول العربية دفاعا عن القضية الفلسطينية ونصح بعدم قبولها ، بل ولوحظ أن جودلى لم يكن فى وداع الرئيس اللبنانى . وعند وصول الوفد فوجئت الوفود العربية التى ذهبت لاستقبال فرنجية أن قاعة الاستقبال مغلقة . والمسألة ليست مصادفات (١٩) .

ومعنى ذلك كله على ضوء الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة والتى سبق عرضها أن أحداث لبنان لم تكن مفاجأة للولايات المتحدة بل إن موقعها يأتى فى المكان الرئيسى للمخططين مع آخرين على حد قول تقرير اللجنة المركزية لمنظمة العمل الشيوعى .

يبقى بعد ذلك أن نرى رؤية الولايات المتحدة للأحداث من خلال تصريحات ومواقف الحكومة . فقد صرح مسئول أمريكى كبير ـ ٢٥ مايو يرافق كيسنجر على طائرته والمعتقد أنه كيسنجر نفسه أن الوضع فى لبنان مضبوط حاليا ولكنه قد ينفجر ويتحول إلى نوع من الحرب الأهلية كالتى وقعت فى الأردن . وكان ذلك التصريح فى أعقاب محاولة احتواء ردود فعل حادث عين الرمانة . ويقول إن خطر اعتبار السلام فى لبنان أمرا مسلما به يمكن أن يشبه الخطأ الذى ارتكبه زعماء أوربا فى صيف سنة ١٩١٤ عندما ذهبوا فى إجازة دون أن يصدقوا أن التوتر فى البلقان

يمكن أن يؤدى إلى حرب وهو ماحدث فى الحرب العالمية الأولى .

وبعد ٤٨ ساعة صرح نفس المسئول لـ كيسنجر أن الموقف يشبه ماكان عليه فى الأردن وأنه يمكن أن يؤدى إلى صدام بين إسرائيل وسوريا . ولعل أخطر ماجاء فى هذا التصريح هو قوله إن الوضع حتى الآن يبدو أنه من الممكن معالجته ولكن كل ماقد يحتاجه هو أن ترسل سوريا لواء من قواتها (٢٠) . أى أن الولايات المتحدة اقترحت إرسال قوات سورية إلى لبنان قبل دخول سوريا بأكثر من ١٢ شهرا وبعد مرور شهر واحد على حادث عين الرمانة ، والحرب لم تكن قد اشتعلت فعليا بعد .

وأعلن الرئيس فورد بعد ذلك - ٤ نوفمبر - أن أحداث لبنان خطيرة جدا . وأنه ليس من الضرورى إرسال قوات أمريكية إلى لبنان . وفى نفس اليوم أقر مجلس الشيوخ الأمريكى باغلبية ١٢ صوتا مشروع تقدم به السناتور اللبنانى الأصل جيمس أبو رزق يمنع أى تدخل أجنبى من أى دولة كانت فى الصراع الدائر حاليا فى لبنان . وبعد ذلك بيومين سلم السفير الأمريكى - جورج جودلى - رسالة من هنرى كيسنجر إلى كرامى رئيس وزراء لبنان نصها :

« عزيزى دولة الرئيس

« أراقب منذ فترة التطورات الجارية فى لبنان بقلق وبشعور عميق بالمحنه لشعب بلادكم . وأرجو أن تعرفوا أن حكومتى تأمل كل الأمل فى أن ينتهى القتال فى لبنان ، وأنها تؤيد كليا جهود حكومتكم لبلوغ هذه الغاية . إننا نتمنى لكم النجاح فى مساعيكم لتجميع كل المعنيين بالأمر وحثهم على التحلى بالاعتدال وروح التسوية ، وهما ضروريان لوضع حد للعنف ، وللبدء بعملية تفاهم سياسى تنبثق منه أسس جيدة للاستقرار والأمان لجميع

مواطنيكم . وأكرر أن هدفنا هو أن نرى حلاً يحفظ استقلال لبنان وسلامة أراضية وتماسكه ووحدته الوطنية » . وفى اليوم التالى - ٦ نوفمبر - تم استدعاء السفير الأمريكى فى دمشق إلى واشنطن . وقيل إن ذلك للتشاور حول إمكانية التفاوض على الجولان .

وقد أكد المتحدث باسم الخارجية الأمريكية مضمون رسالة كيسنجر بتصريح له - ١٣ نوفمبر - إن الولايات المتحدة لن تؤيد أى اقتراحات تهدف إلى تقسيم لبنان . وأن الحكومة الأمريكية تؤيد المحافظة على سيادة لبنان وسلامة أراضيه وكان تفسير النيويورك تايمز فى أول ديسمبر أن السياسة الأمريكية تقف إلى جانب رئيس الوزراء رشيد كرامى باعتباره رجل التغيير التدريجى فى النظام ولكنها فى نفس الوقت تقدم السلاح إلى المسيحيين . فهى تتعامل مع الطرفين .

وحدث تغير فى السياسة الأمريكية إذ أعلن ناطق باسم الخارجية - ٨ يناير - أن الولايات المتحدة تعارض أى تدخل أجنبى فى لبنان سواء من جانب سوريا أو إسرائيل . وهو ما أكده الرئيس فورد بعد ذلك بأيام . وفى ٢٩ يناير ذكر هذا المتحدث أن الولايات المتحدة تعترف بالدور البناء الذى تلعبه سوريا فى لبنان - الوثيقة الدستورية - بعد الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار . وإن كان ذلك لم يغير من تأكيد الولايات المتحدة على رفض التدخل العسكرى . فقد ذكر كيسنجر - ٢٢ مارس - أن الولايات المتحدة لايمكنها أن تقوم بأى عمل مادى للمساعدة على حل الأزمة ولكننا أيضا حذرنا كل الأطراف بما فيها إسرائيل وسوريا من أى تدخل فى لبنان لأن الولايات المتحدة لا تؤيد أى تدخل فردى أو بمعنى آخر تعارض أى تدخل فردى « وبعد ذلك بأسبوع - ٢٩ مارس - صدر بيان أمريكى يحذر سوريا وإسرائيل من التدخل العسكرى فى لبنان لأنه ينطوى على خطر كبير يجب تلافيه . ويدعو البيان إلى وقف اطلاق النار وحل مسألة الرئاسة دستوريا وفى اليوم التالى

فسر الناطق الرسمي الأمريكي البيان بأنه ليس ضد أي تدخل مقبول من السلطات اللبنانية . »

وقد أرسلت الولايات المتحدة دين براون - ٣١ مارس - مبعوثا من الرئيس الأمريكي وقد أعلن فور وصوله أنه ليس وسيطا ولكنه جاء ليقوم بمهمة السفير الغائب . وسوف يقوم بتقديم تقرير إلى الرئيس الأمريكي بعد أن يتصل بجميع الأطراف . والمهم أن دين براون كان هو نفسه السفير الأمريكي فى عمان وقت مذابح أيلول فى الأردن سنة ١٩٧٠ . ومؤكدا أنها ليست مصادفة اختيار هذا الشخص من دون كل الدبلوماسيين الأمريكين للقيام بهذه الوساطة الأمريكية ، وفى هذا الوقت ، وفى هذه القضية على وجه خاص التى قال عنها كيسنجر أكثر من مرة مثل أحداث الأردن ، بل وارتبط وصول بطل مذابح الأردن فى بيروت بزيارة الملك حسين للولايات المتحدة .

وخرج اقتراح غريب من واشنطن بينما كان براون فى بيروت يقابل كل الأطراف ماعدا الفلسطينيين . فقد اقترح مانسفليد زعيم الاغلبية الديمقراطية فى مجلس الشيوخ الأمريكى - ٦ ابريل - إرسال قوة بوليس دولية إلى لبنان مكونة من وحدات عربية وإسرائيلية .. !!

وفى نفس اليوم أعلن جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية فى شهادة أمام الكونجرس أن أستمرار التوتر فى لبنان يهدد جهود السلام التى تبذلها الولايات المتحدة وأكد أن دور سوريا بناء لأنه يهدف إلى تحقيق أمرين . الأول هو وقف إطلاق النار والثانى إجراء الاصلاحات السياسية .

وحدث تغيير مفاجىء فى اليوم التالى - ٧ ابريل - إذ صرح كيسنجر أن الولايات المتحدة لن ترسل قوات إلى لبنان حتى لو تدخلت سوريا عسكريا . الدور الوحيد للأسطول السادس هو فى إجلاء الرعايا الأمريكيين .. وواضح من

مهمة كيسنجر أنه بدلا من التحذير برفض تدخل عسكرى سورى إلى أن الولايات المتحدة لن تتدخل إذا تدخلت سوريا عسكريا . وبعد أيام أعطى كيسنجر مزيدا من التفاصيل لتبرير التغير فى السياسة الأمريكية فقال ـ ٩ إبريل ـ إن المشكلة الأساسية فى لبنان هى عدم وجود قوة مسلحة تحت تصرف الحكومة اللبنانية .

وكان التغير الثالث فى أسبوع واحد حين قال كيسنجر ـ ١٤ ابريل ـ أمام لجنة فرعية للميزانية فى مجلس الشيوخ إن الولايات المتحدة وإسرائيل متفقتان على أن التدخل السورى لايهدد إسرائيل . وأن أمريكا قد أقنعت إسرائيل بعدم التدخل العسكرى فى لبنان .

وبينما الحديث يمضى فى هذا الاتجاه كان كميل شمعون يصرح لصحيفة « المونتدى مورننج » ـ ٢٦ ابريل ـ أن لبنان يجب أن يحتفظ لنفسه بحق استدعاء الولايات المتحدة فى الأزمة اللبنانية . وفى اليوم التالى وصل الى بيروت السفير الأمريكى الجديد الذى بدأمهمته بهجوم على المقاومة ووصفها مثل بيير الجميل بأنها « دولة داخل الدولة » ومدح سوريا التى قامت بدور أساسى فى لبنان . وأكد أن السياسة الأمريكية تدعم جهود سوريا .

ونعود مرة أخرى إلى بيروت لمتابعة مهمة المبعوث الأمريكى للمذبحة دين براون . فهو قد اجتمع بكل الأطراف باستثناء الفلسطينيين . وقد درست معظم محاضر جلساته فلاحظت أنه يتحدث مع طرف بما يؤيد وجهة نظره . وكانت المهمة التى جاء لها هى استمرار الحرب اللبنانية وليس إيقافها . وقد فضلت عدم الحصول على صورة من هذه المحاضر خوفا على حياة الذى قدمها لى . وكان الأفضل هو عرض ملخص لها من خلال وثائق طرف كان قد أصبح صديقا للولايات المتحدة وبالتالى فليست هناك شبهة فى وثائقه وأعنى اوراق تنظيم الصاعقة الفلسطينية الرابية السورية الأصل . ففى رسالة من زهير محسن إلى القياد السورية يقول فيها

« إن براون أكد لجنبلاط أنه يعتبر برنامج الأحزاب الوطنية قريبا من برنامج الحزب الجمهوري . وأن مشكلة أمريكا الأساسية هي الأمن وأن فورد - الرئيس الأمريكي - اتصل بدمشق وأخذ الموافقة على عقد جلسة مجلس النواب المقررة غدا . وقال براون إنه يقترح لحل مشكلة الأمن الاعتماد على الميليشات المحلية كقوى ردع ريثما يتم تنظيم الجيش وتشكيل ميليشيا موحدة متطوعة من جميع الأحزاب . وأشار براون - طبقا لوثيقة الصاعقة - أنه يمكن الاستعانة بخبراء أجانب من باكستان والنرويج والولايات المتحدة لإعادة بناء مؤسسات الدولة ولكن جنبلاط رفض اقتراحات براون » .

وهذه الوثيقة تحمل رقم ٩٦٨/ ١٠١ في ٢٠أبريل ١٩٧٦ .

ورأى براون للطرف الآخر سجلته برقية زهير محسن إلى قيادته - السورية - يقول فيها إنه « ثبت أن براون كان يشجع سليمان فرنجية وجماعة الكسليك على التصعيد وعدم الاستعجال بنفس الوقت الذي يشجع فيه جنبلاط على رأيه .

وتقول الوثيقة إن أمريكا - براون طبعا - لم تحسم رأيها فيما يتعلق باسم مرشحهم للرئاسة . والوثيقة تحمل رقم ٩٩٢/ ١٠١ في ٢٦ إبريل سنة ١٩٧٦

والأمر المؤكد طبقا للمحاضر التي قرأتها أن دين براون كان يشبه في حديثه صراع العرب على ساحة لبنان بأنه مثل صراع الديوك . وفي إحدى الجلسات قال إنه مثل صراع كلاب البحر ولكنه استرجع نفسه وقال إن كلاب البحر ربما كانت تفهم وعاد إلى تشبيه الديوك - ! - كما أنه قال لقيادة جبهة لبنان إن كل المطلوب منهم هو « الصمود » وأن يكون ذلك شعارا لمدة شهر أو شهرين على الأكثر و بعدها سوف تدخل سوريا لضرب مواقع القوات المشتركة .

وسافر دين براون بعد ذلك وكأن هذه هي كل مهمته ولكنه عاد مرة أخرى في

٢ مايو أي قبل إجراء انتخابات الرئاسة واجتمع بكل من المرشحين ريمون اده والياس سركيس مما اعتبرته القيادات اللبنانية من الطرفين خطأ دبلوماسيا حيث كشف تدخله فى عملية الانتخابات بينما رفض المبعوث الفرنسى مقابلة المرشحين حماية للحياد فى الانتخابات . و بعد أن انتهت الانتخابات ترك بيروت وفى المطار أعلن (٢١) :

— أن جميع الفرقاء أدركوا أنه لن يكون هناك رابح وخاسر لأنه يستحيل على أى فريق تأمين انتصار عسكرى .
— إن دور سوريا فى لبنان مدروس ومعتدل . ومسألة دخول مزيد من القوات السورية مرتبط بقرار من الرئيس المنتخب إلياس سركيس .
— أن لبنان لن يصبح جرما يدور فى الفلك السورى ، كما لن يصبح دولة مواجهة ضد اسرائيل .
— أن مايتطلبه لبنان هو السلام والسعى نحو أهداف جديدة من الإصلاح والعدالة الاجتماعية .
— أن مهمتى فى لبنان كانتا تقريب الآراء وتحقيق التجانس بغية حمل الفرقاء فى النزاع على التفكير إيجابيا .

وعاد براون إلى بلاده لكنه ظهر فجأة فى المنطقة فى أول يوليو بعد شهرين تقريبا وهذه المرة كان فى عمان بدعوى الاشتراك فى المؤتمر الأردنى للتنمية بصفته مديرا لمؤسسة الشرق الأوسط ، ومصادفة أن هذا اليوم هو الذى كانت فيه جيوش سوريا تدخل أراضى لبنان .. مجرد مصادفة .. !

ونعود بعد هذه الصورة من التصريحات إلى محاولة تحديد خطوط السياسية الأمريكية خلال الأزمة وهى :

١ - أن الولايات المتحدة كانت ترى ضرورة استمرار الحرب حتى تحقق الهدف وهو إجهاد الفلسطينين وتفتيت الموقف العربى باعتبار أن مجرد الاستمرار يكشف و يعمق التناقضات بين الدول العربية . وهو مايجعل أصوات المعتدلين أكثر قبولا و بالتالى يفتح بابا أو بمعنى آخر يزيل عقبة من طريق الجهود الأمريكية لتسوية الأزمة فى الشرق الأوسط كما تتصورها

٢ - أن الحكومة الأمريكية . كانت ضد تقسيم لبنان بشكل حاسم .. وهو واضح من كل تصريحات القيادات الأمريكية . وهو أمر لو أخذ على ظاهرة لكان موقفا يحمد للسياسية الأمريكية إلا أن فلسفة القيادة الأمركية فى ذلك واضحة وهى أن قبول التقسيم يعنى قيام دولتين ، صحيح أن واحدة منها مارونية ولكن الأخرى سوف تكون فى أيدى اليسار اللبنانى والفلسطينى . وهو مالا يمكن أن تقبل به الولايات المتحدة . ولما تأكدت قيادة الجبهة اللبنانية أن فكرة التقسيم مرفوضة من كل الحلفاء باستثناء إسرائيل طلبت البحث عن بديل . وقدمت الولايات المتحدة فكرة الكانتونات أو المقاطعات ذات الاستقلال الذاتى مثل سويسرا . وكان أول من طرح الفكرة(٢٢) علنا هو الدكتور شارول مالك وزير خارجية لبنان السابق فقد أعلن ـ ٥يوليو ٧٦ ـ أنه ليس لديه معلومات عن خطة أمريكية للتقسيم ولكنه يتصور بعد كل الذى حدث فى لبنان «أن الأمر يكان على إستعداد للنظر فى المساهمة فى إيجاد نوع من التنظيم الداخلى الذى يؤدى إلى الاستقرار . وهذا قد يشمل شيئا من الفيدرالية أو نظام الكانتونات» .

وفى الشهر التالى عاد الرئيس السابق شارل حلو من أوروبا بعد غياب ٦ أشهر وأدلى بتصريح لإذاعة هولندا بدأه بالدعوة إلى اعتماد نظام الكانتونات والعمل باللامركزية فى مجالات الاقتصاد والإدارة وقال إن لبنان سويسرا الشرق . و بعد ذلك بدأ الحديث عن نظام الكانتونات على لسان كل قيادات

جبهة لبنان إلى أن أعلن كيسنجر تأييده لمشروع إعادة توحيد لبنان عن طريق الكانتونات وقال ـ ١٩ أكتوبر ـ إنه يجب أن يكون لكل من الطائفتين المسيحية والإسلامية نمط حياة خاص يتوافق مع التقاليد الخاصة بكل منهما .

٣ ـ أن لا تتحول لبنان إلى جبهة قتال مع إسرائيل كما أكد براون فى تصريحه بالمطار.

٤ ـ إن الولايات المتحدة تريد أن تكون القاعدة فى لبنان هى ما كان سائدا فى الماضى . وتعود الكل فى لبنان أن يطلق عليه قاعدة لاغالب ولامغلوب . ولما كان المنتصر حتى يوم وصول دين براون هى القوات المشتركة ـ الفلسطينية واللبنانية ـ فقد كانت ترجمة ذلك هى سحب الانتصار منهم أى فرض هزيمة عليهم .

٥ ـ الإيحاء لسوريا بامكانية التدخل عسكريا فى لبنان قبل مايزيد عن العام من خروج الفكرة إلى حيز التنفيذ . وذلك بوضع صانع القرار فى سوريا تحت تأثير عوامل تصل به بحسابات خاطئة إلى هذا القرار. ومثال هذه الضغوط اقتراح مانسفيلد بإرسال قوات مشتركة عربية إسرائيلية أو أن استمرار حرب لبنان يضع سوريا فى خطر الصدام مع إسرائيل وهى ليست مستعدة له . كما أن هناك خطر تدخل الأسطول السادس مثلما طلب كميل شمعون . ووصل الأمر إلى درجة أن جيمس سليزنجر وزير الدفاع السابق قال ـ ١٧ مايو ـ إنه كان على الولايات المتحدة أن تبعث بقواتها العسكرية إلى لبنان مثلما فعلت سنة ١٩٥٨ . وكان تفسيره أنه لولا الرأى العام العالمى والضعف الحاصل فى القوة العسكرية الأمريكية لما ترددت أمريكا فى التدخل العسكرى فى لبنان .

والواقع أن ذلك هو نوع من طرح الأفكار المرفوضة أو على الأقل غير ممكنة فنجد مثلا أن الرئيس فورد صرح بوضوح ـ ٢٠ مايو ـ « أنه لن يرسل قوات أمريكية

للتورط فى الحرب الأهلية اللبنانية » . وليست المسألة ترفعا عن التدخل ، بل هو يقول إنه من غير الممكن للولايات المتحدة أن تتدخل عسكريا لأن هناك وسائل أفضل للمساهمة فى حل الأزمة » . أى أن هناك من يستطيع أن يقوم بالدور الأمريكى دون حاجة للتعرض لمصاعب التحرك الأمريكى . ومن المعروف أنه منذ انتهاء حرب فيتنام وقد قيد الكونجرس حق الرئيس الأمريكى فى إرسال قوات إلى أى مكان دون تصريح مسبق من الكونجرس . وهو قرار يستحيل الحصول عليه من أجل الموارنة خاصة وأن ظروف سنة ١٩٧٥ تختلف كثيرا عن ظروف سنة ١٩٥٨ . وبحكم أن أمريكا لن تستطيع استخدام قواتها ، كما أن إسرائيل لا تستطيع استخدام جيشها كما سبق أن وضح من الحسابات الإسرائيلية . ولكن الموقف يحتاج إلى قوة لوضع السياسة الأمريكية موضع الالتزام . وكانت المراهنة الأمريكية على سوريا مثلما كانت المراهنة الإسرائيلية عليها .

وإنصافا فإن نظرة الحساب السياسى الأمريكى - الإسرائيلى فى هذا الإطار لابد أن ترتبط بالإعجاب فى حسن الاختيار والإعداد . فسوريا بلا جدال كانت هى العمق العربى للثورة الفلسطينية . وهى نافذة الثورة وطريقها الوحيد للحصول على إمدادات سواء عسكرية أو حتى غذائية باعتبار أن البحر محكوم بالأسطول السادس والوجود الإسرائيلى المعاون . وهو ما يمكن أن يمنع أى دعم للمقاومة إلا عن طريق الأرض السورية . وبحسبة بسيطة يصبح الصمود السورى أمام الضغوط ضرورة لا بديل لها لاستمرار الثورة الفلسطينية .

وانطلاقا من هذه المعادلة الشديدة الوضوح كان طبيعيا أن يتجه التخطيط نحو الضغط على عنصرى الموقف « السورى - الفلسطينى » بقصد كسر الموقف الفلسطينى واحتواء الموقف السورى . وقدمت حرب لبنان هذه الفرصة لتحقيق الهدفين معا . ولم يكن على مخطط سورى أن يفجر الصراع فى لبنان وكان ضمان

التدخل هو العامل الأساسي للتصلب الذى التزمت به مواقف جبهة لبنان رغم ضعفها فى مواجهة القوات المشتركة . فلو كانت حسابات جبهة لبنان مجرد حسابات لبنانية لكان عليهم التوقف عن التصعيد ووقف الحرب ، خاصة وأن الخسائر كانت فى تصاعد . ولكن ماحدث هوعكس ذلك . ويمكن القول إنه كان وليد غباء أو عناد . فلا الغباء ولا العناد لهما حنباب فى العمل السياسى . لكنهم فى الواقع تصرفوا على أساس أن ميزان القوى الداخلى ليس وحده هو العنصر الحاسم الذى يقرر نهاية الحرب .. وكان اعتمادهم طول الوقت على العمق الخارجى الذى تمثله شبكة العلاقات مع إسرائيل والولايات المتحدة . ولكن كل من الحليفين لايستطيع لحسابات يرى أنها أهم إمكانية التدخل لصالح الجبهة . ولم يكن هناك سوى التخطيط لتشجيع سوريا مع رفض تعبير التوريط المستخدم عادة . فهى القوة الوحيدة التى كانت تمثل جبهة صمود عربية فى مواجهة الخطة الأمريكية . وهى وحدها التى إن تحركت لا تثير شكوك المقاومة باعتبار أن لها رصيدا من شعارات ومواقف مع الثورة تبعدها عن دائرة الشك والتخوين المسبق .

وكان التوظيف السياسى الناجح لحرب لبنان هو أن تنكسر قوى الثورة الفلسطينية و يتم إخضاعها لحساب عربى رسمى . وليس لحساب فلسطينى مستقل بقدر الإمكان، وفى نفس الوقت تفقد سوريا ماكان لها من رصيد على المساحة العربية . وكان الافتراض الأمريكى الإسرائيلى أن سوريا تقبل ، فهو رهان مضمون قائم على عملية حساب سياسية لطريقة اتخاذ القرار فى سوريا والعوامل المؤثرة عليه . وكانت كلها عوامل سورية عربية . والخطأ فى مثل هذه الحالات أنه حساب موقف يكون على حساب الهدف أو بمعنى آخر رؤية موقف يعالج بتكتيك يكون فى النهاية على حساب الاستراتيجية وعلى حساب الهدف النهائى . ويسقط الكل ضحايا يذرفون الدمع على الأمل الضائع والغد المفقود . والسياسة لا تعرف

النـدم ولا الدموع بل الخطأ فيها مسألة محسوبة لابد من تداعى الحوادث على أساس طريقة معالجتها و بالتالى يدفع الكل ثمن الخطأ .

وكان لابد ضمانا لنجاح الخطة سواء بالإيحاء أو التوريط أو التخطيط أن تبقى أوراق الحركة فى الصراع اللبنانى على المائدة الأمريكية . ولكن الحدث الكبير قد أثار اهتمام أطراف دولية كثيرة منها فرنسا والفاتيكان . والفاتيكان بحكم دوره الدينى ، فهى مسألة ليس صعبا معرفة مجال حركته ، أما فرنسا فهى ترتبط بالموارنة بروابط وثيقة عبر سنوات كثيرة وهى صاحبة النفوذ السابق فى لبنان إلى أن جاء الوجود الأمريكى ليرث كل شىء . وعودة فرنسا تمثل ثغرة كان لابد من العمل لإحتواء آثارها بسرعة وفى تعليق لمجلة لبنانية إن موقف رشيد كرامى الرافض للمبادرة الفرنسية بعد أن كان يمتدح موقف فرنسا يرجع إلى أن الولايات المتحدة تريد أن تقطع الطريق أمام فرنسا فى لبنان . وقالت المجلة إن هنرى كيسنجر لم يعمد إلى توجيه رسالة إلى رشيد كرامى رئيس الوزراء إلا بعد الاعلان رسميا عن المبادرة الفرنسية وإرسال مبعوث فرنسى إلى لبنان . وأن توقيت الرسالة والحرص على نشرها يهدف قطع الطريق على المبادرة الفرنسية . وهو فى اعتقادى ماينقلنا إلى بحث الدور الفرنسى الذى دفع الولايات المتحدة إلى محاولة احتوائه ثم إبعاده .

فرنسا

لقد تحركت فرنسا بالوساطة بعد حوالى ثمانية أشهر من بداية المأساة وهى قد تعمدت (٢٣) هذا حيث تكون أطراف القتال قد أصيبت بالإرهاق . وتكون القوة التى أشعلت الحرب قد تأكدت من فشل خطتها . كما أن الطبقة البورجوازية تكون قد حددت لها موقفا برفض القتال نتيجة فداحة خسائرها . فهى قد أجادت حساب حركتها .

وهذا الرأى برغم أنه صحيح إلى حد بعيد ، إلا أن الواقع يشير إلى أن فرنسا كانت تتابع الأحداث منذ البداية . وتحاول أن تجد مخرجا وخاصة أن روابطها التقليدية بلبنان عامة والموارنة على وجه خاص أحد حقائق الحياة السياسية فى لبنان فبعد شهر واحد من حادث عين الرمانة و بالتحديد فى ١٧ مايو أبلغ الرئيس اللبنانى السابق شارل حلو سليمان فرنجية أن المسئولين الفرنسيين على كل المستويات مهتمون بالوضع اللبنانى وذلك إنطلاقا من العلاقات التاريخية التى تربط لبنان بفرنسا .

وكانت أول خطوة للتعبير عن استعداد فرنسا لتجاوز مرحلة القلق إلى دور أكثر إيجابية فى أول يوليو حين أعلن الرئيس الفرنسى ـ ديستان ـ أن فرنسا قلقة على الوضع فى لبنان ، وأنها مستعدة لأن تشارك الحكومات الصديقة للبنان لمساعدته على العودة إلى السلام والاستقرار. و بدأت فرنسا بعد ذلك من خلال النشاط الدبلوماسى استطلاع رأى الدول التى تهمها المشكلة لمعرفة رأيها . و بالتالى تحديد خطوة فرنسا التالية . وبحكم أن الأحداث كانت تمضى بسرعة ، فقد رأت الحكومة الفرنسية إعلان ـ ١٧ سبتمبر ـ أنها تؤكد على ضرورة الحفاظ على استقلال لبنان ووحدته وسلامة أراضيه . وكان ذلك فى وقت تزايدت صيحات البعض تدعو إلى التقسيم وأنه يأتى الرفض الحاسم من فرنسا بالذات فهو أمر لابد أن يحسب له وزن خاصة فى مواقف جبهة لبنان . وأكدت صحيفة لوموند ـ ٩ أكتوبر ـ موقف فرنسا برفض سياسة التقسيم . وقد شملت اتصالات فرنسا غير الأطراف المحلية والعربية اتصالات مع الولايات المتحدة . فقد أعلن وزير خارجية فرنسا ـ ٩ اكتوبر ـ أنه بحث الأزمة اللبنانية طويلا مع الدكتور كيسنجر .

وأعلن المتحدث الرسمى باسم الرئيس الفرنسى ـ ٢ نوفمبر ـ أن جيسكار ديستان مهتم باعداد مبادرة فرنسية من شأنها تسهيل إيجاد حل سلمى فى لبنان .

وفى نفس اليوم أجتمع السفير الفرنسى بسليمان فرنجية وأبلغه بوجهة نظر فرنسا . وكان السفير قد انتهى من سلسلة لقاءات شملت قيادات لبنان . وكانت رسالة السفير هى استعداد فرنسا لإرسال شخصية فرنسية لتقوم بالوساطة بين جميع الأطراف . وهو نفس المعنى الذى قاله الرئيس ديستان بنفسه أثناء وجوده فى تونس فى ٨ نوفمبر. وفعلا فى ١٨ نوفمبر بعث ديستان برسالة الى فرنجية (٢٤) يخطره فيها بإرسال « بعثة صداقة » يرأسها كوف دى مورفيل - رجل أمريكا - وأن مهمتها القيام باستقصاء الآراء وجمع المعلومات من جميع الأطراف وهى ليست تدخلا فى شئون لبنان وإنما مجرد مساعدته . وكان ديستان قد تلقى موافقة الحكومة اللبنانية على المبادرة الفرنسية . وفى نفس اليوم الذى سلمت فيه رسالة ديستان اجتمع سفير فرنسا والولايات المتحدة فى بيروت بعد أن أعلن كيسنجر تأييده لبعثة فرنسا . وفى اليوم التالى - ١٩ نوفمبر- وصل كوف دى مورفيل رئيس وزراء فرنسا السابق إلى بيروت مبعوثا من الرئيس ديستان . و بدأ فور وصوله اجتماعاته مع كل القيادات اللبنانية . وخلال مقابلاته حرص المبعوث الفرنسى أن يؤكد فى كل تصريح صحفى له أن التقسيم كارثة على جميع الأطراف وأنه مستحيل إلى أن بدأت الأمور تتبلور مع تزايد اتصالاته . ففى ٢٥ نوفمبر بدأ يحدد وسيلة الحل بأن المصالحة تبدأ بمصالحة حكامهم . وقال إن التفكك الداخلى هو الذى أتاح تدخلات عربية ودولية ولكنه أكد أنه لايقصد أيا من الولايات المتحدة أو الأتحاد السوفيتى ، إذ يصعب تحديد دورهما فى الوقت الحاضر . وكانت تصريحاته بعد ذلك تشير دائما إلى اهتمام سوريا بأحداث لبنان وأنها مثل فرنسا حريصة على وحدة لبنان ولكنه أيضا كان يرى أن الحل فى يد اللبنانيين .

وقد حاولت جماعة الكسليك إقناع المبعوث الفرنسى بوجهة نظرها ولكن ذلك لم يظهر من تصريحاته . فقد قدمت الرهبانيات المارونية إليه مذكرة هى تقريبا

ملخص لمجموعة كراسات الكسليك والتى سبق الحديث عنها . وتقول المذكرة (٢٥) إن كل الدول العربية دول إسلامية تعامل المسيحيين كأهل ذمة محرومين من حقوق المواطنة الفعلية . وأن المسيحيين وخاصة الموارنة يفضلون الموت على العيش كأهل ذمة . وأن لبنان هو فى الواقع ملجأ الأقليات الهاربة من الخطر السنى . والخروج من الأزمة حسب تصور الكسليك هو العودة إلى صيغة لبنان القديمة بضمانة الدول الكبرى وأن مصيبة لبنان هى فى الفلسطينيين . ورغم أن شربل قسيس أنكر تقديم هذه المذكرة التى تسربت إلى الصحف إلا أن كل مافيها من آراء هو رأى الكسليك ومطبوع فى الكراسات . وهو مايؤكد أن المذكرة صحيحة ولكن فرنسا بحكم صداقاتها بالعالم العربى لم تأخذ بها . فؤكد أن فرنسا الأربعينات ليست فرنسا السبعينات .

وقد نجح المبعوث الفرنسى فى ٢٩ نوفمبر فى إقناع سليمان فرنجية ورشيد كرامى بإصدار كل منهما بيان يفتح الطريق نحو المصالحة . وكان الاقتراح الفرنسى فى الأصل هو إصدار بيان مشترك منهما معا ـ رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ـ ولكن فرنجية رفض . واقترح أيضا أن تكون المصالحة على أساس اتفاق ضمنى باجراء بعض الإصلاحات وفى المقابل تتعهد فرنسا بضمان موافقة سوريا والمقاومة على الاتفاق .

وغادر كوف دى مورفيل بيروت فى اليوم التالى متجها إلى دمشق ومنها لباريس . وقبل سفره أذاع بيانا (٢٦) شرح فيه المشكلة اللبنانية كما سمعها من كل الأطراف . وقال إنه يرى ان يبدأ الحل بتحريك الجهاز الحكومى للعمل . وانتهى البيان إلى أن سبب زيارته لدمشق تقديرا لاهتمام سوريا بالمشكلة ولمناقشة نتائج مباحثات البعثة فى لبنان مع المسئولين فى سوريا . وبذلك انتهت مهمة

المبعوث الفرنسى عند حد محاولة تقريب وجهات النظر والبحث عن اقتراحات تحقق نوعا من المصالحة.

وبعد سفره بأيام تجدد القتال ولكنه علق على ذلك بأنه لايعنى فشل مهمته وإنما يعنى أن عناصر متطرفة تحركت.

وفى ٢٧ مارس تسلمت وزارة الخارجية اللبنانية رسالة من سفارتها فى باريس تقول(٢٧) إن فرنسا لن تقف مكتوفة الأيدى. وتقترح فى حالة فشل سوريا دعوة مجلس الأمن أو الدول الكبرى لإرسال شخصية دولية للوساطة وأن يكون واضحا أن فشل هذه الوساطة يمكن أن يؤدى لتدخل عسكرى دولى.

وكان رد فرنجية عليها أنه ينتظر نتائج الوساطة السورية وأن الظروف لا تسمح بانتظار نتيجة وساطة جديدة وأن دعوة قوات دولية بقرار من مجلس الأمن يصبح ضروريا إذا لم تصل الوساطة السورية إلى وقف القتال. كما أن لبنان بوضعه الحالى يصعب عليه اتخاذ قرار باللجوء إلى مجلس الأمن. ولذلك لابد أن تتطوع دولة أخرى لدعوة مجلس الأمن بصورة عاجلة. وقال فرنجية فى رده إنه أخطر حافظ الاسد إنه فى حالة فشل سوريا يلجأ إلى الطرق الدولية الممكنة. وأن مصر عرضت فكرة إرسال قوات مشتركة وفى رأينا أن يتبنى مجلس الأمن هذه الفكرة على أن تضم القوة إلى جانب العناصر العربية عناصر من دول السوق الأوربية. وردا على اقتراح دعوة مجلس الأمن كانت الدولة المرشحة لدعوته هى اسرائيل ولكن إسحاق رابين رفض وأبلغ كل من فرنسا والولايات المتحده أنه لايرى أى مصلحة لإسرائيل فى القيام بهذه المهمة. وفى نهاية مارس أصدرت الحكومة الفرنسية نداء إلى كل الأطراف تناشدهم بوقف إطلاق النار وأعلنت استعدادها للقيام بمبادرة جديدة.

وأعلن كوف دى مورفيل فى حديث لصحيفة «فرانس سوار» - ٦ ابريل -

أوضح فيه أن وقف إطلاق النار فى لبنان لايمكن أن يكون إلا إذا فرض من الخارج . كما أن الدعوة إلى وقف القتال لابد أن ترتبط بسرعة الحل السياسى . وتم اختيار مبعوث آخر هو چورج جورس الذى وصل إلى بيروت فى ٨ ابريل وأعلن أنه سوف يلتقى بياسر عرفات على عكس دين براون المبعوث الأمريكى . وقال إن مهمتى تختلف عن مهمة براون ، وكان الواضح أن المبعوث الفرنسى جاء لتحقيق قدر من النجاح للوساطة السورية . وبعد خمسة أيام غادر المبعوث الفرنسى الجديد بيروت إلى دمشق . واجتمع بحافظ الأسد وعرض عليه فكرة تنسيق سورى فرنسى فى لبنان .

وكان واضحا أن فرنسا لم تستطع أن تحقق أى تقدم حتى إن المتحدث بلسان القصر الجمهورى أعلن أنه إذا ما أدت الظروف إلى خلق موقف يرجى فيه من فرنسا الإسهام فى تهدئة الموقف فى لبنان فإن فرنسا سوف ترد على مثل هذا الطلب بالإيجاب . أى باختصار أن الظروف لم تساعد فرنسا على تحقيق إقرار الأمن .

وفجأة أعلن أن كيسنجر بحث مع ديستان - ٧ مايو- الموقف فى لبنان وأن البحث تطرق إلى موضوع إرسال قوات فرنسية إلى لبنان . وذلك قبل يوم واحد من عقد جلسة مجلس النواب لانتخاب سركيس رئيسا . وفى ١٢ مايو أى بعد أربعة أيام قرر مجلس وزراء فرنسا إرسال جورج جورس إلى لبنان فى مبادرة فرنسية ثالثة وأعلن المبعوث أن سوريا لعبت دورا إيجابيا حيث رتبت عملية انتخاب الرئيس الجديد وتدخلت لمنع المذابح . وفى ١٦ مايو أعلن جيسكار ديستان من نيو أورليانز بالولايات المتحدة عن استعداد فرنسا لإرسال قوات إلى لبنان فى خلال ٤٨ ساعة بشرطين . الأول هو طلب السلطات اللبنانية والثانى هو موافقة الأطراف المعنية . وقال إن مهمتها هى توفير الأمن ولكنه لم يستبعد احتمال أن يكون على هذه القوة أن تقاتل فى بعض المناطق الحساسة وأنها لن تكون تحت راية الأمم المتحدة .

وأهم ما يستحق الملاحظة على الاقتراح الفرنسي :

١ - أن الاقتراح جاء والرئيس الفرنسي في زيارة للولايات المتحدة . وكان كيسنجر قد سبق أن طرح هذه الفكرة من قبل . وهو ماوضع الاقتراح موضع الشك في أن يكون اقتراحا أمريكيا أو على الأقل بإيحاء أمريكي وخاصة أن أول مرة أشار إليها كيسنجر لهذه الفكرة لم تجد أي رد فعل في باريس.

٢ - أنه أعلن وفي لبنان ثالثة بعثة فرنسية تلتقي بالقيادات اللبنانية أي أن فرنسا كانت لديها فكرة جيدة عن موقف كل قيادات لبنان والمقاومة .

٣ - أن ظروف وطبيعة الحرب الأهلية اللبنانية تجعل من الصعوبة البالغة نزول قوات دون أن تخوض معارك حقيقية قد تجعلها تضرب أطراف حليفة بحكم الخطأ ، وذلك نتيجة طبيعة حرب المدن وتداخل مواقع القوات .

٤ - أن فرنسا من الناحية العسكرية غير قادرة في الوقت الحاضر لإرسال قوات إلى خارج فرنسا لاعتبارات عسكرية وسياسية خاصة بفرنسا نفسها .

وكانت ردود الفعل على اقتراح ديستان هي الرفض الحاسم من زعيم الحركة الوطنية كمال جنبلاط . وهو نفس الموقف الذي اتخذته المقاومة . كما عارض الاقتراح رشيد كرامي رئيس وزراء لبنان بدعوى أنه لابد من الانتظار حتى يتولى الرئيس الجديد لإقرار مثل هذا الطلب . حتى بيير الجميل لم يستطيع إعلان تأييده الصريح فقال إنه من الحماقة معارضة دخول قوات غير لبنانية الى لبنان ، أما كميل شمعون فقد قال إنه يفضل أن يتمكن اللبنانيون من إنهاء هذه المشاكل دون حاجة لدولة أجنبية مهما كانت صديقة وإذا كان لابد من قوات أجنبية فلا

بأس أن تكون فرنسية . وإسرائيل التزمت الصمت تجاه الاقتراح الفرنسي ، والرئيس المنتخب سركيس طلب تجميد الاقتراح .

وهكذا يتضح أن أغلبية الأطراف إما عارضت أو لم تؤيد . وهو فى اعتقادى مالم يكن غائبا عن فرنسا قبل أن تقدم اقتراحها .. إذن لماذا قدمت الاقتراح ليرفض ..؟

- أرادت تعميق الإيمان بأن إنهاء الأزمة لابد أن يكون عن طريق قوات غير لبنانية تفرض قاعدة لاغالب ولامغلوب بقوة السلاح .
- أن الاقتراح فى حد ذاته ومن فرنسا صديقة العرب سوف يعطى للتدخل السورى دعما وتأييدا باعتباره بالنسبة للعرب سيكون أقل الأضرار « أى بقوات عربية أفضل من قوات أجنبية على حد المثل « بيدى لا بيد عمرو! » .
- وربما أرادت فرنسا أن تلعب دورا فى المنطقة لصالح الولايات المتحدة وخاصة وأن الفكرة أمريكية الأصل ثم إن اختيار الرئيس الفرنسى لمدينة امريكية يعلن منها الأقتراح هو بالتأكيد ليس من باب الخطأ أو المصادفة .. فدول لها تاريخ فى الدبلوماسية لايمكن أن تقع فى مثل هذا الخطأ الساذج إلا إذا كانت تتحرك وفق تنسيق آخر .
- إقناع كل الأطراف أن هناك من يفكر فى إرسال قوات إلى لبنان بعد أن أصابت خيبة الأمل جبهة لبنان التى كانت تتوقع حدوث ذلك منذ البداية .
- ويرى البعض أن الولايات المتحدة بالإيحاء لفرنسا بالاقتراح أرادت أن تضع فرنسا فى موضع الدولة الطامعة فى استعادة نفوذها وبالتالى تفتقد ماكانت قد كسبته فى عهد ديجول من صداقة العرب . وبالتالى تصبح

الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة التي تتحرك لترتيب الأوضاع في لبنان . ويؤيد هذا الاتجاه أن كيسنجر نفسه الذي تحدث من هذه الفكرة هو الذي قال يوم أعلنها ديستان أن الاقتراح موضع دراسة بشرط موافقة العرب والدول الأخرى وإن كان يعارض فكرة تدخل خارجي أصلا .

والاحتمال الأخير هو محاولة معرفة رأي الاتحاد السوفيتي أو ردود فعله إذا ماتدخلت قوى أجنبية في لبنان .

الاتحاد السوفيتي

لقد كان الاتحاد السوفيتي يعاني من ظاهرة تقلص رقعة مواقعه في العالم العربي إلى الحد الذي جعل دوره يبدو في معظم الأحيان أقرب إلى التحذير من آثار استمرار الحرب الأهلية وتصعيدها منه إلى ممارسة تأثير ملموس على مجرياتها . وقد ضاعف من خلل حتى هذا الدور نشوب الأزمة في علاقاته مع سوريا نتيجة الدور السوري في لبنان . وهي الأزمة التي كادت أن تسد كل منافذ التأثير على مجرى الأحداث في لبنان .

وكان يحكم الدور السوفيتي في هذا الإطار الخطوط الآتية (٢٨) :

١ ـ الحرص على الثورة الفلسطينية واستمرارها وحماية حقوقها على الساحة اللبنانية .

٢ ـ الحفاظ على الحركة الوطنية اللبنانية ومعارضة منهج تصفية قواها .

٣ ـ إدانة الخطط التي تهدف إلى ضرب العرب بالعرب .

٤ ـ الدعوة إلى تسوية الأزمة اللبنانية داخليا بين اللبنانيين بمعزل عن أي تدخل خارجي .

٥ ـ ضرورة ضمان وحدة لبنان وعروبته وحرياته الأساسية الديمقراطية .

وكانت ترجمة ذلك على الأحداث واضحة . إذ أن البيان المشترك الذى صدر ٢٥ يوليو ١٩٧٥ - بعد انتهاء زيارة وفد الحزب التقدمي الاشتراكي للحزب الشيوعي في موسكو قد أكد على الدعوة إلى وحدة القوى التقدمية والوطنية في لبنان .

وقد توجه وفد لبناني إلى موسكو يضم قيادات لبنانية برئاسة عبدالله اليافي وكانت وجهة نظر السوفيت هو ضرورة حل مشكلة لبنان لبنانيا وعدم إتاحة الفرصة لتصفية الوجود الفلسطيني على أرض لبنان .

وكتبت صحيفة برافدا - ٦ أكتوبر - خبرا على لسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي يقول إن اشتراك إسرائيل في احداث لبنان ليس موضع شك . وأنه توفر للسوفيت عدد كاف من الأدلة يثبت رغبة الدوائر اليمينية الإسرائيلية في استغلال الأزمة اللبنانية للقضاء على الوحدة العربية .

ونقل السفير السوفيتي إلى سليمان فرنجية - ١١ نوفمبر - استعداد الاتحاد السوفيتي لبذل كل مامن شأنه دعم لبنان وسلامته ووحدة أراضيه .

وقد حرصت برافدا على التعليق على تصريحات كوف دى مورفيل التي أشار فيها إلى أن الوجود الفلسطيني هو سبب المشكلة فقالت - ٣٠ نوفمبر - إن الأزمة في لبنان لايمكن أن تحل من دون اصلاحات سياسية واجتماعية تتفق ومصلحة غالبية السكان . ثم عادت وذكرت - ٩ يناير سنة ١٩٧٦ - تصريحا عن الحكومة السوفيتية انها تعتبر أزمة لبنان إيحاء من قوى خارجية تهدف إلى إبقاء الوضع في الشرق الأوسط متوترا .

وقد وصل اليكس كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي إلى دمشق في أول يونيو بينما كانت سوريا قد كشفت عن دخولها للبنان . وأعلن معارضته التدخل

الاستعماري بكل أشكاله في لبنان . وأيد القوى اللبنانية التي تناضل من أجل الوحدة الوطنية . ولكن الغريب أن يقول « إن الاتحاد السوفيتي يقف مع سوريا في هذا الموقف العصيب » . وكان الغزو السوري للبنان قد بدأ أثناء زيارة كوسيجين وكأنه أريد بتوقيته إعلان قبول السوفيت له وهو مالم يحدث عمليا .

وكانت الحقيقة التي حيرت الكثيرين هي أن الاتحاد السوفيتي لم يضغط على سوريا بالقدر الذي يمنع تصفية الجيش السوري لقوى الحركة الوطنية والمقاومة في لبنان . وإن كان هناك رأى يعتقد أن الاتحاد السوفيتي لم يكن يملك إلا النصح لسوريا حتى لايفقد دمشق إن تجاوز النصح إلى منع قطع الغيار لسلاحها مثلا .

وواضح ان موقف السوفيت كان مثيرا لكل الأطراف التي تمثل جبهة القوات المشتركة فقد نشر حديث لأبو إياد « صلاح خلف » يقول فيه إن السوفيت يحلقون في السماء . فبينما أنا أخوض معركة مصير أصبحت بالنسبة لى .. أن أكون أو لا أكون ، إذا بالسوفيت يريدون معرفة أن كنت أوافق على الاشتراك فى مؤتمر جنيف (٢٩) . وقد ازداد موقف الأستياء بين قوى الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة وخاصة بعد استحكام الحصار البحري على موانى جنوب لبنان والذى بدأته إسرائيل ثم عززته الدوريات السورية . وكان كل الرجاء هو أن يرسل الاتحاد السوفيتي سفينة على حد تعبير أحد قيادات المقاومة تحمل « الطحين » لكسر الحصار على القوى الوطنية في لبنان .

وفي اعتقادي أن الموقف السوفيتي إن كان قد وقف عند حدود النصح فليس ذلك خوفا من مزيد من تقلص مواقعه في العالم العربي ولكنه وليد موقف خاص من القضية الفلسطينية . والذى وصل إلى درجة عدم الاعتراف بمنظمة التحرير كحركة تحرير إلا في ١٩٧٤ بينما كانت أزمة وجوده في المنطقة في ذروتها وكان ذلك نوع من التعويض وليس موقفا من التأييد بل إن القيادة السوفيتية لم تجتمع

بقيادة الثورة الفلسطينية إلا والحرب اللبنانية فى عامها الثانى وطوال هذه السنوات كان الاتحاد السوفيتى ينصح الثورة الفلسطينية بقبول قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذى لايتعلق بالفلسطينيين ولكنه يعالج مشكلة احتلال الأراضى العربية ولم يغير السوفيت موقفهم حتى بداية سنة ١٩٧٧ . حين نصحوا الثورة على عكس قولهم بعدم قبول قرار مجلس الأمن لأنه لايتعلق بهم .

وهكذا كان موقف السوفيت طوال الأزمة محكوما بإطار القدرة على توجيه النصح دون القدرة - وفى رأى للبعض المحاولة - للضغط لمنع ضرب المقاومة أو على الأقل تخفيف الضربات عنها .

الفاتيكـــان

لقد شكلت الوساطة البابوية التى قام بها الكاردينال برتولى الذى وصل بيروت فى ٩ نوفمبر ١٩٧٥ أول وساطة دولية فى الأزمة اللبنانية . وقد بدا واضحا منذ البداية لتحرك المبعوث البابوى أن الفاتيكان ينظر إلى الصراع اللبنانى من زاوية المخاطر التى يحملها القتال بأشكاله الطائفية على مستقبل الطوائف الكاثوليكية فى سائر الأقطار العربية واحتمال وقوع ردات فعل عدائية تجاه رعاياه بما يهدد سياسة الفاتيكان الحالية فى الانفتاح على قضايا شعوب آسيا وافريقيا وتعزيز الحوار المسيحى - الإسلامى . ولذلك شدد المبعوث البابوى على الرفض المطلق للتقسيم وتجديد التعايش حتى ولو كان يتنازل الموارنة عن بعض امتيازاتهم (٣٠) .

وكان موقفه قريبا من وجهة نظر بطريرك الموارنة خريش ولكن مهمته اصطدمت بموقف رئيس المبانيات شربل قسيس وأقطاب جبهة لبنان . وفى ٢٧

نوفبر صدر بيان فى الفاتيكان بعد مقابلة البابا لمبعوثه العائد من لبنان يقول إن برتولى لمس لدى جميع الأطراف فى لبنان رغبة فى الوصول إلى هدنة دائمة والمحافظة على وحدة لبنان وطابعه .

وكان السفير البابوى فى بيروت قد نقل رسالة من البابا إلى ياسر عرفات - ٧ ابريل - قبل إرسال المبعوث الخاص إلى لبنان وذلك للتعبير عن أسفه عن الأحداث التى جرت فى لبنان . وهى حادثة عين الرمانة .

كما ناقش البابا موضوع سلامة لبنان واستقراره مع الرئيس الأمريكى فورد - يونيو - حين زاره فى الفاتيكان . وبعد ذلك بأيام أعلنت الفاتيكان أن انفجار الصيغة اللبنانية ستكون كارثة عالمية . وقد بعث البابا برسالة إلى فرنجية - ١٣ يونيو - سلمها السفير البابوى فى بيروت تعبر عن اهتمام البابا بلبنان ومايجرى فيه من أحداث . والغريب أن كميل شمعون لم ينشر هذه الرسالة فى الكتاب الأبيض الذى أصدره بوصفه وزيرا للخارجية واضطر إلى سحبه بعد أن آثار نقدا بين السفراء اللبنانيين فى الخارج . كما لم ينشر رسالة البابا الثانية - ٣ اكتوبر - إلى سليمان فرنجية .

وقد تعرض موقف الفاتيكان لعملية تأثير من شربل قسيس وجماعته وخلال محاولة الفاتيكان حل الأزمة الناتجة عن تناقض موقف رئيس الرهبانيات مع البطريرك . فقد اقنع شربل قسيس الفاتيكان أن هناك مخططا من شأنه احلال الفلسطينيين نهائيا فى لبنان وإجلاء المسيحيين عنه .. وهو مانشرته صحيفة الفاتيكان مما دفع كمال جنبلاط أن يعلن أنه سيوجه رسالة إلى البابا يشرح له حقائق الموقف فى لبنان . وفى ضوء ذلك كله تقرر إرسال المبعوث البابوى الى بيروت ، والذى حرص على أن يجتمع بقادة كل الطوائف فى لبنان للتعبير عن اهتمام البابا بحل مشكلة لبنان حلا سليما .

وقد قرر البطريرك خريش السفر إلى الفاتيكان لعرض وجهة نظره فى الأحداث ودور رئيس الرهبانيات شربل قسيس . وقد عرف ـ ١٩ نوفمبر ـ أن البطريرك يعد ملفا عن القضية اللبنانية ليعرضه على البابا بولس السادس ، وانتهت الزيارة بالدعوة ـ ١٢ ديسمبر ـ إلى المصالحة وتعزيز وحدة لبنان .

ويبدو أن منطق شربل قسيس والذى سيطر على الفاتيكان لأن البطريرك بعد عودته اعتكف بعيدا عن الأطراف مكتفيا بالصلاة من أجل أن ينقذ الله لبنان من المصير المجهول .

وأمام تصاعد القتال واستمرار الأزمة بعث البابا ببعثة بابوية جديدة برئاسة الأب هنرى دى ريد ماتن . وقد حصرت البعثة فترة زيارتها الأولى فى إطار الكنيسة المارونية وزيارة مواقع المهجرين فى كسروان ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من اللقاءات ولكنها لم تصل إلى موقف محدد باعتبار أن المشكلة أكبر من الإمكانيات المتاحة لبعثة دينية ، خاصة وأن شربل قسيس قد اندمج فى المشكلة تمويلا وتسليحا بحيث أصبح طريق العودة صعبا إن لم يكن مستحيلا .

وهكذا كادت كل الأدوار الدولية تدور حول سوريا بدورها المطروح لاستكمال ماأريد من مأساة لبنان بينما كانت هناك دول أخرى حاولت مجرد وقف نزيف الدم .

ولابد من ملحوظة أخيرة فى هذا الإطار وهى أن الدول التى تعرضت لأدوارها ليست وحدها التى تحركت فقد كانت هناك دول أخرى فى العالم مثل مجموعة السوق الأوربية ومواقف أخرى مثل موقف السكرتير العام ولكن بحكم أنها أدوار محدودة التأثير حتى الأدنى على مجرى الأحداث فقد اكتفيت بعرض مواقف الدول الأساسية . وهو ماينقلنا إلى القوى التى كانت أكثر تأثيرا وأقدر على التوجيه وهى مجموعة الدول العربية .

هوامش الفصل السابع

(١) هذا الدور ليس جديدا . فقد سبق أن ظهر دور مماثل خلال إضراب البرتغال . وانكشف حين أعلنت الواشنطن بوست قائمة الأسماء التي حصلت على أموال من المخابرات المركزية الأمريكية و بينها فيلى برانت ثم أعتذرت أمريكا وأعلن فيلى برانت أنه حصل على المبلغ ليسلمه الحزب الاشتراكى إلى عناصر برتغالية لمنع سيطرة الشيوعيين هناك .

(٢) Ben gurion. The Peel Repart and the Jeuish state London 1938. p. 61

(٣) يوسف حدان إسرائيل والأزمة اللبنانية . شئون فلسطينية عدد ٥٣ ص٣١ .

(٤) مزيد من التفاصيل فى نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ونشرة رصد الاذاعة العبرية لمركز الابحاث .

(٥) الحديث نشرته القبس فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٦ نقلا عن مجلة أمريكية .

(٦) ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ .

(٧) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عن يوم ٢٦ سنة ١٩٧٥ .

(٨) صحيفة الوطن . الكويت . ٢٨ أغسطس سنة ١٩٧٧ .

(٩) Time. 22 August. 1977. p. 10

(١٠) فى ٢٢ أكتوبر سنة١٩٧٦ . نشرة الإذاعة .

(١١) The Herald Tribune . 21.7. 1976

(١٢) ندوة تليفزيونية نشرت فى الصحف الأمريكية ونشرتها صحف لبنان ومنها ـ السفير ـ بيروت فى ٢٣/ ٨/ ٧٦

(١٣) برقية رقم ٢٧ فى أبريل سنة ١٩٧٧

(١٤) تفاصيل هذه العلاقات كما ذكرت صحف إسرائيل فى نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى ٢ أغسطس سنة ١٩٧٦ .

(١٥) فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٧٦ نشرة الإذاعة .

(١٦) متابعة صحف إسرائيل من خلال نشرة المرصد لمركز الأبحاث . ونشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ونشرة الإذاعة المصرية خلال شهرى ـ يونيو و يوليو سنة ١٩٧٦ .

(١٧) د. سامي منصور محاذير الطريق المفتوح بين العرب وأمريكا شئون فلسطينية عدد ٣٦ . ٢٨

(١٨) نواف عبد الله . حول الأزمة اللبنانية . شئون فلسطينية عدد ٥٦ ص ٦٠

(١٩) مجلة الأسبوع العربي ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٧٤ .

(٢٠) يوميات الحرب اللبنانية . مرجع سابق . ص ٦٠

(٢١) مهمة المبعوث الأمريكي . الكتاب الأبيض اللبناني . وزارة الخارجية . بيروت ١٩٧٦ . ٤٦

(٢٢) د . محمد المجذوب . الوجه القبيح لنظام الكانتونات . شئون فلسطينية رقم ٦٣ ص ٣٥.

(٢٣) لطفي الخولي . لبنان الدامي جريدة الأهرام.. القاهرة ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٧٥ .

(٢٤) الكتاب الأبيض اللبناني . وزارة الخارجية . بيروت ١٩٧٦ ص . ٢١

(٢٥) جريدة السفير. بيروت . ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٥.

(٢٦) نص البيان في الكتاب الأبيض اللبناني ص ٣٠- ٣٢

(٢٧) الرسالة ورد فرنجية في الكتاب الأبيض اللبناني ص ٣٩- ٤١.

(٢٨) تقرير اللجنة المركزية لمنظمة العمل الشيوعي. ص ٤١

(٢٩) مجلة الدستور في ٩ أكتوبر سنة ١٩٧٦ .

(٣٠) نواف عبد الله . حول الأزمة اللبنانية . شئون فلسطين رقم ٥٧ ص ٩٨.

الفصل الثامن

صراع الديوك (١)

اختلفت مواقف الدول العربية فى جريمة لبنان رغم أن لكل منهم وجودا ـ يحرص عليه ـ على ساحة لبنان بشكل أو بآخر. و برغم أن أمن الثورة الفلسطينية وعدم تصفية الوجود الفلسطينى وأمن سلامة لبنان هى من الأهداف الاستراتيجية للأمة العربية فقد ترك نزيف الدم يسيل دون أن تتحرك الضمائر. بل ولا حتى الدم أثار عواطف الحكام العرب . فشغل البعض منهم بما لايستحق أن يشغله . ومزقت أعصاب وعواطف البعض بما لايستحق حتى دمعة رثاء وترك لبنان يتمزق وتركت الثورة الفلسطينية تذبح مرة أخرى بأيد عربية .

وقد تراوحت المواقف العربية بين التجاهل و بين السقوط فى بئر الأحداث ويمكن أن نميز:

دول نسيت أنها عضو فى جسد الأمة العربية وأعطت لنفسها أعذارا « براجماتيه » أو استعلائية ـ ! ـ وهى فى النهاية تعرف أنها ابتعدت عن الساحة .. مثل تونس والجزائر. فنجد أن الجزائر بدأت فى أعقاب حادث عين الرمانة ترى مايجرى . وأرسل بومدين رسالة إلى ياسر عرفات ـ ١٨ ابريل ـ يؤكد فيها على تضامن الجزائر مع الثورة والوقوف إلى جانبها فى وجه المخططات التآمرية . ثم عاد وأرسل ـ ٢٤ مايو ـ برسالتين إلى سليمان فرنجية و ياسر عرفات حول مخاطر تصفية الثورة الفلسطينية . وشارك سفير الجزائر مع السفراء العرب فى محاولة احتواء حادث عين الرمانة ولكن الحرب الأهلية وقعت والقوى تحركت وجزائر الثورة اختفت . واذا كان لتونس عذرها بنوعية حكمها وقيادتها فقد كان موقف الجزائر موضع سؤال حائر على ساحة لبنان طوال الوقت .

ودول فقدت دورها المؤثر على مجرى الأحداث والقوى فى لبنان . ولم يبق لها على الأقل طوال العام الأول للمذبحة سوى دور التحذير والنصح مثل مصر فقد بعث الرئيس أنور السادات بتسع عشرة رسالة إلى الرئيس سليمان فرنجية وغيره من المسئولين خلال الأزمة اللبنانية . وأول رسالة كانت لسليمان فرنجية ـ ١٩ ابريل ـ عقب حادث عين الرمانة . والثانية كانت ضمن رسالة جماعية من مؤتمر الرياض الثلاثى ـ السادات والأسد وخالد ـ لتحذير فرنجية من عواقب تصفية الثورة الفلسطينية . واشترك السفير المصرى مع السفير السعودى فى لقاء مصارحة بين سليمان فرنجية و ياسر عرفات . وأخطر ماقيل فيه طبقا لنص محاضر الجلسة الذى يقع فى ٤ صفحات هو مابدأ به ياسر عرفات الجلسة من أن « هناك سماسرة وللأسف شخصيات لبنانية كبيرة هى التى تتاجر فى السلاح وليست بينها عناصر فلسطينية . وأن حادث عين الرمانة مؤامرة مرتبة » . والنقطة الثانية فى هذه الجلسة فى ماقاله سليمان فرنجية ـ الصفحة الثانية من المحضر ـ أن الصحف العربيلا تنشر أن المسيحيين يريدون أن يذبحوا المسلمين فى لبنان ثم يقول حرفيا .... » ربما هذا

وارد بالنوايا .. ولكن عمليا غير وارد .. والنقطة الثالثة هي ماقاله فرنجية في نهاية الجلسة من أنه يوافق على أن تحتفظ المقاومة بكل أسلحتها داخل المخيمات .. وكان ذلك كله في حضور السفير المصرى . وكان رأى السادات - ٢يونيو- أن المخرج الوحيد للأزمة يتمثل فى لقاء بين ياسر عرفات وسليمان فرنجية . وأبدى استعداده للذهاب بنفسه للجمع بينهما وقال «إن فرنجية من بيت عربى أصيل ، وأنه ذو حس عربى صاف» . وتم الاجتماع الثانى بين فرنجية و ياسر عرفات فى حضور سفيرى مصر والسعودية . واستمر الإجتماع ٦ ساعات .كان من الواضح فيه أن سليمان فرنجية يعقد اتفاقات و يعطى وعود لمجرد كسب الوقت ، بينما كانت العمليات الحربية مستمرة وعملية تطو يع المقاومة عن طر يق الحرب اللبنانية أيضا أستمرت لأن المسألة كانت أكبر من مجرد اللقاء بين عرفات وفرنجية ، خاصة وأن الأحداث كشفت بعد ذلك دور فرنجية فيها .

وهناك رأى (٢) يرى أن دور الإعلام المصرى كان فى اتجاه بالغ الخطر إذ كان يدعو إلى تصفية المنظمات التى تنضوى تحت اسم « جبهة الرفض » على ما يعنيه هنا من ضرب للوحدة الوطنية الفلسطينية وإثارة قتال فلسطيني - فلسطيني ومن إضعاف للموقف القومى لمنظمة التحر ير . وقد وصل الفهم الخاطىء إلى درجة القول أن أحداث لبنان جزء من مؤامرة أعدتها جبهة الرفض لإحباط التسو ية السلمية للنزاع العربى الإسرائيلى (٣) - ! - وواضح أنه كان نقيضا لسير الأحداث بل وتغطية للكتائب التى أعدت ودبرت الجريمة . كما قالت أيضا صحف القاهرة إن الأجدر بمنظمة التحر ير أن تعيد تقييم وقدراتها ودورها وحدود التزامها وحقها وأنتهت إلى التلو يح بضرورة استخدام حتى أسلوب التصفية الجسدية ضد هؤلاء الذين يمثلون « الانقلاب والمزايدة والتبعية » (٤) وكان من الواضح أن رؤ ية أحداث لبنان على حقيقتها بعيد جدا وكانت المعالجة من رؤ ية ذاتية بحتة . ففى الوقت الذى كانت فيه الخلافات بين مصر وسور يا فى ذروتها إذا بالصحف

المصرية تهاجم وساطة سوريا في لبنان .. ووصلت إحدى الصحف إلى حد أن يكون عنوانها عن عبد الحليم خدام هو« الخدام يقول .. » (٥) وقالت إنه ذهب إلى لبنان متصورا أنه قادرعلى استثمار مأساة لبنان للهجوم على مصر وأن فرنجية طرده ـ! ـ من لبنان . واعتبر الدور السورى هو محاولة لفرض زعامة حزب البعث على لبنان (٦) . واختفت هذه الآراء عن سوريا وخدام بمجرد أن نجحت الوساطة السعودية في المصالحة بين مصر وسوريا . !

ومؤكدا أن مصر كان يمكن أن تلعب دورا أكثر إيجابية مثلما فعلت خلال أحداث سنة ١٩٥٨ . بدلا من الحفارة ببير الجميل

هناك فريق ثالث من الدول العربية كان له دور مع الحركة الوطنية والمقاومة ولكن مساعداته كانت متأخرة عن موعدها وبالتالى لم يكن له دور فعال على اتجاه الأحداث مثل العراق وليبيا . فنجد مثلا أن أول تحرك عراقى كان في ديسمبر ـ أى بعد ٦ أشهر ـ حين توجه وزير الإعلام العراقى لنقل رسالة شفوية إلى سليمان فرنجية ـ! ـ ورغم تأخر الحركة إلا أن الدور العراقى لم يكن قد جاء بعد . وهو ماسوف يأتى فى الفصل القادم .

وفريق رابع كان له دور مؤثر فى الأحداث وهى الأردن والسعودية وسوريا . وقد سبق فى فصول الكتاب عرض لمواقف الأردن على وجه خاص ودوره وخاصة فى الفترة التى سبقت إشارة البداية . وربما كان موقف النظام الأردنى من القضية الفلسطينية معروفا وبالتالى تصور أى دور جديد هو مسألة إضافة إلى قائمة الحساب الطويلة .

أما دور السعودية فهو علامة استفهام كبيرة . فالمسألة ليست مجرد دعوة بيير الجميل وزيارته لمعسكرات الجيش السعودى كما سبقت الإشارة ولكن دورها هو

الدور الوحيد الذى يدور حوله الخلاف . فنجد فى أحدث دراسة عن سوق السلاح (٧) أن السعودية التى قدمت الأموال للمقاومة قد قدمت فى نفس الوقت السلاح إلى الموارنة . و يقول المؤلف إن السعودية لم ترغب فى أن تلعب هذا الدور المزدوج . ولا كان فى تخطيطها . وإنما أحداث لبنان جعلت السعوديين باعتبارهم مسلمين ومحافظين فى حيرة . فهم كمسلمين يتجهون طبيعيا نحو الفلسطينين ، بينما هم كمحافظين يتجهون نحو الموارنة . وفى الوقت الذى قدم فيه بعض الأمراء الدعم المالى للمقاومة الفلسطينية قدم بعض آخر من الأمراء الدعم سرا للمسيحيين وذلك تحت ضغط الإحساس بالقلق والخوف من خطر انتصار فلسطينى فى لبنان . وهكذا تحول البترو- دولار « إلى أموال وسلاح إلى طرفى الصراع . و يقول المؤلف إنه نفس موقف الكويت . وهو ماوجد تعبيره فى كار يكاتير مجلة نيوز و يك الأمر يكية .

وتقول صحيفة أمر يكية (٨) إن تمو يل صفقات السلاح إلى اليمين اللبنانى كان يتم عن طر يق الكنيسة المارونية و بعض الأثر ياء المسيحين و بعض الحكومات العر بية المحافظة دون أن تذكر أسماء دول .

والمعروف وهو ما أكده لى شر بل قسيس أن السعودية تقدم دعما ماليا للكنيسة المارونية منذ الخمسينات لمحاربة « الالحاد والمادية » و باعتبارها العدو المشترك . وكان من فعلان المؤتمر الإسلامى بالقاهرة .

وفى تقر ير لسفير دولة عربية بترولية إلى حكومته- ٢٧ مايو ١٩٧٥ يقول فيه « إن صائب سلام العائد من السعودية قال إن الملك يرى أن لبنان يعانى من تحرك شيوعى- يسارى . وأن المسلمين اللبناتيين مسئولون عن هذا الوضع . وأن تحرك اليسار فى لبنان يعطى المسئولين السعوديين انطباعا بأن كل مسلم فى لبنان هو شيوعى . وأن صائب سلام أخذ فى محاولة إحياء الحزب الذى رخص به سنة ١٩٧٢ لنجله تمام . وسوف يطلق اسم المجاهدين على التنظيم العسكرى التابع

للحزب » و يقول التقرير إن السعودية اعتمدت ٤٠ مليون ليرة باسم صاحب سلام لمحاربة الإلحاد والشيوعية .

وقد توجه وفد فلسطيني إلى السعودية وسمع تحفظات المسئولين هناك على موقف المقاومة . وكان يدور حول نقاط ثلاث هي أن الثورة الفلسطينية تحالفت مع اليسار الشيوعي وهو أمر مرفوض . كما أنها تحارب دفاعا عن مواقع ليست فلسطينية وهو استنزاف لقواها . ثم إن الجبهة المشتركة - الفلسطينية اللبنانية - لم تجد من القيادات سوى قائد درزي - ! - و يقصد به « كمال جنبلاط » .

و بعد أن تحددت المواقف وانكشفت كل المواقع وخاصة موقع بيير الجميل إذا بالسعودية توجه إليه الدعوة لزيارة تمت في ٢٥ يونيو - ١٩٧٧ - لمدة ثلاثة أيام وكان « مانشيت » صحيفة العمل بلسان الكتائب على ثمانية أعمدة يقول « الجميل عائدا من السعودية : ما لمسته يدعو إلى الاطمئنان (٩) . وكان ذلك بعد الغزو السوري للبنان . وهو ماسوف نعود إليه بعد ذلك .

وبحكم أن هذه المعلومات تعتبر مفاجأة لي فقد رأيت مناقشتها مع عناصر المقاومة وخاصة مايطلق عليه « جناح يمين فتح » . وقد قيل لي إنه صحيح أن المقاومة عثرت على أسلحة لدى الموارنة عليها إشارة السعودية . ذلك ليس دليلا على تقديم السعودية للسلاح إلى الموارنة ، فالمعروف أن هناك اتفاقا طبقا لقرارات مجلس الدفاع العربي أن تقدم السعودية الأسلحة والذخائر إلى الجيش اللبناني . وأنه عن طريق الجيش اللبناني كان يتم تسريب السلاح السعودي إلى الموارنة . وأن السعودية احترمت التزاماتها فاستمرت في تقديم هذه الأسلحة للجيش اللبناني حتى بعد بداية الأحداث . وكانت تسلم إليه ميناء جونيه . عاصمة الموارنة كما أن السعودية أذاعت نوفمبر - في ٢٩ نوفمبر - أنها تدخلت في أحداث لبنان وأنها أثارت فئة من اللبنانيين ضد فئة أخرى أو تكون قد صنفت المسلمين في لبنان إلى يمين و يسار .

وكان تعليق أحد رؤساء الجمهورية العرب من أصدقاء السعودية .. « أن السعودية قد غرقت لأذنيها فى أحداث لبنان . »

ورأيت التزاما بالحقيقة أن أعرض وجهتى النظر التى قيلت حول هذا الدور السعودى . أما دور سوريا فقد رأيت معالجته متكاملا بعد الانتهاء من عرض المواقف العربية .

ويمكن أن نميّز فى السياسات العربية ثلاث مراحل . مرحلة أولى من بداية الأحداث وحتى الغزو السورى السياسى والعسكرى للبنان ومرحلة الغزو ثم مرحلة البحث عن النهاية .

وكانت البداية حين وجه ياسر عرفات برقية من بيروت إلى الملوك والرؤساء العرب تقول(١٠) : «أصحاب الجلالة والسيادة الملوك الرؤساء العرب» .

«فى صباح اليوم قامت عصابات حزب الكتائب المسلحة فى لبنان بعمل كمين مسلح لسيارة باص مدنية وفتحت عليها نيران غزيرة .

واستشهد على أثرها سبعة وعشرون من ركابها بين طفل وأمرأة ورجل وعدد كبير من الجرحى . وأن المجزرة الدموية التى نفذتها عصابات حزب الكتائب المسلحة ضد أبناء شعبنا الأبرياء العّزل هى مؤامرة مكشوفة تقوم بها العصابات بتنسيق وتوجيه من الإمبريالية والصهيونية على أرض لبنان الشقيق فى محاولة مكشوفة لخلق الفتنة وضرب الأخوّة الفلسطينية اللبنانية .

إننا وأن نشهدكم على مقومات هذه الفتنة ونتائجها الخطرة ندعوكم إلى التدخل العاجل لإحباط هذه المؤامرة ، ودعوة السلطات المسئولة فى لبنان الشقيق للضرب على أيدى عصابات الكتائب الآثمة .»

ياسر عرفات

وقد وصل فى اليوم التالى مباشرة محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية ، وذلك بناء على طلب رسمى من مصر لبحث الوضع فى لبنان . وفى نفس اليوم استقبل رئيس وزراء لبنان- رشيد الصلح- ١٤ سفيرا عربيا أعربوا عن موقفهم بأنهم لايتدخلون فى مشاكل لبنان الداخلية . وأن تدخلهم يرجع إلى أن الفلسطينيين لهم وضع خاص . وأن منظمة التحرير تعتبرها جامعة الدول العربية بمثابة حكومة فلسطينية . وبالتالى فإن أى قضية بينها وبين أى بلد عربى تصبح قضية عربية . وأنهم ينظرون إلى مايجرى فى لبنان من زاوية الحرص على سلامة الفلسطينيين وسلامة العلاقات الفلسطينية اللبنانية . (١١) وفى اليوم التالى- ١٥ أبريل- اقترح محمود رياض اتفاقا ينص على وقف إطلاق النار وتسليم المطلوبين من الطرفين وإعادة هيبة السلطة إلى أماكن التوتر. وفعلا تم إعلان الشطر الأول من الاقتراح وهو اتفاق وقف إطلاق النار الأول ولكنه لم يستمر طويلا بينما استمرت محاولات محمود رياض الأمين العام للجامعة طوال أشهر المأساة . وقد لخص الأمين العام الموقف فى كلمات (١٢) بأن القوى العربية تبلدت أمام مذبحة لبنان بحيث إننا الآن نردد الاسم ، كما لو كنا نردد اسما للوحة تجريدية رسمها بيكاسو . وإن البعض شارك فى هذه المذبحة بنفسه والبعض شارك فيها بتردده ، والبعض شارك فيها بصمته وإسرائيل وحدها تجنى الأرباح . والجامعة العربية حاولت مرارا . فقد تشاورت مع فيليب تقلا وزير خارجية لبنان أثناء وجودنا فى نيويورك- سبتمبر سنة ١٩٧٥- واقترحت عليه الاجتماع بوزراء الخارجية العرب لوضع حد للحرب الأهلية فى لبنان لحظتها وافقنى فيليب تقلا فورا . ودعونا للاجتماع فى اليوم التالى لكى نفاجأ بأن الوزير الوحيد الذى لم يحضر هو فيليب تقلا . والذى حدث هو أنه اتصل ببيروت فأخبره سليمان فرنجيه بأن العرب لا يجب أن يبحثوا الوضع فى لبنان . وفى أكتوبر- أى بعد شهر- أثناء انعقاد مجلس الجامعة اقترحت تشكيل لجنة ثلاثية من وزراء الخارجية العرب للوساطة بين الطرفين . وتحمس وزير

خارجية الكويت وعرض الاقتراح على وزير خارجية لبنان . فى الصباح وافق وزير خارجية لبنان وفى المساء سحب موافقته بعد اتصال مع سليمان فرنجية . وبعدها بشهرين - فى يناير - وجهت الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربى . فكان أول من رفض هو سليمان فرنجية . وعندما عرضت أن أذهب إلى لبنان - وهو أضعف الإيمان . جاءتنى برقية منه تقول « نحن نرحب بحضورك ، ولكن المطار مغلق » . وكان لبنان قد طلب من الجامعة العربية - ٣٠ يونيو - بعد شهرين من حادث عين الرمانة التريث فى طلب اجتماع وزراء الخارجية لبحث الوضع فى لبنان . »

كانت الصورة باختصار لا تخرج عن أن الدول العربية وجهت النداءات وسعت بالوسائل الدبلوماسية لوقف إطلاق النار دون أن يحاول أى منها الاقتراب من صلب المشكلة وكأن المشكلة هى مجرد وقف إطلاق نار مع أن اشتعال النار كان تعبيرا عن المستوى الذى وصلت إليه المشكلة . وانقسمت الدول العربية فى هذا الإطار حيث كانت توزع التهم وتنحاز لفريق ضد آخر . وهو ما ساعد على استمرار نزيف الدم وليس وقفه .

كما أن جبهة لبنان قد استفادت إلى حد بعيد من انقسام السياسات العربية وتعارضها وكان حسابها منذ البداية قائماً على السعى لتدخل أمريكى أو إسرائيلى أو فرنسى . وكانت صدمة لهم أن التدخل الأمريكى مستحيل . وأن التدخل الإسرائيلى مرفوض من إسرائيل وفق حساباتها وأن التدخل الفرنسى غير ممكن . فجبهة الموارنة كانت تفضل ألا تعتمد على دولة عربية حتى لا تدخل فى دائرة حساب السياسات العربية وحين لم تجد سوى هذا بناء على النصائح الإسرائيلية والأمريكية والفرنسية . فقد كان موقفها واضحا هو رفض تعريب المشكلة واتخاذ هذا الموقف الواضح من جهود الجامعة العربية . فالجبهة تعرف أن العرب حين

يجتمعون على مائدة رسمية لن يستطيع أحد أن يتف علنا إلى جانب سياستهم وهى تصفية المقاومة على أرض لبنان . وأن ذلك لايتم إلا من خلف الأستار وتحت الموائد .. ولذلك كانت ضد أى مؤتمر عربى لبحث قضية لبنان . وكانت قيادات الجبهة تفضل الاتصالات العربية الثنائية باعتبار أن ذلك يترك لها باب الاختيار مفتوحاً للدولة العربية التى تريدها أو على الأقل تفضلها الجبهة أو بعض قياداتها . وكان من الواضح أن سليمان فرنجية مع قيادة حزب الكتائب كانت تفضل دمشق على غيرها . خاصة وأن كل الأطراف الدولية التى تعتمد عليها الكتائب كانت تنصح بالتنسيق مع سوريا منذ البداية . حتى الفاتيكان نصح بذلك (١٣) وهو ماينقلنا إلى المرحلة الثانية .

مرحلة التدخل السورى الذى وصل إلى الغزو العسكرى للبنان وهو أكثر الأدوار التى فجعت الأمة العربية طوال ربع قرن . فقتل الفلسطينيين على يد الصهيونية تفسره حركة الاستعمار العالمى . وقتل نظام الملك حسين لهم يفسره دور الأسرة الهاشمية فى مسيرة النفوذ الأجنبى بالمنطقة . أما أن يقوم بهذا الدور النظام السورى .. فهى مسألة أبشع وأخطر .

والواقع أن نظرة على الأحداث دون الغوص فى أعماقها توضح أن دور سوريا فى لبنان قد عبر ثلاث مراحل : الأولى كانت دور الوساطة واحتواء الأزمة وانتهت بتكوين هيئة الحوار الوطنى ، والثانية كانت محاولة البحث عن حل وانتهت بما أطلق عليه الوثيقة الدستورية ، والثالثة هى فرض نهاية على الأحداث . وخطورة هذه النظرة إلى جانب عدم واقعيتها هى أنها تؤدى إلى تصور أن سوريا « تورطت » وهو تصور خاطىء تماما ومرفوض لأن تعبير « التوريط » يعنى بمفاهيم اللغة العربية أنها خدعت (١٤) فوقعت فى ورطة نتيجة الغباء أو سوء التقدير . وهو أمر غير

مقبول بالنسبة لسوريا ، خاصة وأن قيادات المقاومة وقيادات الحركة الوطنية اللبنانية وعلى وجه خاص كمال جنبلاط قد خاضت معارك حوار مع القيادة السورية قبلي لحافظ الأسد شخصيا وعبد الحليم خدام كل الحقائق والاعتراضات بصراحة كاملة ووضوح . وبالتالى فاحتمالى التوريط غير وارد بالنسبة لموقف سوريا . ولابد أن يكون هناك حساب سياسى لأبشع جرائم النظم العربية فى العصر الحديث دون مبالغة أو تهويل .

ودراسة الواقع تكشف كثيرا من الحقائق التى يجب أن تكون واضحة أمام الأمة العربية ليس بهدف الإدانة فهى أسهل السبل ولكنها من أجل البحث عن غد أكثر إشراقا .

فى ٧ يناير سنة ١٩٧٥ اجتمع حافظ الأسد مع سليمان فرنجية فى شتورا أى قبل إشارة البداية ـ حادث عين الرمانة ـ بثلاثة أشهر . وفى هذا الاجتماع عرض الأسد استعداده لمساعدة أخيه فرنجية إلى درجة إرسال قوات سورية للدفاع عن لبنان أو عقد اتفاقية أمن بين البلدين . والرجوع إلى بعض الذين حضروا حفل الغداء لأن المناقشة كانت بين الرئيسين فقط ، قالوا إنهم أخذوا الأمر على أنه نوع من المجاملة الكلامية العربية . . .

كما أن سوريا كانت تشعر بالقلق من أوضاع لبنان . وأفضل تلخيص لمصادر القلق هو تقرير كاظم الخليل نائب رئيس حزب الوطنيين الأحرار ـ كميل شمعون ـ بعد عودته من سوريا (١٥) فيقول إن موقف سوريا تجاه لبنان :

١ ـ تشعر سوريا أن لبنان قد أصبح ساحة تنطلق منها كل النشاطات والتحركات ضدها . وأن هذه التحركات زادت بعد الاتفاق المصرى الإسرائيلى .

٢ ـ أنه يمكن لسوريا بالتنسيق مع لبنان وقف أى نشاط فدائى . وأن بإمكانهم « تلجيم » المقاومة التى يستخدمها المسلمون فى خلافاتهم مع المسيحيين للحصول على تنازلات من أجل تحقيق مطالبهم .

٣ ـ يأخذ السوريون على لبنان مسايرته للعراق وازدياد نشاط حزب البعث العراقى فى لبنان ، وتزايد نشاطهم الإعلامى . وتطالب سوريا بوقف نشاطهم مع جماعة الرفض والقوميين . وتتهمهم جميعا بأنهم يعملون ضد النظام السورى فى لبنان .

٤ ـ تعهد المسئولون السوريون ـ لكاظم الخليل ـ بوقف كل نزف فى لبنان والضغط على المقاومة بجميع الوسائل لوقف نشاطها فى الساحة اللبنانية . فيفقد المسلمون واليسار ورقته فى صدامه مع المسيحيين .

يؤكد هذه المعلومات تقرير إحدى السفارات العربية فى لبنان (١٦) : « بأن التنسيق السورى اللبنانى يشير إلى أن معلومات سوريا أن لبنان أصبح مسرحا لمؤامرات العراق على سوريا . وأن النظام اللبنانى تعهد باتخاذ إجراءات حازمة فى رصد نشاطات هذه الفئات وخاصة الجبهة الشعبية . وقد صدرت التعليمات فعلا إلى الأمن العام ـ ٢٦ مايو ـ برصد كافة التحركات العراقية فى لبنان . و بررت الدائرة ـ الأمن ـ لموظفيها ذلك بأن هناك علاقة لهذه الجماعات بالمخابرات البريطانية » . و ينتهى التقرير الى أنه تم الاتفاق بين الطرفين على إحياء اتفاق شتورا بين فرنجية والأسد والذى يقضى بعقد لقاءات شهرية بينهما .

ولم يكن الاتفاق على لقاء شهرى هو الاتفاق الوحيد الذى تسرب من الاجتماع بل إن إحدى صحف لبنان (١٧) نشرت مشروع معاهدة أمنية مقترحة من سوريا على لبنان وأن المعاهدة عرضها حسن صبرى الخولى على رشيد كرامى

رئيس الوزراء . وهى تعتبر ملحقا لوثيقة وقعها فرنجية والأسد فى شتورا دون أن تعلن باستعانة لبنان بالقوات السورية لمدة عام وأن تضمن سوريا بقاء سليمان فرنجية فى الحكم . ونتيجة تكذيب سوريا لمسألة معاهدة الأمن نشرت الصحيفة أن المعاهدة تتكون من ٥ مواد موزعة على ١٣ بندا وتنص على أن يتولى السوريون حفظ الأمن فى لبنان لمدة ٣ سنوات وهو تعديل لاتفاق شتورا . وتنص المعاهدة المقترحة على أن يتولى ضباط سوريون وأجانب - لم تُحدد جنسياتهم - إعادة تنظيم جيش لبنان بالتعاون مع الضباط اللبنانيين الذى وقفوا على الحياد فى الأزمة .

وأكدت المعاهدة على تعهد سوريا بالعمل بكافة الوسائل التى يرونها مناسبة لتطبيق اتفاق القاهرة وملحقاته .

ولعل مايستحق التعليق على مسألة معاهدة الأمن المقترحة هو أنه كان يمكن اعتبارها خبرا صحفيا خاطئاً إلا أن شيئا خطيرا وقع وهو أن أحد الأربعة فى الجلسة التى نوقشت فيها المعاهدة والذى انحصرت الشبهة فى أن يكون هو مصدر الخبر الصحيفة عثر عليه مقتولا بعد أيام - ! - كما أن حافظ الأسد بعد نشر الخبر بيومين أعلن أن أمن لبنان يرتبط بأمن سوريا وبعد أيام - ٢٩ - يونيو - أكد محمد حيدر نائب رئيس الوزراء السورى أن ما يحدث فى لبنان يؤثر على أمن سوريا. ونشرت صحيفة « البعث » السورية أن الرئيس حافظ الأسد ينظر إلى الشعب اللبنانى كشعب توأم للشعب السورى(١٨) .

يضاف إلى ذلك رأى سوريا فى استقلال لبنان . وهو رأى كان يقال فى الماضى فى دوائر الحكم المغلقة دون أن يسمح بترديده علنا . وهو ما يعبر عنه عدم وجود تمثيل دبلوماسى بين البلدين والحركة بينهما مفتوحة إلى أن أعلن عبدالحليم خدام أثناء وجوده فى الكويت (١٩) « إن لبنان كان جزءا من سوريا وإن أى خطوة نحو تقسيمه ستعنى تدخلنا وضمّه إلى سوريا .. جبلا وساحلا وأقضيـ

أربعة .. » ، وكان حافظ الأسد قد أعلن فى مؤتمر حزب البعث سنة ١٩٧٣ أن لبنان كان جزءا من سوريا . وأنه ليس هناك مبرر للحساسية من الحديث عن الوحدة بين البلدين . فإن كان الهلال الخصيب مشروعا مشبوها فالعبرة بالمبادىء والأهداف .

ثم إن سوريا تعرف حقيقية المواقف فى لبنان ، ربما أكثر من غيرها من الدول العربية بحكم أنها الدولة العربية الوحيدة التى لها منظمات وليس أفراد تحمل أسماء محلية وتتحرك على ساحة لبنان بأسماء لبنانية وهى حزب البعث - عاصم قنصوه - وتنظيم الأسديين (الناصر بين سابقا) - كمال شنيلا (٢٠) - هذا غير علاقاتهم بقيادات الموارنة وخاصة بيير الجميل - الكتائب - وسليمان فرنجيه .

ويكفى أن سليمان فرنجية بعث للأمين العام للجامعة العربية رسالة بعد أسبوع من الغزو السورى للبنان يقول فيها حرفيا (٢١) . « إنى كرئيس للجمهورية اللبنانية أعتبر الوجود المسلح فى لبنان تنفيذا لما تضمنته الوثيقة الدستورية - فبراير - من ضمان سورى لالتزام الجانب الفلسطينى بالاتفاقات المعقودة مع السلطات اللبنانية» . وأظن أنه ليس هناك أوضح من ذلك إقرارا بأن العملية لم تكن لمواجهة حدث طارىء وهو معركة الجبل بل كان خطوة مدروسة ومتفق عليها مع فرنجية . وقد يبدو خطأ أن موافقة رئيس الجمهورية تعنى موافقة رسمية ولكن الذين يعرفون تركيب الحكم وسلطة إصدار القرار فى لبنان يعرفون أيضا أن مثل هذا القرار لايملكه رئيس الجمهورية وحده . وقد أثار كميل شمعون الدنيا ضده حين اتخذ قرار مماثلا باستدعاء الأسطول السادس والقصة تتكرر باختلاف طفيف فى الأسماء من شمعون إلى فرنجية ومن الأسطول السادس إلى الجيش السورى ولكن المهمة واحدة فى الحالتين .

وكان التنظيم السورى - الفلسطينى الاسم - الصاعقة قد سقط خلال الأحداث

بأقذر الأدوار، دور الطابور الخامس بين الحركة الوطنية والمقاومة . وهو التنظيم الذى ضرب المقاومة والحركة الوطنية بالسلاح بأوامر سورية وهو التنظيم الذى بدأ مع الكتائب عمليات السرقة والنهب فى الحى التجارى وبعدها انتقلت العدوى . وهو التنظيم صاحب الفضل فى تسهيل عملية سقوط تل الزعتر وهو أيضا التنظيم الذى قام بتصفية حسابات سوريا مع الصحافة المعارضة لها وفى إحدى عملياته سقط الزميل الصحفى المصرى إبراهيم عامر قتيلا - ١٩ فبراير - فى دار صحيفة المحرر التى كان يزورها . وحين اكتشفت الجماهير حقيقة حاربت التنظيم وحاصرت مراكزه حتى وصل الأمر إلى محاصرة رئيس التنظيم ولولا قيادة منظمة التحرير التى أنقذته لكانت الجماهير قد فتكت به . والمهم أن أعظم انجازات هذه العملية هو الاستيلاء على وثائق التنظيم التى أقدم فى ملاحق الكتاب عيّنة منها (٢٢) وأعرض معلومات من البعض الآخر.

فهو يقول فى الوثيقة ١٨٤ فى ٦ يونيو أن جميع المسلمين فى بيروت يقاتلون ضدنا ويطلب اتخاذ إجراء قاس (موجودة بملاحق الكتاب) ويقول فى الوثيقة ١٨٣ فى نفس اليوم إن الاشتباكات تزداد عنفا بيننا وبين جميع القوى الأخرى . ثم يقول إن الكتائب تسأل بإلحاح عن تجمعات غير معروفة فى عينطورة . وتسأل إن كانت قوى سورية أم من الفئات الأخرى (ملاحق الكتاب) وفى الوثيقة ٩٩٤ يطلب تكليف تنظيمات بالضغط على لبنانين (ملاحق الكتاب) لتغيير أو على حد تعبيره تصحيح مواقفهم . والوثيقة ١٥٠/٢٠٢ تكشف عن موقع التنظيم بالنسبة لسوريا حيث تلقى برقية من اللواء حكمت الشهابى لدعوة كامل الأسعد رئيس مجلس النواب باسم الرئيس حافظ الأسد ويرد عليها بتحديد موعد الزيارة (ملاحق الكتاب) ويؤكد فى الوثيقة ١٦١ التنسيق مع الكتائب بأنه «قام بإخطار الكتائب مسبقا» عن اتصالات فتح معهم لعقد اجتماع مع جنبلاط وأنه

طلب التريث . وكان الهدف هو إفساد محاولة اللقاء (ملاحق الكتاب) وتصوروا معي مهزلة أن زهير محسن يقول في برقية لقيادته السورية عن كمال جنبلاط - أنبل قيادات لبنان - إنه عميل انفصالي . لو كانت المأساة تسمح بملامح ابتسامة لقلت إنها نكتة سورية ولكن الفجيعة أكبر بكثير . وصورة البرقية في ملاحق الكتاب . والغريب أن رئيس الصاعقة وهو يتحدث مع قيادته السورية يتكلم بلغة الجميع أي أنه سوري فيقول في الوثيقة ١٠٠٤/١٠١ إن جنبلاط في حال عدم التوصل إلى اتفاق « معنا » أي سورية فإنه إما أن يصوت لصالح ريمون إده أو أن يقاطع الجلسة ..

وحتى رشيد كرامي رئيس وزراء لبنان حين أراد طلبا من رئيس جمهورية فرنجية طلبه من زهير محسن ليطلبه من سوريا - الوثيقة ٩٦٨/١٠١ « إن كرامي يؤكد على أهمية استعجال فرنجية في توقيع التعديل السوري » وحين وقعت سوريا اتفاقا مع المقاومة اتصلت الكتائب بالصاعقة تطلب تفسيرا فبعث قائد الصاعقة في نفس الوثيقة يقول « اشتكى ممثلو الكتائب من عدم إبلاغ الجانب الذي يمثلونه رسميا - جبهة لبنان - باتفاق دمشق . وتساءلوا عن صحة وجود بنود أو اتفاقات سرية » . والغريب أن كلا من سوريا والصاعقة كانت ملزمة بتقديم تفسير وهو ما تقوله الوثيقة « أوضحنا لهم حقيقة الأمر » وفي الوثيقة ٩٩٢/١٠١ يقول « إنه من الضروري التأكيد على الكتائب من طرفكم برسالة يحملها العقيد عليّ بعد عودته - من أجل ضمان موقفهم إلى جانب استمرار الهدوء » .

والمهم كذلك الضغط على بطرس الخوري - مليونير ماروني وأحد ممولي الحرب - وابنه لأنهما يعملان لصالح شمعون ومواقفهما سلبية . ثم يشتكي زهير محسن لسوريا من الكتائب - الوثيقة ٩٣٨/١٠١ « إن ما قامت به الكتائب والأحرار في بيت شباب اليوم هو ابتزاز قذر لا مبرر له » . و يستأذن في فتح معركة مع الكتائب والاحرار .

و يقول تفسيرا لطلبه « إن التدخل السورى رد على جانب واحد و بدون أن يحدث رد عملى على تصرف الجانب الآخر يجعل موقفنا حرجا . و ينتهى إلى أن مثل هذه العملية يمكن أن تقلب الرأى العام لصالحنا و يبرر دخول . كانت تدخل وشطبت القوات . و يعترف فى الوثيقة ١٠١/٩٢٦ موجهة إلى عبدالحليم خدام أنه أطلق النار على مظاهرة فلسطينية قال إنها « معادية نظمتها فتح مع جبهة التحرير العربية ..! دون أن يستأذن مسبقا مثلما فعل بالنسبة للكتائب وكانت مهمته هى ضرب الفلسطينيين !

ومعنى ذلك ببساطة أن تنظيم الصاعقة لا يرسل تقاريره إلى قيادته الرسمية وهى منظمة التحرير ولكنه يرسل تقارير يومية إلى الحكومة السورية . ومعنى هذه التقارير أن هناك تنسيقاً مع الكتائب التى أشعلت الحريق . وأنه أطلق النار على الفلسطينيين ولم يقم بذلك ضد الكتائب مثلا . هذا غير دوره فى عقد جلسة مجلس النواب لانتخاب رئيس جمهورية لبنان .

وكان لابد من تقديم لهذه العناصر التى تتوفر لسوريا دون غيرها لتأكيد حقيقة واحدة وهى رفض تعبيز أن سوريا تورطت فى أحداث لبنان . واستكمالا للصورة فإن أكثر ما يوضحه الفصل السابق هو أن إسرائيل كانت تهدد باستخدام القوة إن دخلت قوات سوريا فى لبنان وأمريكا كانت تنذر سوريا وإسرائيل بعدم التدخل ثم فجأة حدث تغير خلال أسبوع واحد فتحوّل التهديد إلى ترحيب وتحول الإنذار إلى دعم . وتفسر مجلة الايكونوست البريطانية هذا التغير بأن إسرائيل قبلت منطق الولايات المتحدة (٢٣) أن سيطرة سوريا على لبنان هى « أهون الشرين » ثم تطور الأمر إلى اتفاق بينهما . وكان صاحب فكرة الاتفاق حسب كلام المجلة البريطانية هو الملك حسين . وكان العرض الأردنى أثناء زيارة حسين لواشنطن أن تقوم واشنطن بالضغط على إسرائيل لترفع يدها عن لبنان إذا تحركت قوات سوريا

إليها . ومقابل ذلك تقوم سوريا بتجديد مدة قوات الطوارىء فى الجولان ، والتى تنتهى مدتها بعد شهر . وبشرط أن تبقى قوات سوريا بعيدا عن جنوب لبنان والمعروف أن الملك حسين كان فى الولايات المتحدة فى أول ابريل ١٩٧٦ .

وذكرت صحيفة واشنطن ستار (٢٤) - ١٢ ابريل - بأن سوريا تشاورت مع إسرائيل عن طريق السفارة الأمريكية فى كل من دمشق وتل أبيب للتأكد من أن أعمالها العسكرية فى لبنان لن تؤدى إلى أعمال انتقامية من إسرائيل . وقالت إن المشاورات مستمرة منذ يناير . وهو ما أكدته صحيفة معاريف الإسرائيلية - ٢٩ مارس - وحذرت إسرائيل من الوقوع فى خطأ . وأيدت حقيقة الاتصالات صحيفة « يديعوت احرونوت » - ٨ يونيو - وأيدت سلوك إسرائيل .

تبقى حقيقة فى هذه القصة وهى أن آخر مرة اجتمع فيها الملك حسين بحافظ الأسد كانت فى ٢٥ مارس أى قبل سفره إلى واشنطن . وبالتالى تكون مسألة الغزو السورى للبنان معروفة ومدروسة قبل أن تقع بخمسة أشهر . وهو ما يؤكد ما ذكره سليمان فرنجية فى رسالته إلى محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية .

وتضيف صحيفة الهيرالد تريبيون الأمريكية (٢٥) تفصيلة جديدة بأن أمريكا قامت أيضا بإقناع الموارنة بالاعتماد على سوريا . وأن جبهة لبنان كانت تشعر بالقلق من الاعتماد على حافظ الأسد وأن الجبهة تفضل الاعتماد على تدخل إسرائيل لأن قيادتها تعتقد أن استراتيجية حافظ الأسد لاضعاف الفلسطينين تسهيلا للتسوية السياسية مع إسرائيل يمكن أن تتحطم لو وقع فى سوريا انقلاب بل إن رصاصة واحدة يمكن أن تغير سياسة سوريا . وتقول الصحيفة إن الولايات المتحدة أقنعت الجبهة بخطأ شكوكهم وبضرورة الاعتماد على سوريا .

ويقول ساميسون فى كتابه « سوق السلاح » إن سوريا وجدت فى انتصار الفلسطينيين تهديدا يحدد مصير الاستقرار الداخلى فيها . وهو نفس موقف السعودية

والكويت . وكل منهم لديه أقلية فلسطينية يخشاها . وهكذا دخل الجيش السورى ليضرب القوات التى دربها وقام بتسليحها من قبل (٢٦) .

والمشكلة الوحيدة التى غابت عن قيادة دمشق هى ضرورة الحصول على موافقة عربية و يكفى وصفا لمعادلة لبنان تعبير بطريرك الموارنة خريش عن علاقة لبنان بسوريا « بأنها يجب أن تكون دائما ممتازة وإذا تعطلت يقع الخراب ، لأن مصالح البلدين متشابكة ولبنان يرتاح إذا كان العرب متفقين . والأهم أن تكون سوريا ومصر متفقتين . والسعودية تبقى القاعدة والركيزة لكل اتفاق ، لأنها تعطى كل اتفاق الاستمرارية والديمومة (٢٧) .

وكانت السعودية قدمت لسوريا ٣ مليارات دولار - أى ٩ مليارات ليرة سورية - مساعدة مالية بالأشتراك مع دول الخليج وذلك عن سنة ١٩٧٥ أى عام المأساة فى لبنان . وأصبح النظام السورى فى انتعاش و وضع خطة تنمية بالغة الطموح و بلغت ميزانية سوريا التقديرية لسنة ١٩٧٦ عام حسم القضية اللبنانية ١٦ مليار ليرة سورية منها ٩ مليارات من السعودية ودول الخليج . ولكن السعودية أوقفت المساعدات مع بداية هذا العام . ومنعا من أى لبس أو سوء فهم فالموقف لم يكن للضغط على سوريا لتطوير علاقتها بالمقاومة وإنما كان على العكس متناقضا مع مصالح المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية . وكانت شروط السعودية :

- تحقيق مصالحة مصرية - سورية .
- إعادة النظر فى العلاقات مع الدول الشيوعية وخاصة الاتحاد السوفيتى
- تطويع الموقف السورى فى لبنان بما يتفق مع المصالحة مع مصر والخط السعودى .

وكان الملك خالد قد زار دمشق لأول مرة فى نهاية سنة ١٩٧٥ - و بالتحديد فى سنة ٢٥ ديسمبر - وأعلن أن المحادثات بين خالد والأسد تناولت السعى لإزالة

الخلاف بين مصر وسوريا ، والأزمة اللبنانية وبحث الحلول لها ودور منظمة التحرير في المساعي من أجل التسوية وأخيرا دعم العلاقات بين البلدين .

وفي آخر أيام العام أي بعد خمسة أيام من انتهاء زيارة الملك خالد لدمشق قام حافظ الأسد بزيارة لطهران - ! - وبعدها بدأت ظواهر الفتور تطغى على العلاقات السورية السوفيتية .

والواقع أن خلاف سوريا مع مصر كان مجرد خلاف حول الأسلوب وسرعة الحركة فقط . وقد بلور ذلك بوضوح أن سوريا لم تجد في الوقت الذي ترتب على عدم حصولها على مكاسب من سياسة الخطوة خطوة دافعا لرسم سياسة طويلة المدى لمواجهة إسرائيل بل إن ترجمة سوريا لذلك كانت مجرد الخوف على موقفها التفاوضي مع الولايات المتحدة وإسرائيل . وأن الخطة التكتيكية تصبح هي أن يتحالف النظام السوري الذي يتغنى صباح مساء بالاشتراكية والثورة مع نظام الملك حسين في الأردن ومع النظام الطائفي في لبنان . ولايبقى سوى وضع اليد والسيطرة على الثورة الفلسطينية . وبالتالي يمكن أن تحتل سوريا مركزا أفضل في أي مفاوضات قادمة (٣٨) . وأصبح حافظ الأسد يمثل يوم مقابلته مع كارتر - مايو سنة ١٩٧٧ - نقطة الارتكاز الهامة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط (٣٩) . وهو ماسهل كثيرا مهمة السعودية . وظهر أثر ذلك على ردود فعل دمشق تجاه مايطلبه الاتحاد السوفيتي الذي كان قد أرسل مذكرة في ١٠ صفحات - ١١ يوليو ١٩٧٦ - يحذرها من المضي في ضرب المقاومة والحركة الوطنية في لبنان وكان الاتحاد السوفيتي قد نصح سوريا قبل الغزو بعدم الصدام مع المقاومة ونصح المقاومة بذلك على وعد أخذوه من سوريا بعدم الصدام مع المقاومة . ثم ظهر أن المسألة كانت بالنسبة لدمشق مجرد كسب الوقت للانتهاء من كل مشاكل غزو لبنان .

وهكذا تتضح المعالم الرئيسية لهذه المرحلة وهو مايسمح بعد ذلك بمتابعة التحرك

العربى من خلال واقع الأحداث بعد فشل المبادرة السورية فى فرض ماعرف بالوثيقة الدستورية (٣٠). فقد بدأت سوريا جهدا مكثفا مع قادة لبنان واجتمع حافظ الأسد مع ياسر عرفات - ٢١ فبراير - كما تلقى ياسر عرفات رسالة من الملك خالد حول الوضع فى لبنان. بينما أعلن وزير خارجية مصر - ٢٤ فبراير - أن كل ماتريده مصر للبنان هو التخلص من الوصاية بأى شكل كانت ودفع أى تدخل فى شئون لبنان الداخلية. وأصدرت قيادة حزب البعث بدمشق بيانا فى ذكرى ٨ مارس اعتبرت إنشاء جبهة شمالية ضرورة قومية ملحة. وسوريا تعمل على تقوية علاقاتها مع الأردن فى نطاق هذه الجبهة. ومشروع الوحده النضالية السورية الفلسطينية يأتى فى إطار هذه الأفكار. كذلك الدور الإيجابى الذى تلعبه سوريا لوضع حد لنزيف الدم فى لبنان. وفى نفس المناسبة أعلن حافظ الأسد « أن الذين وقفوا خلف أحداث لبنان كانوا بحاجة لأن يرتفع صوت اتفاقية سيناء وكلنا نقدر أن صوت المذابح هو صوت عال يدخل إلى العقول والقلوب ». أما ياسر عرفات فقد توجه إلى الكويت وأعلن من هناك - ٩ مارس - أن قوات « عين جالوت » الفلسطينية استدعيت من مصر بأمر منه وأعرب عن أمله فى عودة هذه القوات إلى مواقعها عندما تنتهى الحاجة إليها فى لبنان. وبعد يومين وقع انقلاب عزيز الأحدب الذى اعتبرته سوريا عملا عدائيا موجها ضد نشاطها فى لبنان حتى لقد أجل الأسد زيارته لباريس بسبب ذلك بينما تلقى عزيز الأحدب برقيات تهنئة بعيد المولد النبوى - ١٤ مارس - من الملك خالد والأمير فهد ولى عهد السعودية والأمير سلطان وزير دفاعها. وقد توجه ياسر عرفات ومعه أبو اياد إلى دمشق لتوضيح موقف المقاومة من حقيقة انقلاب الأحدب وقام الملك حسين بقطع رحلته الدولية - ١٨ مارس - بسبب الموقف فى لبنان. وقد قام اللواء ناجى جميل - ٢٢ مارس - نائب وزير الدفاع بنقل رسالة من حافظ الأسد إلى الأمير فهد حول الدور السورى فى لبنان. وبعد يومين بعث الملك خالد برسالة إلى

الأسد وأشاد المبعوث السعودى بدور سوريا وأعلن السادات - ٢٥ مارس - «أنه كان ولايزال هناك تدخل عربى وأجنبى فى لبنان عبر إرسال أسلحة إلى بعض الأطراف وتدخل عربى عن طريق سوريا لتحقيق مخططاتها» .

وفى نفس اليوم زار الملك حسين دمشق لمدة ساعات للتشاور مع الأسد . وأعلن وزير داخلية الكويت - ٢٧ مارس - ضرورة مؤتمر عربى لبحث الوضع المتفجر فى لبنان . وهو نفس اليوم الذى اجتمع فيه حافظ الأسد مع كمال جنبلاط لمدة ٩ ساعات حاول خلالها جنبلاط إقناع الأسد بأن مصلحة سوريا قيام دولة تحكمها الحركة الوطنية فى لبنان ولكن الاجتماع انتهى بالفشل . وفى اليوم التالى اجتمع ياسر عرفات مع الأسد ولكن الرئيس السورى ظل على موقعه .

وأعلن مجلس الأمن القومى المصرى - ٢٨ مارس - الدعوة إلى إرسال قوات عربية مسلحة لإنهاء القتال فى لبنان وإلى تدخل عربى عبر وساطة مشتركة . وسلمت المبادرة المصرية للجامعة العربية التى قامت بتوزيعها على الحكومات العربية فى اليوم التالى شهد اجتماعا بين الملك خالد والشيخ زايد انتهى بتوجيه نداء إلى لبنان شعبا وقيادة لإنهاء القتال . وأعلن رشيد كرامى رئيس وزراء لبنان - ٣٠ مارس - معارضته لدخول قوات عربية للبنان بسبب العلاقة المضطربة بين الدول العربية ودعا إلى دعم سوريا فى مبادرتها . وقد أصدر حزب البعث فى لبنان - السورى - بيانا - ٣١ مارس - يتهم فيه جنبلاط «بالعمالة والخيانة !» وفى نفس اليوم أعلن الرئيس السادات نداء إلى فرنجية يدعوه إلى عدم المغالاة فى كبريائه الشخصى وطالب بتشكيل قوة عربية قادرة على وقف إطلاق النار إذا وافق لبنان على ذلك .

وفى أول ابريل أعلن الملك حسين من الولايات المتحدة تضامنه مع أى تدخل سورى محتمل فى لبنان لمواجهة محاولات المتطرفين المسلحين لتغيير تركيبه الحكم فى

لبنان لصالحهم . وفى اليوم الثانى أعلن وزير خارجية مصر أن القوة العربية المقترحة يمكن ان تتكون من ٦ دول هى السعودية ومصر والعراق وسوريا والكويت والإمارات . كما أعلن الملك خالد استعداد السعودية للمساهمة فى أى جهد عربى لانهاء الازمة . وعاد الملك حسين للتصريح من الولايات المتحدة ـ ٣ ابريل ـ إن سوريا لن تتدخل عسكريا فى لبنان إلا بناء على طلب من السلطات اللبنانية المسئولة وزعماء لبنان الدينيين من جميع الأطراف .

وهاجم كمال جنبلاط فى نفس اليوم التواجد السورى فى لبنان وقال إنه تلقى بذهول خبر اجتياح بعض الموانىء اللبنانية من جانب الجيش السورى وردت الصاعقة السورية بأن قواتها قرب مصفاة الزهرانى لحمايتها من إسرائيل ـ ! ـ وكأن الصاعقة قادرة على ذلك .

والمعروف أن بعض وحدات الجيش السورى حاولت دخول لبنان ولكنها عادت وانسحبت بعد أن أعلنت إسرائيل معارضتها لدخول سوريا ولم يكن الاتصال الأمريكى قد تم معها بعد .

ومن باريس أعلن السادات ـ ٤ ابريل ـ أن سوريا زودت الطرفين بالأسلحة والمأساة فى لبنان نتيجة هذه السياسة . وأعلنت الكويت معارضتها لإرسال قوات عربية إلى لبنان وإن كانت تؤيد اتخاذ أى مبادرة سياسية لوضع حد لإراقة الدماء فى لبنان . وأعلن الأمين العام للجامعة العربية ـ ٥ ابريل ـ أن الحل الحقيقى للأزمة يتمثل فى عقد قمة عربية مصغرة فى أسرع وقت لحل مشكلة لبنان . وأعلن الملك حسين من لوس أنجلوس ـ ٧ ابريل ـ معارضة الأردن لفكرة تشكيل قوة مسلحة من الدولة العربية . وأعلن كمال جنبلاط دعوته إلى تعريب الأزمة اللبنانية ـ ٩ ابريل ـ بينما أبو إياد يرفض التعريب أو التدويل . وقيادة المقاومة تعقد اجتماعا موسعا مع قيادات الحركة الوطنية ـ ١٢ ابريل ـ لبحث العلاقات المتوترة مع

دمشق . وتقرر تكثيف الاتصالات مع دمشق وإرسال مبعوث فلسطيني إليها لتصحيح العلاقات مع الحركة الوطنية وقد فوض كمال جنبلاط -١٣ ابريل- ياسر عرفات في مهمة تصحيح العلاقات مع القيادة السورية بعد رسالة من سوريا أكدت فيها على التحالف الإستراتيجي بين المقاومة وسوريا واستعدادها ببذل المساعي لتصحيح العلاقة مع الحركة الوطنية . وفي اليوم التالي اقترحت العراق رسميا دعوة مجلس الجامعة العربية إلى اجتماع طارئ . واجتمع ياسر عرفات مع الأسد- ١٥ - للتوصل إلى اتفاق . وقد أمكن التوصل إلى اتفاق ينص على :

١- وقف القتال واتخاذ موقف موحد ضد أي جهة تقوم باستئناف القتال

٢- إعادة تشكيل اللجنة العسكرية العليا الثلاثية (سوريا- لبنان- المقاومة) لتحقيق وقف القتال إلى أن يتم انتخاب رئيس جديد الذى يقرر مايراه من اجراءات الأمن .

٣- مقاومة التقسيم بكل اشكاله وأي عمل أو إجراء من شأنه المساس بوحدة لبنان .

٤- رفض تعريب الأزمة وخاصة بما يؤدي إلى إدخال قوات عربية .

٥- رفض الحلول والخطط الأمريكية في لبنان .

٦- رفض التدويل أو إدخال أي قوات دولية إلى لبنان .

وكان من الواضح أن الأتفاق هو عملية تهدئة حيث إن نتائج زيارة الملك حسين لواشنطن وإقناع إسرائيل بعدم التدخل في حالة التدخل السوري لم تكن قد وصلت إلى نتيجة . وكان الملك حسين مازال في رحلة حيث كان في لندن . ودليل ذلك عدم تشكيل اللجنة الثلاثية بحجة عدم موافقة قيادة جبهة لبنان .. !

وقام بعد ذلك وفد سوري بزيارة السعودية- ١٧ ابريل- يحمل رسالة من الأسد الى خالد حول تطورات الموقف في لبنان ، كما بعث ياسر عرفات برسالة عاجلة إلى

القذافى . وبعد يومين بعث حافظ الأسد برسالة إلى ملك الأردن الذى استدعى سفيره فى لبنان فى نفس اليوم للتشاور. وتوجه الملك حسين لزيارة دمشق بعد ذلك ـ ٨ مايو ـ وكان قد تم انتخاب سركيس رئيسا للبنان . وانتهت الزيارة ببيان عن التنسيق بين البلدين كخطوة على طريق الوحدة بين الأردن وسوريا . وأعلنت وكالة الأنباء السعودية ـ ١١ مايو ـ أنه تقرر عقد مؤتمر قمة مصغر من السعودية والكويت ومصر وسوريا فى شهر يونيو لتسوية الخلافات بين مصر وسوريا . وقد توجه عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا إلى دمشق ـ ١٥ مايو ـ لمناقشة الوضع العربى ثم زار لبنان فى صحبة ياسر عرفات الذى كان فى زيارة لدمشق وعاد بعد يوم واحد مرة أخرى إلى دمشق ثم بغداد وعاد إلى دمشق للمرة الثالثة فى الوقت ـ ١٩ مايو ـ الذى اعلن فيه تأجيل مؤتمر الرياض .

ووسط حملة الهجوم العنيفة للمنظمات السورية فى لبنان على كمال جنبلاط وقع حادث اغتيال ليندا جنبلاط شقيقة الزعيم اللبنانى ـ ٢٧ مايو ـ على أيدى ٦ مسلحين ملثمين وقد سارع كل من شمعون وبيير الجميل بإدانة الحادث . وعرف فى نفس اليوم أن ياسر عرفات تعرض لمعاملة غير ودية على الحدود مع سوريا قبل يومين مما دفعه للعودة للبنان . وقد اعتذرت سوريا رسميا له ووجهت إليه ٣ دعوات لزيارة دمشق ولكنه سافر إلى القاهرة . ومن القاهرة بعث أمين الجامعة العربية ببرقية للرئيس اللبنانى المنتخب يقترح ترتيب اجتماع عربى سريع على أى مستوى .

ودخلت مرحلة العمل العربى منعطفا جديدا مع أول يونيو حين دخلت وحدات من الجيش السورى إلى لبنان فى زحله وتحتل مواقع استراتيجية هناك وتقيم حواجز على طريق المصنع ـ شتوره .

وجاء الغزو السورى للبنان مرتبطا بظاهرتين . الأولى منها هى انتصار الحركة

الوطنية فى كل قطاعات لبنان وتساقط مواقع جبهة لبنان حتى لم يبق لها سوى نقط على وشك الانهيار والظاهرة الثانية هى بداية تقارب بين الرئيس اللبنانى المنتخب و ياسر عرفات . وكان منتظرا منه أن يصحح العلاقة بين الرئيس الجديد وقوى الحركة الوطنية و بالتالى يخرج سركيس من دائرة سور يا إلى مجال أكثر اتساعا .

وترى مجلة الايكونومست (٣١) أن هناك ظاهرة أخرى وهى كراهية سور يا لدور الصحافة فى هذه المرحلة . وأن هذا يفسر مسلكها الغريب تجاه الصحف من أخذ أرشيفاتها إلى إغلاق البعض منها باعتبار أن لديها حساسية خاصة من حر ية الصحافة التى لم تعد تعرفها سور يا منذ حوالى عشر ين عاما . كما أن سور يا تر يد أن تحرم الفلسطنيين واحدا من أسلحتهم وهو الصحافة وهو ماحدث ، ثم هى تر يد دعم صحافة الموارنة التى كانت فى ذيل صحف لبنان . وأصبح الميدان خاليا لها فى ظل الجيش السورى . والأهم فى نظر المجلة هو حماية عقول ٣٠ ألف جندى سورى من سموم حر ية الصحافة .

ونظرة على تحرك الجيش السورى تنفى عنه الحيادية أو نصرة الثورة التى كان يتغنى بها . فالطر يق الذى سلكه كان عبر المناطق التى تسيطر عليها الحركة الوطنية بينما لم يقرب مناطق الموارنة . فقد سلك الجيش طر يقين . الأول هو طر يق دمشق- بيروت الدولى الى صوفر ثم بيروت والثانى طر يق جز ين- صيدا ثم الساحل الى بيروت . ولو صدقت النوايا لا ستخدم طرق أسهل وأسرع للوصول إلى بيروت ولكنها عبر مناطق الموارنة .

وقد فوجىء طابور الاستطلاع الذى سبق الزحف فى صيدا بالشعب اللبنانى يتصدى له و يبيد الطابور كله . وكان أمل سور يا أن يتم اجتياح لبنان خلال يومين ولكن المقاومة الشعبية التى نظمتها قوى الحركة الوطنية والمقاومة جعلت

الجيش السورى الغربى يتعثر فى الحركة أمام قوى الثورة الفلسطينية - اللبنانية العربية .

وهناك بين قوى الثورة الفلسطينية من يرى فى دور الجيش السورى مجرد خطأ فى حساب سوريا السياسى . ومنطقهم هو أن النظام السورى يمثل نموذجا للأنظمة العربية التى لا تستطيع المواجهة وهى أيضا ترفض الاستسلام للسياسة الأمريكية وأن سوريا أرادت أن تمتلك أوراقا أكبر من حجمها لتوظفها بالتلويح بالحرب أو تمثيل القوة عند الذهاب إلى جنيف و يقول أصحاب هذا الرأى إنهم سمعوا حافظ الأسد يقول أمامهم « أنا لست أمام اختيار إما التوقيع مثل مصر أو الحرب . فلن أوقع ، ولن أحارب » و ينتهى منطق أصحاب هذا الرأى إلى أن سوريا لم تكن شريكا فى التخطيط بدليل أنها كانت فى البداية مع المقاومة ولكنها لحسابات ذاتية توافقت حركتها مع خطة الولايات المتحدة وإسرائيل . ولذا تم التنسيق والتفاهم بينهم .

ولعل أكثر مايضعف هذا المنطق هو الدور الذى استمر عليه الجيش السورى فى لبنان حتى بعد أن ظهر له خطأ القرار بالغزو . فهو قد قام عمدا ولمدة تزيد عن الشهر باشغال القوات الوطنية المشتركة فى الجنوب والجبل ، كما قام بمهمة الاسناد المدفعى والصاروخى للقوات الانعزالية فى كثير من الاحيان .. وقد شجع هذا قوى جبهة لبنان لاستغلال تشتت القوات الوطنية وانشغالها بالجيش السورى وشنت هجومها على مواقع القوات المشتركة فى تل الزعتر وجسر الباشا والكورة والنبعة وبقى تل الزعتر ليس فقط قلعة للبطولة والصمود ولكن دليل ادانة صارخ للدور السورى فى لبنان . فخلال ٥٢ يوما من حصار المخيم فى ظل الدعم السورى لم تستطع القيادة السورية أن تصحح موقفها لو كانت مسألة خطأ فى الحساب ولاتحرك ضميرها لو كانت المسألة مجرد رغبة فى إيقاف النار ولعل من يقرأ

صفحات يوميات المخيم (٣٢) - يخرج بقناعة واخدة وهى رفض سياسة الاعذار والتبريرات حتى ادعاء منع التقسيم ينهار أمام حقيقة أن إبادة مخيم تل الزعتر ومخيم جسر الباشا هو دليل تأصيل سياسة التقسيم إذ أصبح للمرة الأولى للموارنة منطقة مغلقة بفضل أسلحة وجنود جيش سوريا العربى .

وكانت هذه الحقائق هى وحدها التى تفسر ظاهرة أن المكاسب العسكرية التى حققتها القياداتان السورية والانعزالية فقدت أهم أهدافها الأساسية وهو فرض الانسحاب بواسطة الضغط العسكرى والابتزاز السياسى وذلك نتيجة المقاومة الحقيقية للقوات الوطنية المشتركة وكانت النتيجة بالنسبة للقوات المشتركة هى خسارة مواقع عسكرية وبالمقابل تحقيق نصر سياسى كبير. وهو كان بالنسبة لجبهة سوريا والانعزاليين كان عكس ذلك تماما .

وقد ذكرت صحيفة « هآرتس » الإسرائيلية - ٩ ابريل - أن موقف سوريا تحكمه قوة الردع الاسرائيلية والدور الأمريكى والمعارضة السوفيتية لما فعلته .

وكان تحرك الدول العربية تجاه دخول جيش سوريا أراضى لبنان فى اتجاهين :

١ - اتجاه مثلته دول ليبيا والجزائر . فقد بعثت بوفد من عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا ووزير التربية الجزائرى - ٦ يونيو - وكانت مهمة البعثة حسب مصادر المقاومة هى الانسحاب العاجل للقوات السورية . إيجاد تسوية للحرب فى لبنان تتم بواسطة الاحزاب اللبنانية . ضمان الدول الثلاث للاتفاق وضمانهم أيضا وجود المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية .

٢ - اتجاه غالبية الدول العربية وهو عقد اجتماع عربى طارئ وكان الرأى السائد أن يكون الاجتماع على مستوى وزراء الخارجية .

وفعلا عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعا طارئا - ٦ يونيو - بالقاهرة وحضرته كل الدول العربية . كانت ١١ دولة ممثلة بوزير خارجية في حين مثل المغرب وموريتانيا واليمن الشمالية سفراؤها في القاهرة ومثل الجزائر القائم بالأعمال في القاهرة . والأردن وزير الدولة للشئون الخارجية والصومال وزير العدل . وليبيا وكيل وزارة الخارجية ومثل لبنان مندوبها الدائم بالجامعة . وبعد جلسة مغلقة استمرت حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح ٩ يونيو انتهى مجلس الجامعة بقرار رقم ٣٤٥٦ - يدعو إلى وقف إطلاق النار فورا وتشكيل قوة أمن عربية رمزية تحت إشراف الأمين العام للجامعة للحفاظ على الأمن ، على أن يتم تحريك هذه القوات لمباشرة عملها وأخذ محل القوات السورية . وتنتهى مهمة قوات الأمن العربية بناء على طلب رئيس جمهورية لبنان المنتخب . وفي نفس الوقت تشكلت لجنة تمثل مجلس الجامعة من وزير خارجية البحرين رئيس دورة المجلس والأمين العام للجامعة ورئيس وفدى الجزائر وليبيا في الاجتماع على أن تتعاون هذه اللجنة مع الأطراف المعنية في متابعة الموقف والعمل على تأمين الأمن والاستقرار في لبنان مع اعتبار الاجتماع مفتوحا . وفعلا توجهت اللجنة بعد ساعة من انتهاء الاجتماع إلى دمشق واجتمعت بحافظ الأسد فور وصولها ثم عادت للقاهرة مساء وأعلنت أن الرئيس السورى وافق على قرار مجلس الجامعة وطلب إدخال تعديل يقضى بإشراك قوات لبنانية في القوة العربية . وكان من المنتظر أن تتكون هذه القوة من وحدات من ٦ دول هي السعودية . السودان . ليبيا . الجزائر . سوريا . جيش التحرير الفلسطيني . ورفضت مصر الاشتراك فيها .

وكان من الواضح أن سوريا قبلت قرار المجلس نتيجة المقاومة العنيفة التي واجهت قواتها في لبنان ، ولكنها في نفس الوقت تركت الباب مفتوحا للمناورة إذ أرسل حليفها سليمان فرنجية رسالة إلى مجلس الجامعة العربية - ٩ يونيو (٣٣) -

يدعى فيها أن لبنان لم يتلق الدعوة للمؤتمر. وهذا أمر مضحك فعلا لأن الجامعة العربية لايمكن أن تتجاهل لبنان حتى ولو بالخطأ الذى لم يسبق أن حدث طوال عمر الجامعة. ثم يقول فى رسالة لأمين الجامعة إن لبنان لم يكلف أى شخص ليحل مكان وزير الخارجية. وهو يعرف أن المندوب الدائم للبنان فى الجامعة وظيفته هى حضور المؤتمرات وهو لايحصل على تفويض بذلك لكل جلسة وإلا انتفت عنه صفة المندوب الدائم. ويرتب على ذلك أن لبنان غير ملزم بقرار لم يوافق عليه. وفرنجية يعرف أن أحدا لم يقبله وخاصة بعد انتخاب الرئيس الجديد ولايقف معه سوى سوريا وحدها (٣٤).

وقد واجهت قوة الأمن مشكلة أن جبهة لبنان لاتريد قوات جزائرية أو عراقية كما أن الجزائر نفسها لاتريد إرسال قواتها كما أن اليمن الشمالية لم تكن لديها الإمكانيات لإرسال القوات ولم يتحرك أحد لإعطائها هذه الإمكانيات بينما كان فى سوريا لواء سعودى منذ أيام الحرب وبقى هناك. وقد أرسلت ليبيا عددا من ضباطها فورا ونقلت السعودية كتيبة من سوريا وأرسلت السودان كتيبة وكان المطلوب هو ٦ آلاف. وقد دارت بالمجلس مناقشة طويلة حول اشراك سوريا الموجودة بالفعل فى لبنان وكان الرأى الغالب هو إشراكها لتكون تحت سيطرة عربية يمكن أن تجمح فورا من طموحها، ولكن الحقيقة كانت أكبر من الآمال. فالقوات بحكم الأمكانيات المتاحة لديها ولسرعة إرسالها دون تخطيط سابق وعدم وجود مقومات القيادة الحقيقية وخاصة التناسق والمعلومات، لكل ذلك لم يكن ممكنا أن تنجح، خاصة وأن مهمتها كانت حفظ الأمن والسلام. ولبنان كانت بلا أمن ولاسلام، فهى قد ذهبت لتحمى حقيقة غائبة. ويبدو أن الذين فكروا فى القرار بهذا الشكل كان لديهم إدراك بعدم جدية دور هذه القوات فى مواجهة حرب حقيقية استمرت حتى وقت القرار حوالى ١٤ شهرا استخدمت فيها أحداث

الأسلحة والعتاد. والمسألة كانت فى نظرهم مجرد جعل الوجود السورى فى إطار عربى وتحت راية الجامعة العربية.

وقد استغرق وصول قوات الأمن العربية بعض الوقت حتى انتهى الأمين العام من تذليل العقبات. وبعث حافظ الأسد إلى فرنجية بأنه موافق على دخول القوات إلى لبنان كما أنه قد أحضر قائد الصاعقة والبعث من بيروت لإبلاغهم بالقبول السورى وأبلغت سوريا الأمين العام موافقتها على سحب قواتها بشروط (٣٥) أولها أن تحل القوات العربية محلها فى بيروت وطرابلس وصيدا والجبل. وثانيها أن يحظى دخول القوات بموافقة سلطات لبنان الشرعية. وثالثها ألا يشمل الانسحاب منطقتى عكار والبقاع إلا بعد أن يتوصل فرقاء الحرب إلى اتفاق نهائى وآخرها الإفراج عن عناصرها البعث والصاعقة وإعادة فتح مكاتبها وبالتالى كان الموقف يتأكد كل يوم أن سوريا تحاول كسب الوقت وانها مصممة على أن تمضى إلى آخر المشوار.

فقد قام حافظ الأسد بزيارة باريس - ١٧ يونيو - والاجتماع مع ديستان بينما ذهب الأمين العام للجامعة العربية إلى الرياض واجتمع مع الملك خالد، بينما كان عبد السلام جلود يتنقل بين دمشق وبيروت. وعاد الأمين العام إلى دمشق كما عاد إليها حافظ الأسد. وأعلن أن القوات سوف تدخل الى لبنان وفعلا دخلت وحدات ليبية وسورية - ٢١ يونيو - مطار بيروت بينما كانت الحرب تدور حول تل الزعتر ولا أحد يفكر فيه ولو بالوساطة -! - كما أن القوات السورية استمرت فى عملياتها العسكرية ضد القوات الوطنية المشتركة.

وحدث تغير جديد يعتبر علامة حقيقية على إنهاء الحرب فى لبنان. إن السعودية جمعت رئيس وزراء مصر على زميله السورى فى حضور رئيس وزراء الكويت - ٢٣ يونيو - بالرياض وانتهى الاجتماع فى اليوم التالى بتشكيل لجنة من وزيرى خارجية

مصر وسوريا للتمهيد لمؤتمر قمة بين البلدين ووقف الحملات الإعلامية بينهما . كما قرر المؤتمر دعم قرارات مجلس الجامعة العربية ومناشدة جميع الأطراف تسهيل مهمة قوة الأمن العربية ، ولكن القتال بقي مستمرا بين سوريا . والقوات المشتركة من جانب وبين قوات جبهة لبنان ومخيم تل الزعتر من جانب آخر . وتعرضت قوات الأمن العربية بإمكانياتها الهزيلة لأكثر من هجوم وعمليات قنص لأفرادها واعتداءات على ضباطها حتى بعد استلام سركيس لصلاحياته - ٢٣ سبتمبر - وهو ماجعل الأمين العام يقرر - ١٠ أكتوبر - سحب القوات من لبنان لاستحالة ممارستها للمهمة المكلفة بها ، ولكن القرار لم ينفذ أمام تحديد موعد مؤتمر قمة الرياض .

وهكذا بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة من الصراع العربى ، صراع الديوك ، على ساحة لبنان . وهى مرحلة البحث عن نهاية للمأساة ، بعد أن نزف الدم الفلسطينى وتعرت كل الأنظمة العربية أمام الأمة العربية ، واقترب الموقف العربى من النقطة التى ترضى الأطراف الدولية التى لعبت فى الساحة العربية طوال أشهر المأساة . وكان هناك أكثر من اتجاه نحو الوصول إلى نهاية .

فالحكومة السورية أرادت أن تعقد اتفاقا مع المقاومة . وعلى ضوء معركة بحمدون التى عجزت فيها القوات السورية عن اختراق قوات المقاومة لمدة ٣ أيام . وكان معنى الإصرار على الاستمرار هو تعريض أمن سوريا نفسه للخطر . وبمساعدة الوساطة الليبية فى ٢٩ يوليو تم التوصل اتفاق لوقف اطلاق النار وتشكيل لجنة لبنانية سورية فلسطينية برئاسة ممثل عن الجامعة العربية تقوم بالإشراف على وقف إطلاق النار . وينص البند الثالث على أن سوريا ومنظمة التحرير يشجعان جميع الاطراف اللبنانية على إجراء حوار وطنى برئاسة سركيس وتكون الوثيقة التى أذيعت فى ١٤ فبراير أساسا للحوار . والبند الرابع ينص على أنه إنطلاقا من حق لبنان بالا يتدخل الجانب الفلسطينى فى شئون لبنان الداخلية فإنه من حق المقاومة

ممارسة نضالها من ساحة لبنان وفق الاتفاقات المعقودة ووقع هذا الاتفاق عبد الحليم خدام عن سوريا وفاروق قدومي عن منظمة التحرير. وكان هدف سوريا في الواقع هو قطع الطريق على أي عمل عربي آخر.

سعت أطراف لبنان في اتجاه آخر بعد أن ظهر واضحا أن كل فريق أخذ يخسر قواعده الجماهيرية أمام فداحة الخسائر في الأرواح والأموال. وفعلا تم الاتفاق بين المقاومة والكتائب والحركة الوطنية على وقف إطلاق النار وتولت الكتائب الحصول على موافقة بقية قيادات الجبهة ليكون الاتفاق رقم ٥٣ على وقف اطلاق النار وفتح الطريق نحو المصالحة.

وكان هناك اتجاه ثالث هو ضرورة عقد مؤتمر قمة عربي، خاصة وأنه لم يعقد مؤتمر قمة بعد الرباط الذي تم الاتفاق فيه على اعتبار منظمة التحرير هي المتحدث الشرعي الوحيد عن الفلسطينيين. ولكن الخلافات بين مصر وسوريا كانت أكبر عقبات عقد مثل هذا المؤتمر.

والاتجاه الرابع والأخير هو عقد مؤتمر قمة محدود. واختلفت الآراء حوله فرأى يرى أن يكون المؤتمر رباعيا - سوريا - وآخر يرى أنه سداسي - مصر - وأمام إصرار مصر على موقفها اقترحت سوريا أن يكون المؤتمر سباعي يضم الأردن إلى الدول الست وهي مصر وسوريا والسعودية والكويت ولبنان ومنظمة التحرير. والمسألة لم تكن لعبة أرقام ولكنها تعبير عن حساب القوى. فسوريا كانت تريد تغيير قيادة منظمة التحرير وكانت ترشح رجلها زهير محسن مكان ياسر عرفات. وهو موقف يتفق ورأي الملك حسين. وكان ملك الأردن قد أدلى بحديث (٣٦) قال فيه إنه حتى لو نجحت سوريا في تطويع منظمة التحرير في لبنان فإن المنظمة قد فقدت الثقة فيها لأنها تورطت -!- في الشئون العربية الداخلية وهي سياستها التي أدت إلى الحرب الأهلية في الأردن ١٩٧٠ -!- وحرب لبنان الحالية. ولذلك فإن أي مصالحة

لابد أن تحمل فى طياتها تغييرا فى قيادة منظمة التحرير. وهو مايجب أن يتم عن طريق إجراءات سوريا بلبنان. وحسمت السعودية الأمر بالدعوة إلى مؤتمر القمة السداسى بالرياض فى ١٦ اكتوبر.

وكان نص بيان السعودية « بعد اتصالات مكثفة واستجابة لرغبة الدول العربية الشقيقة لعقد مؤتمر قمة سداسى عربى فى الرياض تحضره كل من مصر وسوريا وفلسطين والكويت والمملكة العربية السعودية للنظر فى الوضع المتردى الخطير فى لبنان، فقد رحبت المملكة العربية السعودية بهذا اللقاء واستجابة لذلك تقرر الاجتماع بمدينة الرياض يوم السبت » .

وكان قد سبق البيان السعودى اتصالات مكثفة قام بها الأمير فهد مع دمشق والقاهرة وبيروت، إلى جانب اتصالات مماثلة قامت بها الكويت.

وكانت هناك عدة آراء حول تحديد موعد المؤتمر. فالاجماع أن المؤتمر لو كان قد عقد قبل عام من موعده لنجح فى إنهاء صراع الديوك ولكن الصحافة العالمية قد تبنت لها موقفين:

أن التوقيت كان بالغ الدقة حسبته السعودية جيدا. فسوريا لم تكن قادرة على التقدم بل إن كل يوم كان يمر أصبحا يمثلا خطرا على النظام. والحركة الوطنية منهكة من طول الحرب، وجبهة لبنان تخاف احتمالات تغيير النظام السورى وتريد تعويض خسائرها الاقتصادية والفلسطينيون خاب أملهم فى الجميع فأصبح طلبهم أكثر تواضعا وسلوكهم مرهون بالإرادة السورية. كما أنه يسبق مؤتمر القمة العربى المحدد له أواخر أكتوبر.

ورأى آخر بأن التوقيت جاء بعد أن رأت الولايات المتحدة أن الحرب اللبنانية قد حققت كل أهدافها التى أرادتها منها مع أنها طالت أكثر مما توقعت واشنطن.

وبالرجوع إلى أكثر من سفير أمريكى فى عاصمة عربية أجمع الكل على إنكار معرفتهم بذلك وأن كان لم يقطع أحدهم نفيا لتدخل أمريكى بطلب إنهاء الحرب ويشيرون إلى أن الأسد اشتكى لكارتر من الدور السعودى المعاكس للوجود السورى فى لبنان وأن الأسد اقترح حل مشكلة الفلسطينيين عن طريق اتحاد كونفدرالى بين سوريا والاردن والفلسطينيين ويمكن ضم لبنان له . وأن الشيء المؤكد طبقا لرأى قيادات لبنان أن كارتر طلب من الأسد البقاء فى سوريا وأن يترك له مسألة السعودية .

وايا كان التفسير حول التوقيت فان مجلة تايم الأمريكية تقول (٣٧) إن ست قيادات عربية هى التى ارتبطت بحرب لبنان دعيت والأقرب إلى الصحة أمرت بالحضور من ملك السعودية . وتقول المجلة إن أول مشكلة واجهت المؤتمر لم تكن هى الحرب الأهلية فى لبنان ولكنها كانت الخلاف بين مصر وسوريا . وكانت يوم المؤتمر مصر تقف مع المقاومة بينما سوريا تحاربهم . وكان المطروح على المائدة هو أن تتوقف دعاية سوريا عن الهجوم على النظام فى مصر بسبب اتفاق سيناء وفى المقابل توافق مصر على حق دمشق فى « السيطرة » فى لبنان . وانتهت المجلة إلى أن الاتفاق فى الرياض كما أنه كان انتصار للأسد كان أفضل هزيمة لعرفات ، فقد وافق المؤتمر على عدم تغيير قيادة المنظمة .

وتقرر صحيفة بريطانية (٣٨) أن مهندس هذا الحل الوسط كان هو الأمير فهد ولى عهد السعودية .

وأهم انجازات المؤتمر غير ذلك هى فكرة تحويل قوات الأمن العربية إلى قوات عربية تتألف من ٣٠ ألف مقاتل عمادها القوات السورية التى كانت وقتها فى لبنان ٢١ الف جندى هذا إلى جانب الكتيبة السعودية والأخرى السودانية . وترك الباب مفتوحا للدول العربية . والتغيير الهام هو انتقال قيادة هذه القوات من

للجامعة العربية إلى الرئيس اللبنانى سركيس بناء على طلب سوريا وسلمت قيادتها لضابط لبنانى كان يعيش فى سوريا منذ أعوام فى مخابراتها وقدرت تكاليف هذه القوات بمبلغ ٩٠ ألف دولار تعهدت السعودية والكويت على دفع النصيب الأكبر وقد قرر مؤتمر الرياض إنهاء القتال فى لبنان نهائيا وحدد لذلك موعدا فى السادسة من صباح يوم ٢١ أكتوبر وعودة لبنان إلى ماكانت عليه قبل ١٣ إبريل سنة١٩٧٥(٣٩).

وقد عقد وزراء الخارجية العرب مؤتمرا لهم بالقاهرة- ٢٠ اكتوبر- فى غياب وزير خارجية ليبيا والعراق للإعداد لمؤتمر قمة عربى الذى عقد فى ٢٥ اكتوبر. وقرر المؤتمر التصديق على قرارات مؤتمر الرياض. ووافق المؤتمر على تشكيل لجنة من ممثلى السعودية والكويت ومصر وسوريا تقوم بالتنسيق مع الرئيس اللبنانى لتنفيذ اتفاق القاهرة بين المقاومة ولبنان. وقد اقترح ياسر عرفات ضم ممثل عن الجامعة العربية إلى اللجنة. وكان رد حافظ الأسد أن اللجنة تمثل الجامعة العربية لأن دولها أعضاء فيها-!- فلا داعى أن يضاف ممثل عن الجامعة. وبعد جدل طلب ياسر عرفات تسجيل اقتراحه فى محضر الجلسة (٤٠)، ليكون وثيقة على الاتجاه الذى وضع فى الرياض وتأصل فى القاهرة باستبعاد الجامعة العربية من أحداث لبنان وهو الموقف السورى طوال الأحداث إلى درجة أن كامل الأسعد رئيس مجلس النواب اللبنانى اقترح أن تعلن الجامعة العربية عجزها عن حل مشكلة لبنان وتترك الأمر للأقدر على تحملها..!

وقرر المؤتمر إنشاء صندوق للانفاق على متطلبات قوات الردع ومساهمة الدول فيه بنسبة مئوية تحددها كل دولة حسب طاقاتها. ويشرف رئيس جمهورية لبنان على الصندوق. واتفق على أن تدفع كل من السعودية والكويت ٢٠٪ من النفقات ودولة الامارات ١٥٪ وقطر ١٠٪ أى أن العرب سوف ينفقون على

القوات السورية - ٩٠٪ من قوات الردع - في لبنان . وقد حاول ياسر عرفات بدون فائدة إقناع مصر والكويت بالإشتراك في قوات الردع ضمانا للفلسطينيين والحركة الوطنية ولكن مصر رفضت بإصرار بحجة لأنها قررت عدم خروج قواتها إلا من أجل تحرير الأرض . وربحت سوريا فقط بالاتفاق على قواتها في لبنان بل وعدم إتخاذ المؤتمر قرار بسحب قواتها من لبنان ، كما لم يحدد بالضبط نسبة إشتراكها في قوات الردع . وأعطى وجودها في لبنان شرعية عربية قال عنها مصدر مسئول في التجمع الإسلامي - ٢٧ أكتوبر - إن الحرج الذى كان يواجه الزعماء المسلمين للوجود العسكرى السورى في لبنان قد زال بعد المؤتمر لأن الملوك والرؤساء العرب قد سكتوا عند بعد أن عارضوه من قبل . وأخذو على وضع قوة الردع بإمرة الرئيس اللبناني وحده من دون رئيس الوزراء وهو مايخل بقاعدة المشاركة السائدة في لبنان([41]) .

ويضاف إلى ذلك أن الظروف وقفت مع سوريا عند تشكيل قوات الردع فإلى جانب رفض مصر والكويت رفضت دول المغرب العربي وقطر واليمن الجنوبية الاشتراك فيها . واستبعدت ليبيا والجزائر والعراق والأردن بسبب التحفظات عليها وهكذا أصبحت قوات الردع مكونة من سوريا والسعودية والسودان واليمن الشمالية والامارات . وقوات سوريا من ٣٠ ألف هي قوام القوات ٢٢ الف جندى .

والغريب أن مسألة جنوب لبنان لم يفكر فيها أحد ولاحظ الأمان الذى يجب ألا تتجاوزه قوات سوريا وبالتالى قوات الردع الذى تم الاتفاق عليه مع إسرائيل عن طريق واشنطن .

وهكذا صدر الفرمان العربى بانهاء القتال فانتهى بعد ١٩ شهرا ، وخرج الديوك من الساحة والدماء تنزف منهم جميعا ، والساحة تحولت إلى خراب .. والمشكلة الأصلية مازالت قائمة وزادت عليها عناصر هى أخرى تراث صراع الديوك الدموى .

هوامش الفصل الثامن

(١) وصف المبعوث الأمريكي للصراع العربي على أرض لبنان . وهو صراع محرم القانون في مصر لبشاعته حيث يدخل الديك المندى الصراع قاتلا أو مقتولا وقد ينتهي بموت الديكين المتصارعين باعتبار أن الديك بلا عقل و يضرب حيث يمكنه أن يصل في أي مكان وكل مكان من جسم الخصم!

(٢) نواف عبد الله . حول الأزمة اللبنانية . شئون فلسطينية العدد رقم ٥٧ ص ٩٢

(٣) أخبار اليوم- القاهرة- ١٣ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٤) جريدة الأخبار- القاهرة- ١٤ سبتمبر ١٩٧٥

(٥) جريدة الأخبار- القاهرة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٥

(٦) جريدة الأخبار- الأهرام ٢٦ - ٢٨ سبتمبر ١٩٧٥

(٧) Sampson. A. The Atms Bazuar. London. 1977. p 22

(٨) New York Times. 22 Nov. 1975

(٩) جريدة العمل . بيروت . ٢٩ يونيو ١٩٧٧ .

(١٠) ١٣ أبريل سنة ١٩٧٥ .

(١١) الكتاب الأبيض اللبناني . بيروت ١٩٧٦ ص ١١

(١٢) أخبار اليوم- ٢٨ أغسطس سنة ١٩٧٦ .

(١٣) مجلة الحوادث . بيروت . ١٩ مارس سنة ١٩٧٩ .

(١٤) المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية . جـ٢ ص ١٠٣٦ .

(١٥) ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٥

(١٦) التقرير في ٢٧ مايو سنة ١٩٧٥ وهي ليست سفارة العراق أو مصر .

(١٧) جريدة السفير ٢٢ يونيو سنة ١٩٧٥ .

(١٨) جمعية البعث- دمشق- ٢ يوليو ١٩٨٥

(١٩) يوميات الحرب اللبنانية- ج١ ص ٨٥ والتصريح في يوم ٢٥ يونيو

(٢٠) التنظيم أصبح يتحدث بلسان سوريا حتى صورة عبد الناصر وضع مكانها صورة حافظ الأسد .

(٢١) الكتاب الأبيض اللبناني ص ٤٩ - ٥٠

(٢٢) ملاحق الكتاب من رقم ٨- ١٤

(٢٣) The Economist. 17 April 1976. p 43

(٢٤) Washington Star. 12 April 1976

(٢٥) the Herald Tribune. 21 jule 1976

(٢٦) مرجع سابق، ص ٢٢

(٢٧) مجلة الصياد- ١٧ مارس ١٩٧٧.

(٢٨) حديث ياسر عبد ربه رئيس الدائرة الأعلامية فى منظمة التحرير- السياسة الكويت ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٦.

(٢٩) مجلة ميدل ايست البريطانية عدد مايو ٧٧ ترجمة جريدة الجرائد العالمية. وزارة الإعلام- القاهرة فى ١٠ مايو.

(٣٠) يوميات الحرب اللبنانية- الجزء الثانى ص ١٠٠- ٢٩٠.

(٣١) the Economist 25 Dec. 1976. p. 39

(٣٢) على حسين خلف: النهوض مرة أخرى- شهادات واقعية من تل الزعتر. الإعلام المركزى للجبهة الديمقراطية. بيروت ١٩٧٧.

(٣٣) نص الرسالة. الكتاب الأبيض اللبنانى ص ٥٧

(٣٤) بعث فرنجيه خطاب شكر إلى الأسد على ماقام به من أجله. ونص الرسالة فى الكتاب الأبيض اللبنانى ص ١٤٥.

(٣٥) تقرير حول قوات الأمن العربية فى لبنان. شئون فلسطينية رقم ٦٢- ص ٢٤٣؛

(٣٦) The Financial Times 4 August 1976

(٣٧) Time. 1 Nou. 1976. p. 19

(٣٨) The Financial Times. 20 acto. 1976

(٣٩) نص قرارات المؤتمر فى آخر ملاحق الكتاب رقم ١٥

(٤٠) مجلة أكتوبر. القاهرة. العدد الأول فى ٣١ أكتوبر سنة ٧٦: ص ٢٦:

(٤١) تقرير عن قوات الردع العربية. شئون فلسطينية رقم ٦٣. ص ٢١٦.

الختـــام

الغــد المفـقود

انتهت الحرب بفرمان عربى ولكن الأزمة بقيت بكل أصولها وعناصرها وانتهاء الحرب فى حد ذاته يتيح الفرصة ليس فقط لالتقاط الأنفاس ولكنه أيضا يتيح للقواعد الجماهيرية أن تعيد النظر فيا استخدمت فيه . ولعل هذا يفسر إصرار كل من كميل شمعون وبير الجميّل على التصريحات الحماسية والاحتفالات بذكرى الشهداء ـ !ـ ومؤكد أن فى كل يوم ذكرى مئات الشهداء . فالكل يخاف من لحظة إدراك الجماهير للحقيقة ، فبعدها سيكون الحساب . وهو بلاشك سيكون عسيرا . فقائمة الخسائر هائلة الضخامة بينما المكاسب تكاد لا تشمل غير سطور معدودة إلا مكاسب عدد من تجار الموت .

وأول الحقائق التى يجب أن تكون فى الذاكرة قبل إلقاء نظرة على حساب الأرباح والخسائر هى أن مأساة لبنان مهما كانت مسئوليته الأطراف الدولية

والعربية فيها إبتداء من التخطيط وانتهاء بالتمويل والتدريب فهي لايجب أن تغطى على الحقيقة الكبرى ؛ أن الجريمة تمت بأيدٍ لبنانية . فحرب تستمر بين أبناء وطن واحد حوالى ١٩ شهرا لايبررها تآمر هذه الدولة أو خيبة أخرى إلا إذا سلّمنا على الإطلاق أن اللبنانيين أجساد بلا عقول أو بعقول تستمد حركتها من مفاتيح كهربائية موجودة فى أيدى عابثين بخارج لبنان مثل الرجل الآلى الذى يتحرك بأوامر قائده وهو مالا أظنه ولاأحد فى لبنان يرضاه . فاللبنانيون قاموا بإرادتهم أو بإرادة مسلوبة بذبح أنفسهم . وقد يكون للكتائب نصيب أكبر أو أقل فى المأساة فذلك لايغيّر من الحقيقة . وقد يقال إن قيادات الموارنة كشفت عن نفسها بمثل مالم يحدث من قبل ولكن هذا أيضا لايغير من واقع أدوار كل فرد فى لبنان فى « صراع الديوك وحوار الطرشان »

والواقع أن خسائر مأساة لبنان الاقتصادية رغم فداحتها هى أخف الأضرار على الاطلاق . ويكفى أن تعرف حجم أخف الأضرار : فى دراسة قدمت إلى جمعية الصناعيين اللبنانيين ونشرت (١) تقول إن خسائر القطاع الصناعى قد بلغت ٧٠٠ مليون ليرة فى رأس المال الصناعى فقط . يرتفع الرقم إلى ٢٫٩٧ مليار ليرة على مستوى القطاع كله خسائر مباشرة وغير مباشرة . وذلك بحساب أن خسائر رؤوس الأموال الموظفة فى الصناعة كانت حوالى ٣٠ ٪ بينما كانت نسبة انخفاض الإنتاج فى السنة الأولى للحرب حوالى ٢٥ ٪ ارتفعت إلى ٨٠ ٪ فى العام التالى ، حيث عام سنة ١٩٧٥ لم يكن الموقف الدرامى فى الحرب قد وصل ذروته . وتقدير خسائر قطاع الاستيراد وهو عصب الاقتصاد اللبنانى بلغت ٥٫٣٥ مليار ليرة منها ١٫١٥ مليار فى العام الأول أى أن الخسائر فى قطاعين فقط بلغت أكثر من ٨ مليار ليرة كما أن عملة لبنان انخفضت فعليا بنسبة حوالى ٢٥ ٪ من قيمتها هذا ولم تقدر الخسائر فى المحلات التجارية والمساكن . والأكثر خطرا من أرقام الخسائر

الاقتصادية هى أن الاقتصاد اللبنانى فقد ثقة كسبها خلال سنوات طويلة من العمل . وهو مايصعب استعادته على الأقل فى هذا الجيل . و يكفى تصويرا لحجم الثقة الضائعة أن رئيس جمعية المصارف فى لبنان ـ جوزيف جعجع ـ قال إن لدى البنوك اللبنانية مايزيد عن ٥ر١ مليار ليرة ودائع غير مستخدمة ـ وأكد أنه لايمكن استثمارها فى اقتصاد لبنان لعدم الثقة فى المستقبل . ولما سمع سركيس رئيس الجمهورية ، هذا القول وهو رئيس البنك المركزى السابق تساءل كيف نطلب من العرب استثمار أموالهم هنا ونحن لانثق فى وضعنا ..!

فثقة اللبنانيين أنفسهم ضاعت ليس فقط فى الاقتصاد بل وفى شكل كيان الدولة التى ظل البعض يتغنى بها ولها . فى استفتاء قامت به أحدى هيئات لبنان ظهر أن ٩٥٪ لايوافقون على صيغة الحكم فى لبنان بينما ٥٪ فقط مع استمرار شكل الكيان البنانى (٢) . والواضح طبعا أن هذه النسبة الضئيلة هى شريحة المستفيدين من نهر الدم اللبنانى .

وظهر أثر ذلك كله فى تيار الهجرة المستمر بعد انتهاء الحرب . فالهجرة أثناء الحرب مفهومة وإن كانت للأمانة لم تشمل غير الأغنياء الذين كانوا يعيشون فى رخاء بباريس والقاهرة وعمّان . وكان بين هؤلاء بل وفى مقدمتهم الفنانون الذين كانوا يتغنّون بلبنان من أفخم فنادق القاهرة وعمّان . ليس هذا ماأقصده ولكن الهجرة التى أتحدث عنها هى هجرة الكفاءات وهى هجرة بلا عودة وقد قدرت حتى الآن بحوالى ٣٥٠ ألف شخص من تخصصات يحتاج إليها لبنان اليوم أكثر مما كان فى حاجة إليها بالأمس مثل الأطباء والمهندسين . هذا إلى جانب أنهم استثمار لبنانى ضائع .

هذه هى ملامح بعض الخسائر فى اقصاد لبنان . وهى كما قلت أضعف الأضرار باعتبار أن تعويضها ممكن مهما طال الزمن ، خاصة وأنه يمكن الرجوع إلى الدول التى اشتركت فى التسليح والتدريب والتمويل لتدفع ثمن إعادة البناء .

والخسارة البشعة هي خسارة البشر، حيث تقدر الدوائر الرسمية القتلى بحوالي ٢٥ ألف المسجلين في المستشفيات ومراكز الأمن بينما تصل أكثر التقديرات قربا من الحقيقة إلى ضعف هذا الرقم أي ٥٠ ألفا، وبينما الجرحى والمشوهين حوالي ١٥٠ ألف شخص.

وتقدر دراسة مبدئية لمصلحة الإنعاش الاجتماعي عدد الأطفال الذين في حاجة إلى رعاية عاجلة بحوالي ٤٠٠ ألف طفل منهم ٢٥٠ الف يتيم فقد أحد الأبوين أو كليهما معا. وهي من أعلى نسب الخسائر البشرية في أي حرب للأمه العربية وكلهم من فقراء لبنان.

وكانت الخسارة الوحيدة بين قيادات لبنان هي اغتيال زعيم الحركة الوطنية كمال جنبلاط في ١٦ مارس سنة ١٩٧٧ أي بعد انتهاء الحرب أو على الأقل بعد وقف إطلاق النار بخمسة أشهر وفي ظل وجود ٣٠ ألف جندي هم قوات الردع العربية وأغلبيتهم الساحقة كما هو معروف قوات سورية. وعناصر الجريمة هي أن سيارة القتلة عليها لوحة أرقام عراقية وموقع الجريمة على بعد مئات الأمتار من قرية دير القمر مسقط رأس كميل شمعون وعلى بعد كيلومتر واحد من مركز مراقبة لقوات الردع «السورية». وطبعا من المستحيل أن تكون العراق هي التي دبرت الحادث لأنها كانت إحدى دولتين فقط في العالم العربي تقدم الدعم لكمال جنبلاط. كما أن موته يعتبر خسارة لها باعتباره أقوى معارض للغزو السوري وهي على عداء مع سوريا. ثم لو كانت سذاجتها تصل إلى استعمال سيارة بأرقام عراقية. فالخدعة مكشوفة وخاصة وأن مسألة لوحة الأرقام مسألة سهلة بعد سرقة آلاف السيارات من بيروت ونقلها إلى دمشق. كما أن وقوع الحادث على بعد أمتار من مسقط رأس كميل شمعون خدعة أخرى كشفها الشعب اللبناني فور وقوع الحادث، ليس دفاعا عن كميل شمعون أو أنه لا يرتكب جريمة قتل ولكن المسألة

حساب وحركة . وهناك تقليد بين قيادات لبنان التزم به الكل حتى فى أزمة سنة ١٩٥٨ . هو ألا يمتد العبث إلى رؤوس القيادات وإلا فتح الباب على مصراعيه لثأر وراء ثأر فى سلسلة لن تنتهى إلا بنهاية الزعماء ، كما أن كميل شمعون رغم أى رأى فيه فهو واحد من أذكى شخصيات لبنان فهو لايكسر تقليداً دون مبرر وليس هناك جديد بعد ماانتهت الحرب بل إن لكمال جنبلاط عليه فضل وجميل يوم أنقذت حياة شمعون من حصار الدامور وكان يمكن قتله ببساطة ولكن جنبلاط كان يرى اللعبة اللبنانية جيدا . وكان من أقوى الأصوات التى ساعدت على إنقاذ حياة شمعون . بل المسألة ليست شمعون وجنبلاط ولكنها أعمق من ذلك فقيادة جبهة لبنان ليس من مصلحتها قتل جنبلاط الذى يعتبر فى نظرهم الزعيم اليسارى الوحيد الذى يمكنهم التفاهم معه وموته يجعل الطريق مع اليسار اللبنانى مقطوعاً أو عليهم قبول قيادات ترفض الجبهه التعامل معها . وكان وجود جنبلاط يمنع مثل هذه المشاكل بما له من ثقل أدبى فى الحركة السياسية البنانية . كما أن الكل فى لبنان يعرف أن الجريمة لو كان قد ارتكبها تنظيم أو حزب أو هناك شبهة مشاركة إحدى قوى لبنان فيها لاشتعلت الأحداث تصفية لثأر كمال جنبلاط ، ولكن الكل فى لبنان عرف أن الحادث دبر ونفذ بأيد غير لبنانية .. هذا وحده كان من أكبر عوامل ضبط النفس التى أعقبت الجريمة . وقد يتصور البعض الإشارة إلى عناصر غير لبنانية أنها ربما كانت إسرائيل ، ولكن المنطق يقول إن ارتكاب الجريمة لابد أن يكون له دافع ، ونظرة على ماتريده إسرائيل من مذبحة لبنان تكفى لتوضيح أن إسرائيل ليست طرفا فى لعبة الحكم فى لبنان . وكل ماتسعى إليه هو استمرار النزيف العربى . وقتل كمال جنبلاط لايحقق لها أياً من أهدافها بل لعل بقاء كمال جنبلاط أقوى معارض للوجود السورى فى لبنان أمر أكثر فائدة لسياسة إسرائيل . ونفس المنطق ينطبق على الوضع الأمريكى .

والحقيقة أن أكثر من استفاد من موت كمال جنبلاط كانت سوريا . فقد قتل

خصمها العنيد . وبطل معركة الجبل وصاحب دعوى التصدى للغزو السورى هذا إلى جانب أن موته يجعل اليسار اللبنانى مبعثرا بعد أن كان جبهة تثير المتاعب فى وجه سوريا وأدواتها المزيلة من الصاعقة إلى البعث إلى الأسديين « الناصريين سابقا » . وبالتالى يجعل كلمة اليسار فى يد سوريا أو تحت السيطرة السورية .

ولعل هذه الحقائق كانت سببا فى أن كل قيادات لبنان السياسية والصحفية والعلمية أجمعت فى إجاباتها معى أن سوريا هى التى قتلت كمال جنبلاط . وأن أحدا لم يستطع أن يقدم سوى الشواهد مثل أن سوريا منذ دخلت لبنان تقوم يوميا بعملية تصفيات جسدية لخصومها على ساحة لبنان . وأنه هناك حدود ينتهى عندها تمادى الدور السورى . فاستقراء الأحداث يشير إلى أن البئر سحيقة بلا قاع . ولعل الانتهاء إلى هذه الحقيقة مسألة خطيرة وخاصة وأنها دون وثائق وسوريا تنفى ذلك نفيا قاطعا ، وخاصة وأن الأيام كشفت أن الجريمة كانت غبية لأنها أزالت أكبر قيادة يمكن أن تتصدى لجبهة لبنان بعد أن ظهر الخلاف بينها وبين سوريا .

وتبقى الحقيقة معلقة مع الأيام إلى أن يجد الذين يملكون الوثائق لديهم شجاعة الكلمة واحترام التاريخ فيخرج كل منهم إلى النور ما فى خزائنه من أوراق تكشف عن هوية القاتل الذى امتدت يده بغباء لتطلق الرصاص على أكثر زعامات لبنان قدرة على ضبط إيقاع حركة اللعبة اللبنانية وأكثر قيادات لبنان ارتباطا بآمال الأمة العربية . وأضيف دم كمال جنبلاط إلى قائمة الخسائر .

والمصيبة أن موت كمال جنبلاط زاد من مسافة البعد التى وقعت بين الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية . فهو وحده كان قادرا على احتواء سلبيات المأساة بنظرة موضوعية صادقة فحرام أن يحمل كل طرف من جبهة الحركة الوطنية الفلسطينية للآخر أخطاء ما كان يمكن تجنبها وكل منها يحمل نصيبا فيها .

فالأمر الذى لايمكن إنكاره أن الحركة الوطنية اللبنانية وقعت فى أخطاء ماكان يجب أن تقع فيها وتحملها بعد ذلك للمقاومة الفلسطينية .

فهى رغم التأكد من استعداد الكتائب لتصفية دموية لم تحاول إنشاء ميلشيات خاصة بها حتى ولو بمجرد تدريب كوادر مسلحة يمكن بتوزيع السلاح عليها أن تتحرك فور تلقى الأوامر بل العكس صحيح كانت قيادات الحركة الوطنية تصرخ ليل نهار عن صفقات الأسلحة التى تصل الموارنة والمرتزقة الذين يدربون كوادرهم ومعسكرات التهريب التى كانت تتزايد يوما بعد آخر طوال سنة ١٩٧٤ . وقد افترضت الحركة الوطنية خطأ أن قواتها هى قوة الثورة الفلسطينية . وهو خطأ فادح ماكان يجب الوقوع فيه بل كان يجب مقاومة هذه الفكرة لإبعاد المقاومة عن الوقوع فى المصيدة بسهولة حتى لو أرادت . وكان يكفى أن تبقى رصيد دعم وليست القوة الضاربة للحركة الوطنية .

ووقعت الحركة الوطنية فى خطأ آخر هو الخلط بين التوافق والتطابق فتصورت أن هناك تطابقاً بين رؤيتها وأسلوبها ورؤية الثورة الفلسطينية وأسلوبها بينما الحقيقة أن هناك مجرد توافق . وما كان يجب تحميل الثورة الفلسطينية بأكثر من عبء السياسات العربية المتناقض معها . فالثورة الفلسطينية تعيش فى ظل وفاق خاص صنعته بمهارة أحيانا ، وبتنازلات أحيانا أخرى . فهى فى النهاية مشدودة إلى تحرير الأرض من احتلال استيطانى لوطنها فلسطين . وهو مايجعلها تختلف فى لحظة معينة وفى ظروف معينة مع أى حركة وطنية عربية أخرى . وهو ماحدث طبعا فى لبنان وخاصة فى معركة الجبل التى كانت فى الأساس ضمن إطار لبنانى فى الأساس وفى عملية انتخاب الرئيس سركيس . فلم يكن معقولا أن تقف المقاومة وراء ريمون إده أكثر قيادات الموارنة عداء للوجود الفلسطينى على أرض لبنان لمجرد أنه يقف ضد الكتائب أو الأحرار خلال الحرب . فالتحالف التكتيكى ماكان يمكن أن يخفى استراتيجية العمل .

والخطأ الثالث للحركة الوطنية هو تصور أن السياسة العربية لها حد أدنى لايمكن تجاوزه . والواقع دائما يقول إن هذا الخط الأحمر غير موجود لدرجة أن المنطقة العربية عرفت فى العالم أنها بلا منطق . فقد تصورت الحركة الوطنية أنها يمكن أن تستفيد من الخلافات العربية وتعتمد على طرف ضد آخر فإذا بها تكتشف بعد فوات الأوان أن الكل فى سلة واحدة . وتصورت أن العرب فى النهاية لابد أن يقفوا معها لأنها تريد لبنان عربيا بينما قيادات الموارنة تريده أجنبيا على أرض عربية . فإذا بالعرب مع جبهة الموارنة فى الواقع ومعها بالبيانات والكلمات . وتصورت أن وجود إسرائيل يمنع أى طرف عربى من حركة عسكرية غير محسوبة فإذا بتنسيق عربى إسرائيلي من خلال السفارات الأمريكية . وهو مالم يكن فى قدرتها حساب تصوره انطلاقا من أساس خاطىء أن هناك حداً أدنى لا يمكن للقيادات العربية أن تتجاوزه .

والغريب ان الحركة الوطنية ترددت فى حسم مواقف كانت قادرة لحظتها فى حسمها بقوة السلاح ، ولكنها مثل عادة اليسار العربى عامة أخذت تحسب وتحسب حتى ضاعت الفرصة ، وكانت استعادتها باهظة الثمن مثل إمكانية بل سيطرة « المرابطون » على حى الفنادق والبنوك فى بداية الحرب ولكن لحسابات قبل المرابطون الانسحاب فاحتلتها الكتائب إلى أن سقطت مرة أخرى بعد معارك بالغة الوحشية وباهظة فى الأرواح والعتاد والوقت .

وعلى الطرف الآخر من جبهة التحالف الوطنى نجد أن الثورة الفلسطينية هى أيضا ارتكبت أخطاء ما كان يجب أن تقع فيها . . . .

فهى وعدت الحركة الوطنية بما كانت تعرف بالقطع أنها لا تريد الوفاء به مثل مسألة انتخاب سركيس ، وترشيح ريمون إده منافسا له . فكان لابد أن يكون الحليف على بيّنة من الاتفاق السرى الذى تم بين الثورة ودمشق أو على الأقل بالنتيجة فقط دون تفاصيل .

وأخطأت الثورة فى أنها نسيت طوال أشهر الحرب أن تقوم ولو بعملية فدائية واحدة داخل الأراضى المحتلة لتؤكد أن هدفها مازال أمام عينيها وهو العدو الصهيونى حتى المنظمات المتطرفة هى الأخرى نسيت ذلك ، ولو كانت فعلت لكسبت كثيرا على الساحة الفلسطينية . وهو ما كان يعطى قوة لليسار الفسلطينى بدلا من أن يضرب مثلا حدث حتى فى دأخل فتح .

وليس معنى ذلك أن الأخطاء كانت قاصرة على الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية بل امتدت إلى جبهة الموارنة . وأكبر أخطاء الجبهة أنها كانت ضحية أوهامها الذاتية فهى أرادت أن تحقق لغيرها هدف تصفية الثورة الفلسطينية أو على الأقل تطويعها فرفعت شعار « السيادة » بدعوى أن الوجود الفلسطينى المسلح اعتداء على سيادة لبنان فإذا بها فى النهاية تسلم لبنان « دولة محمية » بلا سيادة .

والخطأ الآخر أن جبهة الموارنة برغم عدد المتعلمين لديها فإنها حسبت المتغيرات الدولية بغباء شديد ورسمت حركتها اعتمادا على أن الأسطول السادس أو جيش إسرائيل سوف يدخل لنجدتها فى لحظة الخطر . وبدأت تطرق الأبواب وتسمع نصيحة الكل دعمها من دمشق وكانت النتيجة أن أصبحت تحت وصاية عربية بعد أن أنقذتها قوات سوريا من الهزيمة الساحقة وجعلتها فى صورة المهزوم المنتصر .. !

وبالتالى أصبح على قيادات الموارنة أن تعلن فى كل يوم لقواعدها أن الوجود العربى وبالتحديد السورى محدود وسوف يخرج فور أن يطلب لبنان .. ! .. وما أن تحركت قيادات الجبهة من تصور أنها فعلا منتصرة حتى تحركت وحدات سورية فى الظلام بمهمات أسكتت الأصوات الصارخة وجعلتها همسا وراء الجدران التى هدمتها الدبابات .. !

وظهر خطأ ماتعلنه جبهة الموارنة تحت شعار « مالنا .. لنا وحدنا ، ومالكم لنا

ولكم » فهي مازالت تتحرك بحسابات ذاتية دون أى رؤ ية شمولية للمتغيرات والثوابت . فهم يرددون شعارات دون إدراك مدى قدرتهم على الوفاء بها ومدى ماتسببه هذه الشعارات من إحراج للقوى التى تقف خلفهم مثل شعار« على كل لبنانى أن يقتل فلسطينى » وشعار أحد الأساقفه « كل من يقتل فلسطينيا أعطيه براءة دخول إلى السماء » (٣) . وهى مازالت تتحرك فى حماية قوات الردع العربية . ولعل أنجح ماقامت به منظمة التحرير منذ وقف القتال هى جمع تصريحات قيادات جبهة الموازنة عن إبادة الفلسطينيين منذ انتهاء مؤتمر الرياض فى كتاب (٤) لعل فى الأمة العربية من يقرأ و يفهم - ! - مافيه ليعرف نوعية القوة التى وقفت بعض الحكومات العربية معها .

كما أن جبهة لبنان لا تريد أن تصدق أنها تعيش على أرض عربية وأنها ليست ممثلة المسيحيين بل هى مجرد طائفة منهم وأن اللعب بالدين خطر على مصالحها أكثر مما هو خطر على المنطقة كلها . وبالتالى فشعار« اجعلوها طائفية حتى لا تكون طبقية » هو لعب بالمتفجرات و واضح آثار ذلك على اقتصاد لبنان ومصالح الطبقة التى تعيش قيادات الجبهة على وجودها .

والغريب أن الصوت المسموع فى العالم العربى يزدد رفض تقسيم لبنان . أما الهمس والسلوك فهو يمضى مع التقسيم . فنجد مثلا أن كميل شمعون العائد من دمشق ١٩٧٧ - يعلن أن سوريا وافقت على إرسال قوى أمن إلى الجنوب وعن مبادئ عامة للتعاون الاقتصادى والأمنى (٥) ، بينما بيير الجميل العائد من السعودية يعلن أن التصور السعودى للحل فى لبنان هو بوليس دولى على الحدود مع إسرائيل (٦) ، والذى يحيرنى هو باسم من يتحدث كميل شمعون مع سوريا أو بيير الجميل مع السعودية ، أى لبنان هذا - ! - ثم أليست هناك حكومة شرعية تناقش معها هذه القضايا القومية .... !

إن جريمة الحكومات العربية هي أنها من منطلقات ذاتيه وفي غياب استراتيجية عربية واحدة رأت أن تحقق مصالحها دون تصوّر مدى الدمار الذى تلحقه بسلوكها بالاستراتيجية العامة حتى التى رسمتها لنفسها إن كانت لها استراتيجية . وقد وضح ذلك بجلاء حين وقع نوع من الخلاف بين السعودية وسوريا فتوقفت السعودية عن دفع نفقات القوات السورية في لبنان ، عذرا اقصد قوات الردع العربية ، ثم عادت ودفعت ولكن بعد حين . فقد قدمت قيادة الردع تقريرا لمجلس الجامعة كشف عن عجز مالى .. بلغ ١١٤ مليون دولار (٧) كما وضح خطأ الوقوع فريسة الحسابات الذاتية الضيقه في مسألة الجنوب حيث كان الهدف مركزا حول الحد من قوة المقاومة فانتهى الامر إلى اتفاق مع إسرائيل على خط الأمان داخل لبنان وأصبح الجنوب تحت السيادة الفعلية لا سرائيل . ثم أصبحت القوات السورية وجبة شهية على مائدة إسرائيل تلتهمها وقت تشاء وتشعل المنطقة كلها بسهولة و يسر فهى تضع الجنوب اللبنانى رهينة وتخلق القنوات معه من خلال سياسة « الجسور المفتوحة » الأردنية فإن أرادت تحويلها إلى جبهة مفتوحة فالأمر سهل وليس الهدف هو احتلال الجنوب ولكن السينار يو المطروح هو أن تكمل إسرائيل ما انتهت عنده سوريا من الإنهاء على منظمة التحرير وتهديد النظام السورى نفسه . وفي جنيف تسلّم إسرائيل الجنوب للبنان نظيفا ـ ! ـ من الفلسطينيين .

وليس من المعقول أن تظل الحكومات العربية تحارب بعضها بقضية فلسطين وبالتنظيمات الفلسطينية وتستغل ساحة لبنان . ففلسطين ليست ورقة مناورة ولا هى قضية شعب استعمرت أرضه ولكنها قضية العرب وإسرائيل التى وجدت لتحكم المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا بأى وسيلة . وليس هذا الكلام اليسار ولكنه كراسة إسرائيلية عن تصورها للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ حيث يكون دورها هو التنظيم والسيطرة . والعرب العمل ـ ! ـ أى شغيلة اسرائيل .

والغريب أن يتبنى ملك دولة عربية ـ الحسن ـ هذه النظرية الصهيونية ويردد أن العبقرية اليهودية مع المال العربى يمكن أن تصنع شيئا ، وبقولها بعده مناحم بيجين أشهر إرهابى صهيونى بفخر وإعزاز وكأنها حقيقة مسلم بها مع أن العبقرية اليهودية مع المال الامريكى لم يصنعا شيئا فى إسرائيل غير اقتصاد مريض .

وذلك كله مؤشرات على طريق الإجهاز على القضية الفلسطينية تماما . ولما كانت مأساة لبنان لم تصل إلى هذه النتيجة فقد كان لابد من استكمال المسيرة ، ولكن بسينار يو آخر غير سينار يو لبنان وإن لم تستبعد ساحة لبنان فالمهم هو تغيير القوى التى فشلت فى تحقيق الهدف بقوى أخرى ودول عربية اخرى .

ولذلك ظهر على الساحة أكثر من سينار يو واحد منها أن إسرائيل تقوم بتشكيل البديل لمنظمة التحرير من داخل الأراضى المحتلة ونقطة البداية للمرحلة الجديدة هى قرار الكنيست ـ أول سبتمبر ١٩٧٧ بأغلبية ٩٦ صوتا ضد ٤ وامتناع ٦ عن التصويت ويقضى بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير ونص القرار « يجزم الكنيست أن المنظمة التى تدعى منظمة التحرير الفلسطينية هى إطار لمنظمات قتلة هدفها تدمير دولة إسرائيل . وإسرائيل لن تجرى مفاوضات مع منظمات قتله فى أى مجال » .

وتمضى إسرائيل فى نفس الوقت على طريق إيجاد البديل . فهى تقف وراء مجموعة من الضفة الغربية لتشكيل هذا البديل . فقد ذكرت وكالة الأنباء الإسرائيلية فى عال همشمار ـ ٨ سبتمبر ـ أن أفراد المجموعة يسعون لعقد مؤتمر فى رام الله ، وأنهم اعضاء فى البرلمان الأردنى السابق ورؤساء بلديات سابقون وارباب أعمال وتجار . وقالت إنهم سوف يعملون كما يبدو لتنظيم مؤتمر يشبه مؤتمر أريحا سنة ١٩٤٨ حيث قرر وجهاء الضفة الغربية ضمها إلى شرق الاردن . وفى اليوم التالى نشرت هآرتس أن شخصا اسمه مصطفى دودين « أنه » كان وزيرا للداخلية فى

الأردن قال إنهم - أى المجموعة - يسعون لإعادة الضفة الغربية إلى الأردن وقالت الصحيفة إنه هاجم منظمة التحرير وأساليبها الارهابية فى حديث له مع تليفز يون إسرائيل . و بعد يومين آخرين - ١١ سبتمبر - ذكرت صحيفة معاريف أن سلطات الاحتلال العسكرى فى الضفة الغربية سوف تدرس طلب أى جماعة ترغب فى ممارسة نشاط عام فى الضفة الغربية . والشرط الأساسى للسماح بأى تنظيم مماثل هو عدم القيام بنشاط سياسى ضد إسرائيل . وقد كشفت هآرتيس - ١٩ سبتمبر - أسماء هذه المجموعة وهم برهان الجعبرى ابن الشيخ محمد الجعبرى ، وعز يز شحاده - محامى ومصطفى دودين وزير الداخلية الأردنى السابق ومحمد ناصر ية صحفى وحسين الشيوخى محامى . و يقود المجموعة برهان الذى يسعى إلى عقد مؤتمر لمعارضى منظمة التحرير فى إحدى العواصم العربية . .

وتقول هآرتس - ٢١ سبتمبر - إن الحكومة الأمر يكية نقلت إلى العواصم العربية صيغة حل وسط لوز ير الخارجية موشى ديان تقضى بتمكين اشتراك رؤساء بلديات من المناطق المحتلة فى مؤتمر جنيف ضمن الوفد الأردنى . وأن هؤلاء هم الذين سوف تتحدث معهم إسرائيل حول الشكل الذى يقترحونه للعيش معها . . !

وكان من الممكن عدم الاهتمام بهذا التجمع لولا أن الحكومة المصر ية طورت الاقتراح الإسرائيلى إلى اختيار فلسطينيين أمر يكيين بدلا من الإسرائيليين - ! - وهو ما أدخل القاهرة طرفا فى السيناريو المطروح بأن تكون القاهرة العاصمة المرشحة للقاء معارضى منظمة التحرير بعد ماتم اللقاء معهم فى القدس وخلت الصحف المصر ية على القضية الفلسطينية (٨) رغم مافيها من خطأ استراتيجى بشع إلا أنها تمهد بالتعمد أو الجهل لهذا الدور ، وخاصة وأن الأحداث أوضحت عدم فهم حقيقة قضية الوجود الإسرائيلى فى المنطقة وتصور أنه ضد الفلسطينيين . وأن دور مصر هو مجرد دور التضامن ، مع أن القضية موجهة إلى صدر مصر أساسا انطلاقا

من أرض فلسطين وبهذا تدخل مصر نتيجة الحسابات الذاتية لاستكمال مهمة تصفية منظمة التحرير. وهو ماظهرت بوادره فى بيان الإسكندرية الشهير. وهو ماتعرضنا له فى الفصل الأول من هذا الكتاب ودعى برهان الجعبرى إلى القاهرة ولكن رصاصات الثورة كانت فى انتظاره بمجرد عودته لتنهى هذه المحاولة بالفشل. إذ أصيب بقية الأطراف بالفزع وعادت إلى الجحور. فهو ثالث واحد من المجموعة التى كانت تعدها إسرائيل تمتد إليه يد منظمة التحرير بالرصاص فى خلال أسبوع. فقد سبقه للموت حمدى القاضى وحسنين الشيوخى.

وإذا كانت محاولة إيجاد بديل منظمة التحرير قد فشلت باغتيال برهان الجعبرى فإن الولايات المتحدة مضت على طريق نهايته هى استبعاد منظمة التحرير عن النشاط الدبلوماسى والسياسى للتسوية من خلال دورها فى مباحثات مصر- إسرائيل.

فنجد أن التنازلات المتالية خلال عام واحد كانت تتفق مع رغبة إسرائيل فى استبعاد منظمة التحرير وهو ماقد تبلور فى مشروع أطلق عليه مقترحات سلام- الأهرام فى ٦ يوليو ١٩٧٨ - من نقاط ست أغفل تماما ذكر منظمة التحرير واتفق مع بيان الاسكندرية بعودة الضفة الغربية إلى الأردن وغزة إلى مصر، كما أغفل مرتفعات الجولان.

وضمانا لنجاح مثل هذه السيناريو كان لابد أن يصاحبه سيناريو آخر يمس صلب القدرة العسكرية لمنظمة التحرير. وهو سيناريو آخر تشترك فيه العراق بأمل أن تنجح فيما فشلت فيه سوريا بالاستيلاء على منظمة التحرير- من خلال تنظيمها الفدائى- أو تصفيتها. وكان منطق العراق فى تعميم تم توزيعه على كوادر حزب البعث أن النظام فى العراق كان يواجه موقفا صعبا فإما أن يقف مع الثورة الفلسطينية فيقوم الاستعمار بضرب الحزب- البعثى العراقى طبعا- أو أن يقف ضد

الثورة الفلسطينية لتضرب و يبقى الحزب القادر بعد ذلك على إنشاء ثورة فلسطينية جديدة ولذلك قامت العراق - وكالة وفا فى ١٦ يوليو ١٩٧٨ - بالاستيلاء على ٤٠ ٪ من تبرعات شعب العراق لصالح مكتب الكفاح المسلح الذى أنشأه نظام العراق . ثم ارتفعت النسبة الى ٦٠ ٪ إلى أن ارتفعت كل المساعدات الشعبية تماماً .

الأكثر من هذا صادر النظام العراق كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر التى تبرع بها شعب الصين إلى الثورة الفلسطينية ، وهى أسلحة تكفى لتسليح خمسة عشر الف مقاتل بلغت قيمتها حوالى ٥٠ مليون دولار .

كما صادر النظام العراق آلاف الأطنان من المواد التموينية والتجهيزات الفردية والطبية والملابس العسكرية تكفى لثلاثين ألف مقاتل ، وردت إلى الثورة الفلسطينية عن طريق البصرة هدية من شعب الصين ، وتزيد قيمتها عن ٣٠ مليون دولار .

صادر النظام العراق مصانع الأسلحة التى تم إنشاؤها بأموال حركة « فتح » على أن يكون الانتاج مشتركا بين العراق وحركة « فتح » وهذه المصانع هى :

- مصنع إنتاج مدافع الـ « ار. بى . جى » الذى زاد مادفعته « فتح » لتأمين آلاته ومعداته العلمية الخاصة بحوالى ٨ ملايين دولار .
- مصنع للغواصات الصغيرة . وكان يمثل نقطة تحول فى العمل الفدائى بالعالم .
- مصنع إنتاج مدافع الـ « ار. بى . جى » الذى زاد مادفعته « فتح » لتأمين آلاته ومعداته العلمية الخاصة بحوالى ٨ ملايين دورلا .
- مصنع للغواصات الصغيرة . وكان يمثل نقطة تحول فى العمل الفدائى للعالم .
- مصنع للالغام البحرية .

مصنع الأدوات الفنية الخاصة والمتصلة بمتطلبات أعمال عسكرية .

والغريب أن النظام العراقى لم يصادر هذه المصانع فقط ، بل رفض تنفيذ الاتفاق الذى يعطى « فتح » حق الاستلام نصف الإنتاج بعد أن دفعت تكاليف هذه المصانع ، أما العلماء الفلسطينيون والعرب الذين قدموا من مختلف أنحاء العالم عن طريق حركة « فتح » والذين أنشأوا وأداروا هذه المصانع ومراكز البحث العلمى فيها . فقد سجن من رغب منهم مغادرة العراق للعودة إلى صفوف الثورة الفلسطينية بعد أن ذاقوا مرارة التعذيب والإرهاب والقهر .

وصادر النظام العراقى مزرعة الدواجن التى أنشأتها حركة « فتح » فى العراق لصالح أسر الشهداء وأجهزتها الفنية المتقدمة التى اشترتها .

كما صادر النظام العراقى كافة مخازن الأسلحة التابعة لحركة « فتح » والتى اؤتمنت عليها القوات العراقية فى الأردن سنة ١٩٧٠ فى منطقة المفرق .

وقد هددت منظمة فتح - جريدة السفير ١٧ يوليو ١٩٧٨ - أنها سوف تكشف بالوثائق فى الوقت المناسب دور النظام العراقى المضاد للثورة الفلسطينية فى الأردن أثناء مذابح سبتمبر ١٩٧٠ التى قام بها الملك حسين .

و يتم هذا الدور العراقى فى ظل مشروع الميثاق القومى الذى طرحته العراق على الأمة العربية وهو لا يهدف إلى إنهاء جبهة الصمود ولكن إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل حيث يقضى البند الثالث على تحريم اللجوء إلى استخدام القوات المسلحة مع الأمم والدول المجاورة للوطن العربى إلا فى حالة الدفاع عن السيادة والنفس . !

وهناك سيتار يوهات أخرى كثيرة كلها تعنى حقيقة واحدة هى أن التخلف السياسى يسود المنطقة العربية وأن النظم العربية لا تحتمل وجود ثورة بينها حتى لو كانت فلسطينية على هذا القدر من الاعتدال ، ولكنها فى النهاية ثورة .

واحتمالات نجاح أو فشل أي من هذه السينار يوهات مسألة مرهونة بإدراك الحكومات العربية لمدى الأخطاء الفادحة التي وقعت نتيجة الحسابات الذاتية للجميع - ! - والذين يتحركون بين العواصم العربية يقولون إن القيادة السورية أدركت بشاعة ما ارتكبته وتحاول جاهدة إنقاذ بعض الأطلال الباقية . والاحتمالات مرهونة أيضا أن تتنازل كل منها عن خلافاتها مع الأخرى ، فالمسألة ليست تشدد طفولي وإنما تقدير لمسئوليات المرحلة حتى لايصبح الكل شركاء حتى بالانسحاب .

فالحسابات السياسية تكشف أن مأساة لبنان وبهذا الثمن الباهظ لم تحقق أهدافها كاملة . فهي قد قيدت حركة المقاومة الى حد ما ولكنها لم تفقدها استقلالها . ورجحت كفة اليمين والوسط ولكنها لم تستطع القضاء على يسارها حتى لو استمرت عمليات التصفية الجسدية التي جرت بعد انتهاء الحرب .

وربما كان أنجح ما حققته مذبحة لبنان هو ذبح الصحافة اللبنانية التي أصبحت تصدر كل صباح وهناك مساحات بيضاء حذفها الرقيب - ومابقي فهو رهين لقانون الإرهاب الصحفي الذي سمي مجازا بقانون المطبوعات الجديد (٩) وهو السلاح المسلط على الصحف الوطنية . وأفقد صحف لبنان كثيرا من القراء حتى في لبنان نفسها .

وقد كان ممكن للبعض أن يدعي أن عملية لبنان حققت مكاسب أخرى إلا أن ماكاد أن يتحقق قد اختفى مع صدور البيان الأمريكي السوفيتي في أول اكتوبر - ١٩٧٧ - لتكون المفاجأة هي وجود الاتحاد السوفيتي على مائدة الشرق الأوسط بعد ماكانت حسابات الكثيرين قائمة على فرضية مسلم بها وهي غيابه .

ورغم أن البعض يتصور أن تطويع المقاومة قد تم بدرجة يجعلها تقبل بقرار (٢٤٢) لمجلس الأمن الذي لايتعلق بها وبأي تمثيل لها في جنيف ، فإن

الواقع يقول إن التطويع لم يصل إلى هذا الحد من الانكسار. فما زالت مسألة تمثيل الفلسطينيين قائمة كما كانت مع بداية نزيف الدم فى مأساة لبنان.

وإذا كان الذين بذلوا المال والسلاح والجهد لتحقيق المأساة مكاسب على حساب التيار الوطنى فإن الأمر المؤكد أنه رغم نزيف الدم فإن هناك مكاسبا لصالح هذا التيار إن استطاعت الحركة الوطنية العربية استيعابها جيدا. وسوف أقتصر هنا على نقطتين كل منها تعتبر علامة على الطريق. الأولى هى اكتساب الحركة الوطنية خبرة حرب المدن. وهى أول تجربة للحركة الوطنية العربية يجب أن تحرص على دروسها جيدا وتحرص على كوادرها القيادية أيضا.

والنقطة الثانية هى ظاهرة أحمد الخطيب الذى قام بدور كبير لا يمكن أن تكون مكافأته عليه هى استضافته فى سجن المزة السورى. وكأننا نريد أن نقول إن كل من يقوم بعمل وطنى سوف يكون جزاؤه سجن المزة - ! - وخاصة اذا كان ذلك الدور فى إطار العسكرية وفى دولة لم يكن لها جيش بالمعنى الصحيح. ولابد من عمل دراسة متكاملة عن ظاهرة أحمد الخطيب والجيش العربى لتكون رصيدا ..

وتبقى مسألة شكل البنيان السياسى والاقتصادى فى لبنان. وهى مسألة سوف تطول لأن الشعارات المطروحة كلها لا تنبع من الواقع ولهجات الحديث مازالت بعيدة عن الصواب. فلا النظام القديم يصلح ولا اقتراح « اللامركزية » يصلح الآن بعد أن أصبحت هناك مناطق مارونية وأخرى غير مارونية وتكون اللامركزية فى هذه الحالة على أساس طائفى. والمعضلة لم تكن فى الأساس طائفيا ولكنها كانت اقتصادية. والفرصة متاحة بالفعل لبناء اقتصاد لبنانى جديد، خاصة وأن كل شىء قد تهدم وبالتالى فعملية البناء أسهل بما يجعل للبنان اقتصادا إنتاجيا حقيقيا بدلا من هذا الاقتصاد الوسيط. والغريب أن الكل يتحدث عن المركزية واللامركزية والعلمانية واللاعلمانية بينما أصل المشكلة وجوهرها بعيد

عن الحوار والبحث ، مع أن الجهاز الحاكم ابتداء من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء فى أغلبهم هم مجموعة اقتصادية متكاملة وهى لاتحتاج إلا إلى جرأة القرار وشجاعة التنفيذ . والحقيقة التى سوف تدعمهم هى أنه مالم يتم إعادة صياغة البنيان الاقتصادى فسوف تبقى كل مبررات الثورة والقلق وكفى ضياعا وراء شعار اجعلوها طائفية بدلا من أن تكون طبقية .

ونعود من الرحلة مع المأساة بنظرة خاطفة على الغد الذى أضعناه بأيدينا بان مفتاح الموقف كان هوغياب استراتيجية عربية واحدة مما أتاح للحسابات الذاتية لكل دولة أن تنطى على الهدف الاستراتيجى . والخطر أننا مازلنا نمضى على نفس الطريق وبنفس السرعة.وكأننا نصر على المضى نحو الهاوية وظلام الضياع بلا غد .

فليس من المعقول أن يكون أمن زائير أهم من أمن الثورة الفلسطينية ، ولا مشكلة الصحراء أهم من مشكلة إسرائيل مع لبنان .

وليس من المعقول أيضا أننا نضع تفسيرات لما نوقع عليه تختلف من يوم لآخر ، ومثال ذلك اتفاقية القاهرة بين منظمة التحرير ولبنان ، والتى يحلو للبعض الحديث اليوم عن اتفاقية شتورا . وليس هناك اتفاقية شتورا أو ملكارت بل الصحيح أن هناك اتفاقية القاهرة وتفسيرات ملكارات والرياض وشتورا وكل تفسير منها وليد ميزان القوى لحظة التفسير ومزاج الزعامات مع المقاومة . فالثورة الفلسطينية من أغلى مايجب تحرص عليه الأمة العربية وأن تترك لها حرية الاختيار والعمل دون تدخل أو تطفل بدلا من أن نضع العراقيل أمامها بأيدينا ثم نعود ونبكى على المائدة وإسرائيل تفرض شروطها والولايات المتحدة تنفذها لها ، ويومها لن ينفع البكاء .

لقد انتهت الحرب فى لبنان ولكن المشكلة باقية والبنادق مازالت على الاكتشاف ولعل أكثرها خطر هى بقاء عدة رصاصات فى عدد من المسدسات مكتوب على كل رصاصة كلمة «الثأر». وهى بالتأكيد سوف تبقى مهما تغيرت الادوار واستعاد البعض لحجته ـ! ـ مالم تسرع بوضع استراتيجية عربية تعطى دفعه للثورة لا أن تطوعها .

هوامش الخاتمة

(١) تقرير أولى لجمعية الصناعيين عن الخسائر. جريدة السفير. بيروت ١٥ ـ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٧٦ .
(٢) جريدة الأنوار. ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٦ .
(٣) اسكندر معلوف . صوت النور عدد ٤٩ فى ٩ أبريل سنة ١٩٧٧ .
(٤) الحملة على الشعب الفلسطينى بعد مؤتمرى الرياض والقاهرة: منظمة التحرير. جهاز الأمن ، قسم المعلومات .
(٥) جريدة السفير ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٧٧
(٦) جريدة العمل ٢٩ يوليو سنة ١٩٧٧
(٧) جريدة السفير ٥ سبتمبر سنة ١٩٧٧ .
(٨) مثل مقالات موسى صبرى. الأخبار. مكرم محمد أحمد. الأهرام.
(٩) نص القانون فى صحف لبنان ٣ ـ ٥ يوليو سنة ١٩٧٧ .



الملاحق

البيان الفلسطيني الكتائبي المشترك الذى
تم الاتـــــفاق عليــــه فى ٣١/ ٥/ ٧٣

بناء على الرغبة التى أبداها كل من : الشيخ بيار الجميل - رئيس الكتائب اللبنانية ، الحزب الديمقراطى الاجتماعى ، السيد ياسر عرفات - رئيس اللجنة التنفذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية . وعلى ضوء الأحداث المؤسفة التى جرت فى شهر آيار الحالى . اجتمع فى الفترة الواقعة ما بين الجمعة ١/٦/٧٣ والخميس ٧/٦/١٩٧٣ ، وفد الكتائب اللبنانية المؤلف من السادة : جوزيف شادر، جورج سعادة ، أمين الجميل ، وكريم بكردونى - ووفد المقاومة الفلسطينية المكون من السادة : أبو إياد (فتح) ياسر عبد ربه (الديمقراطية) صلاح صلاح (الجبهة الشعبية) ، على ابراهيم (الصاعقة) أحمد الازهرى توفيق الصفدى (فتح) .

وقد توصل المجتمعون بعد محادثات طويلة اتسمت بالصراحة والموضوعية إلى تحديد الأسس الكفيلة بتحقيق الصالح اللبنانى ـ الفلسطينى المشترك وفق برنامج العمل التالى :ـ

أولا : يرى المجتمعون أن إسرائيل خطر مداهم ليس على الفلسطينيين وحدهم بل على المجموعة العربية كلها ، وخاصة على لبنان أرضا وشعبا كيانا واقتصاديا . فالدولة الاسرائيلية (المرتكزة على العنصرية التوسعية تعتبر رفضا للشرائع الدولية والحقوق الإنسانية ، ونقضا للصيغة اللبنانية) القائمة على التعايش الحر بين مختلف فئات الشعب والديانات والعقائد لذلك يعلن المجتمعون ما يلى :ـ

أ ـ حق الشعب الفلسطينى المقدس فى النضال لاسترداد أرضه وتأسيس الدولة الديمقراطيه الفلسطينية ، حيث يتعايش الجميع ، بغض النظر عن انتمائهم الدينى أو العقائدى ، وذلك كبديل للكيان الصهيونى .

ب ـ واجب الدفاع عن لبنان وسلامته أراضيه ، ووحدة شعبه واتخاذ كافة الإجراءات لجسم الاعتداءات الإسرائيلية ، وتجنب الوقوع فى الفخ الاسرائيلى ، الذى يهدف إلى افتعال الاقتتال بين الإخوة على الأرض اللبنانية ، بغية تقيت الوجود اللبنانى كتوطئة لإعادة تركيب خريطة المنطقة .

ج ـ أن الاعتداءات الاسرائيلية على جنوب لبنان ليست بسبب التواجد الفلسطينى إنما مصدرها اطماع اسرائيل فى جنوب لبنان ، ولذلك الوقوف فى وجه هذه الاعتداءات واجب وطنى يشغل اللبنانيين والفلسطينين

ثانيا : يرى المجتمعون أن السيادة اللبنانية مسألة غير قابلة للجدل ، وهى مصونة لا تمس ، ويجب أن تحظى باحترام كل الذين يعيشون فوق أرضه و يستظلون سماءه فالسيادة اللبنانية كل لا يتجزأ ، ولا يتحمل الانتقاصات ولا التجوزات ـ لذلك

يعلن المجتمعون مايلى :

أ- احترام الفلسطينيين للقوانين اللبنانية وسلطات القضاء اللبنانى .

ب- التزام المقاومة بعدم التدخل فى شئون لبنان الداخلية .

ثالثا : يرى المجتمعون أن التعايش اللبنانى - الفلسطينى ضرورة تحتمها القناعة الموضوعية واختيار قائم على الإرادة المشتركة ومبنى على الثقة والمحبة المتبادلين لذلك يعلن المجتمعون مايلى :

أ- تطبيق مايتم التفاهم عليه بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من اتفاقات .

ب- اعتمادة الحوار سبيلا وحيدا لحل المنازعات والامتناع عن ممارسة أساليب العنف والقوة مهما كانت الأسباب .

ولما كان التقاء وجهات النظر كاملا حول هذه القضايا المبدئية ، وعلى ضوء عملية نقد ذاتى جزئية ، ومن أجل تعميق الثقة المتبادلة ، اتفق المجتمعون على وضع الخطة التنفيذية التالية :

١- القيام بحملة توعية مشتركة على الصعيد الشعبي خاصة فى المجال العمالي والنسائي والطالبي ، وذلك من خلال وسائل الاعلام المتوافرة لدى كل من الفريقين .

٢- تبادل المشاركة فى المؤتمرات العامة والمناسبات الوطنية .

٣- السعى من قبل الكتائب لطرح برنامج العمل المتفق عليه ، على مختلف القوى السياسية والاجتماعية اللبنانية .

٤- التعاون فى المجالات الدولية وتعبئة الامكانات لكسب الصدقات من أجل القضية الفلسطينية

٥ـ تشكيل مكتب متابعة دائم للعمل على تحقيق الخطة التنفيذية على كافة المستويات والقضايا الآتية و يتكون من :

ـ الاستاذ جوزيف شادر.

ـ الدكتور جورج سعادة .

ـ الشيخ أمين الجميل .

ـ الأستاذ كريم بكرودنى .

عن الكتائب

الاخوة :

ـ ياسر عبد ربه .

أحمد الأزهرى .

ـ توفيق الصفدى .

عن المقاومة

«اتفاقيـــــة القاهـــــــرة»

فى يوم الاثنين ٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٩ اجتمع فى القاهرة الوفد اللبنانى برئاسة عماد الجيش أميل البستانى ووفد منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة السيد ياسر عرفات رئيس المنظمة وحضر من الجمهورية العربية المتحدة السيد محمود رياض وزير الخارجية والسيد الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية .

انطلاقا من روابط الأخوة والمصير المشترك فإن علاقات لبنان والثورة الفلسطينية لابد وأن تتسم دوما بالثقة والصراحة والتعاون الإيجابي لما فيه مصلحة لبنان والثورة الفلسطينية وذلك ضمن سيادة لبنان وسلامته .. واتفق الوفدان على المبادئ والاجراءات التالية :

الوجود الفلسطيني :

تم الإتفاق على إعادة تنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان على أساس :

١ - حق العمل والإقامة والتنقل للفلسطينيينالمقيمين حاليا في لبنان .

٢ - إنشاء لجان محلية من الفلسطينيين في المخيمات لرعاية مصالح الفلسطينيين المقيمين فيها وذلك بالتعاون مع السلطات المحلية وضمن نطاق السيادة اللبنانية .

٣ - وجود نقاط للكفاح الفلسطيني المسلح داخل المخيمات تتعاون مع اللجان المحلية لتأمين حسن العلاقة مع السلطة وتتولى هذه النقاط موضوع تنظيم وجود الأسلحة وتحديدها في المخيمات وذلك ضمن نطاق الأمن اللبناني ومصلحة الثورة الفلسطينية .

٤ - السماح للفلسطينيين المقيمين في لبنان بالمشاركة في الثورة الفلسطينية من خلال الكفاح المسلح ضمن مبادئ سيادة لبنان وسلامته .

العمل الفدائي :

تم الاتفاق على تسهيل العمل الفدائي وذلك عن طريق :

١ - تسهيل المرور للفدائيين وتحديد نقاط مرور واستطلاع في مناطق الحدود .

٢ - تأمين الطريق إلى منطقة العرقوب .

٣- تقوم قيادة الكفاح المسلح بضبط تصرفات كافة أفراد منظماتها وعدم تدخلهم في الشئون اللبنانية .

٤- إيجاد انضباط مشترك بين الكفاح المسلح والجيش اللبناني .

٥- إيقاف الحملات الإعلامية من الجانبين .

٦- القيام بإحصاء عدد عناصر الكفاح المسلح الموجودة في لبنان بواسطة قيادتها .

٧- تعيين ممثلين عن الكفاح المسلح في الأركان اللبنانية يشتركون بحل جميع الأمور الطارئة .

٨- دراسة توزيع أماكن التركز المناسبة في مناطق الحدود والتي يتم الاتفاق عليها مع الأركان اللبنانية .

٩- تنظيم الدخول والخروج والتجول لعناصر الكفاح المسلح .

١٠- إلغاء قاعدة جيرون .

١١- يسهل الجيش اللبناني أعمال مراكز الطبابة والإخلاء والتموين للعمل الفدائي .

١٢- الإفراج عن المعتقلين والأسلحة المصادرة .

١٣- ومن المسلم به أن السلطات اللبنانية من مدنية وعسكرية تستمر في ممارسة صلاحياتها ومسئولياتها كاملة في جميع المناطق اللبنانية وفي جميع الظروف .

١٤- يؤكد الوفد أن الكفاح المسلح الفلسطيني عمل يعود لمصلحة لبنان كما هو لمصلحة الثورة الفلسطينية والعرب جميعهم .

١٥- يبقى هذا الاتفاق سريا للغاية ولايجوز الاطلاع عليه إلا من قبل القيادات فقط .

لجانب وزارة الدفاع الوطني

إلحاقا للكتاب ١٥/١ . ع/ س تاريخ ٩/٣/٧٥ اجتمع بتاريخ ١٠/٣/١٩٧٦ قائد الجيش ورئيس الأركان العامة بقادة المناطق والمفتش العام ومعاوني رئيس الاركان ورئيس الشعبة الثانية وتبين أن صورة الوضع هي التالية :

١ - في مدى ساعات ستنهار معظم الثكنات .
٢ - سوف يتخلى عن مختلف الأدوار التي يقومون بها .
٣ - سيؤدي الوضع الى وقوع القسم الأكبر من لبنان بأيد غير مسئوولة .

ونتيجة ذلك رأى المجتمعون :

١ - يعرض هذا الوضع المؤلم على السلطات المسؤولة :
٢ - إن أي حل سياسي من شأنه مهما كلف أن يبقى أسلم مما ينتظر مصير الجيش والبلاد في حال استمرار الوضع القائم ولو لساعات .

اليرزة في ١٠/٣/١٩٧٦
العماد حنا سعيد
قائد الجيش

على الصعيد العسكري :

الإسراع الكلي في إيجاد حل لقضية الضباط والعسكريين الفارين وذلك في إطار المباحثات مع الوفد السوري الذي يملك مباشرة أو بالواسطة كافة المعطيات والوسائل التي تساعد على إنجاح الحل .

على الصعيد السياسي :

إيجاد حل يساعد على إعادة اللحمة عن طريق اعادة اللحمة للشعب

فاللحمتان متلازمتان .

إن هذه القيادة ترى فيما سبق ار يراده تجسيداً لما يليه الواجب والضمير فى مرحلة بات فيها مصير الجيش والبلاد على كف عفريت .

اليرزة فى ٩/٣/ ١٩٧٦
العماد حنا سعيد قائد الجيش

الى الزميل اللواء حكمت

سنة ٢٠٠٠ القتال على أشدة عدد ٢ مجموعة قتالية من القوات الخاصة مشتبكة على دوار الكولا - تستعمل الصواريخ بكثره لأن القتال شرس - تقريبا يمكن أخذ الموقف من قائد الوحدات لأن الادخال صعب - القتال الآن عند المدنية الجامعية - جميع المسلحين فى بيروت يقاتلون صدينا - للاطلاع

غير حتى اتخاذ اجراء فاشي لتخفيف الضغط عن بيروت

الزميل زهير

الزميل اللواء حكمت

تحية عربية

تزداد الاشتباكات عنفا بيننا وبين جميع القوى الأخرى ، وقد بدأت بعض سرايا الوحدات تشارك فى القتال اعتبارا من الساعة ٠٠ر١٩ . لم تبلغ أن كان سوف تتحرك قوات باتجاهنا .

الكتائب تسأل بالحاح عن تجمعات غير معروفة فى عينطورة وتسأل أن كانت قوى سورية أم من الفئات الأخرى .

٩/٦/ ١٩٧٦

الرفيق اللواء حكمت .

تحية عربية .

بعد تحديد موعد جلسة مجلس النواب ، وموقف نبلاط السلبى ، ومحاولاته لعرقلة انعقاد الجلسة أو تأجيلها على أمل الوصول الى مرشح تسوية ، بات من الضرورى الاستعجال فى تحريك كتيبة جيش التحرير مع البقاع ، وإذا أمكن أن تتحرك سرية من كتيبة القدم ديب الى صيدا ، لكى تسحب القوات من صيدا والنبطية وتجمعها فى بيروت .

يرجو الاهتمام .

مع تحيات

الرفيق اللواء حكمت

تحية غربية

لايزال طلال المرعبى وناظم القادرى يظهران مواقف سلبية . أرجو تكليف الجهات التى تؤثر عليها فى القطر لمزيد من الاهتمام بتصحيح موقفها ، الى جانب التأكيد على نواب البقاع

لم يردنا جواب عن طلب سليمان العلى وفهمى شاهين لزيارة دمشق .

٢٦/٤/١٩٧٦

الزميل اللواء حكمت

تحية عربية .

اجتماع كمال جنبلاط كان مع بشير الجميل وليس مع بيار .

لقد أعلمنا الكتائب سبقا عن اتصالات فتح معهم من أجل عقد اجتماع مع جنبلاط . وعن زيارات مندوبي فتح اليهم في المنطقة الشرقية .

طرح جنبلاط على بشير الجميل عقد تحالف بينهما للوقوف في وجه التدخل السوري . قال بشير أن هذا الموضوع يتجاوز مسؤولياته

الزميل أمين سر المنظمه
تحية عربية .

للاتصال بكامل الأسعد ودعوته لزيارة دمشق باسم الرئيس حافظ الأسد يوم الاثنين اذا كان يفضل موعداً آخر لأعلامنا النتيجة فوراً .
اللواء حكمت

الزميل اللواء حكمت

تحية عربية .

اتصلنا بالسيد كامل الأسعد وابلغناه الدعوة ، سيحضر الأثنين ، وسوف يتصل بنا اذا كان مضطراً لتغيير الموعد

يرجو الاطلاع

إلى جميع القطاعات الساعة ٠٠ ر٢٣
جميع الساعات
تحية عربية .

وحدات عناصر وقوات فتح وحدات الرفض وسائر الأضراب المرتبطة بالعميل

الانفصالى كمال جنبلاط ، الاستفزاز والتحرش والاعتداءات المسلحة على مكاتب القوة الصدية فى انحاء عديدة من بيروت واشتبكت مع عناصرنا فى مختلف المناطق وخاصة منطقة برج ابو حيدر وفردان والزيدانية والشتاح و بير العبد والطرفين الجديدة

مايزال القتال مستمرا بين عناصرنا و بين الجماعات للانفصالية المنحرفة العملية .

فى الوقت ذات تولت القوات العربية السورية باتجاه الجبل عبر عدة محاور ودخلت الآن

قرارات مؤتمر القمة السداسى فى الرياض

إن مؤتمر القمة العربى المحدود والمنعقد فى الرياض فى المدة من الثالث والعشرين إلى الخامس والعشرين شوال ١٣٩٦ هجرية الموافق من السادس إلى الثامن عشر من تشرين الأول ١٩٧٦ ميلادية .

بناء على مبادرة من جلالة الملك بن عبدالعزيز آل سعود ملك العربية السعودية وصاحب السمو الشيخ صباح السالم الصباح امير دولة الكويت .

بعد استعراض قرارات مجلس جامعة الدول العربية فى ادوار انعقاده غير العادية فى ثمانية إلى عشرة (يونيو) حزايون ١٩٧٦ و ٢٣ حزايون ١٩٧٦ الى أول تموز ١٩٧٦ ميلاديه وفى دور انعقاده فى ٤ ايلول ١٩٧٦ .

وانطلاقا من الالتزام القومى بالحفاظ على وحدة لبنان وامنه وسيادته وكذلك بالحفاظ على المقاومة الفلسطينية ممثلة بمنظمة الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى طبقا لقرارات الرباط وتقرير قدرتها على الصمود فى وجه كافة المحاولات التى تستهدف كيان الشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير مصيره واستعادة ترابه الوطنى .

وإيمانا بوحدة الهدف والمصير بين الشعبين اللبناني والفلسطيني الشقيقين واستحالة قيام أي دولة تناقض في المصلحة بينهما ، ومن موقع الإصرار على تجاوز الماضي بسلبياته ورواسبه والاتجاه إلى المستقبل بروح المصالحة والحوار والتعاون ووجوب الإسراع بتوفير الظروف والضمانات اللازمه لاستقرار الحياة الطبيعية في لبنان وترسيخ مؤسساته والاقتصادية وغيرها وتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من تحقيق أهدافها القومية .

وانطلاقا من الروح الايجابية البناءة التي ابداها القادة المجتمعون في هذا المؤتمر بما يكشف عن رغبة صادقة لديهم جميعا في إنهاء الأزمة في لبنان إنهاء حاسما لارجعه فيه وتطويق أى خلاف يمكن أن يقع في المستقبل ، يقرر المؤتمر مايلي :

أولا وقف إطلاق النار وانهاء القتال في كافة الأراضي اللبنانية من قبل جميع الأطراف بصورة نهائية اعتبارا من الساعة السادسة صباح يوم الحادى والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٧٦ ، والتزام الأطراف بذلك التزاما تاما .

ثانيا تعزيز قوات الأمن العربية الحالية لتصبح قوة ردع تعمل في داخل لبنان بأسرة رئيس الجمهورية اللبنانية شخصيا على أن تكون في حدود ٣٠ ألف جندى و يكون من مهامها الاساسية :

١ ـ فرض الالتزام بوقف اطلاق النار ووقف الاقتتال والفصل بين القوات المتحاربه وردع مخالف .

ب ـ تطبيق اتفاقية القاهره وملحقاتها .

ج ـ حفظ الأمن الداخلي .

د ـ الإشراف على سحب المسلحين من الأماكن التي كانوا فيها قبل تاريخ ١٣ / ٤ / ١٩٧٥ ، وازالة المظاهر المسلحة وفقا للجدول المبين في الملحق

المرفق . (راجع الملحق ادناه) .

هـ- الاشراف على جميع الأسلحة الثقيلة من مدفعية وهواو ين وقواعد صوار يخ وآليات مدرعة الى آخره تحت مسئولية الاطراف المعنية .

و- مساعدة السلطة اللبنانية عند الإصرار على استلام المرافق والمؤسسات العامه تمهيدا لاعادة تسييرها وحماية المنشآت العامة العسكر ية والمدنية .

ثالثا اعادة الحياة الطبيعية فى لبنان الى الحالة التى كانت عليها البلاد قبل بدء الأحداث أى قبل تار يخ ١٣ / ٤ / ٧٥ كمرحلة أولى وفقا للجدول الزمنى المبين فى المللحق المرفق .

رابعا تنفيذ اتفاقية القاهره وملاحقها والالتزام بمضمونها نصا وروحا وذلك بضمانه من الدول العزبية المجتمعة . وتؤلف لجنة تضم ممثلين عن المملكة العربية السعودية وجمهور ية مصر العربية والجمهور ية العربية السور ية ودولة الكويت . تقوم بالتنسيق مع رئيس الجمهور ية اللبنانية بما يتعلق بتنفيذ اتفاقية القاهره وملاحقها وتكون مدتها ٩٠ يوما من تار يخ اعلان وقف اطلاق النار .

خامسا تؤكد منظمة التحر ير الفلسطينية احترامها لسيادة لبنان وسلامته وعدم تدخلها فى شئونه الداخلية انطلاقا من التزامها الكامل بأهداف القضية الفلسطينية القومية وتضمن السلطة الشرعية اللبنانية بالتالى لمنظمة التحر ير الفلسطينية سلامة وجودها وعملها على الأراضى اللبنانية ضمن اطار اتفاقية القاهره وملاحقها .

سادسا تتعهد الدول العربية المجتمعة باحترام سيادة لبنان وسلامته ووحدة شعبه وارضه .

سابعا تؤكد الدول العربية المجتمعة التزامها بقرارات القمة فى الجزائر والرباط بمسانده المقاومة الفلسطينية ممثلة بمنظمة التحر ير

الفلسطينية ودعمها واحترام حق الشعب الفلسطيني في الكفاح بكافة الوسائل لاسترداد حقوقه الوطنية

ثامنا : الشئون الأعلامية :

أ- وقف الحملات الأعلامية والتعبئة النفسية السلبية من قبل كافة الاطراف .

ب- توجيه الاعلام بما يكرس وقف الاقتتال وتحقيق السلام وتنمية روح التعاون والاخاء بين الجميع .

جـ- العمل على تنفيذ الإعلام الرسمي .

تاسعا اعتبار الجدول الملحق المتعلق بتنفيذ هذه القرارات جزءا لايتجزأ منها .



الفـــــهرس



رقم الأيداع ٢٩٠٣ / ٨١
الترقيم الدولى ٧ - ٣٢ - ٧٣٣٢ - ٩٧٧







ج٠م٠ع
٢٠٠ قرش

المركز العربى للبحث والنشر
د. السيد محمود الشنيطى وشركاه
ص . ب . ٣٤ هليوبوليس . القاهرة . تليفون ٦٦٩٩٤٢